موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان، المذاهب، الفرق، البدع في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

البوذيّة

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الخامس

البوذيّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة : موسوعَة عَالَم الأديَان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

إسم الكِتَاب : البُوذِيَّة

الجزء : الخَامِس

المؤلّف : مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفَرِّج

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مكان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفصل الأوّل

البُوذِيَّة وبُوذا

الفَصلُ الثَّانِي

بُوذَا في حَيَاتِه وتَعَاليمِه

الفَصل الثَّالِث

تطوُّر البُوذِيَّة وتَنظيمُها

الفصل الرَّابِع

إنتِشَارُ البُوذِيَّة فِي الشَّرق

الفَصلُ الخَامِس

بَادمَا سَمبَاهَافَا والبُوذيَّة فِي التِّبِيت

الفَصلُ السَّادس

نَظرَةٌ إلى التُّراث البُوذيّ

الفصل الأوّل

البُوذيَّة وبُوذا

تَعريفٌ بالبوذيّة؛

مـولدُ بُـوذا؛ أَسطُورَة الولادَة؛

تَكريسُ سودها رتا ونَشأتُه؛ الطَّائِرُ الحَكِيم.

تَعريفٌ بالبوذيّة

تنتشر البوذيّة اليوم في البلدان التالية: الهند، نيبال، الصين، بورما، بوتان، تايلند، تايوان، سري لانكا، سنغافورة، كمبوديا، كوريا، لاوس، منغوليا، أندونيسيا، اليابا، ماليزيا. كما نجد الآن بعض الرهبانيّات البوذيّة المتفرّقة في بعض الدول الغربيّة أيضًا. وفيما اعتبر باحثون أنّ عدد البوذيّين في العالم اليوم يبلغ قرابة ٤٠٠ مليون نسمة[١]، ضاعف باحثون آخرون هذا العدد وجعلوه نحو ٨٠٠ مليون، أي أكثر من خُمس العالم، وأنّ الجماعة الرهبانيّة البوذيّة قد توسّعت لتشمل الآلاف، فأقيمت الأديرة، والجامعات الرهبانيّة مثل "نالندا" و"فِكْرَ مَسِلا"، وصارت مراكز ثقافيّة أثّرت تدريجًا على كلّ آسية، ومن خلالها، على الحياة الفكريّة للجنس البشريّ[٢]. ويرى بعض الباحثين أنّ الدين البوذيّ صار دينًا عالميًّا وكبيرًا، وأنّ أتباعه أكثر عددًا من أيّ دين آخر، ويليه في كبر العدد الدين المسيحيّ، ثمّ الدين الإسلاميّ ثمّ الدين الهندوسيّ[٣].

جاءت البوذيّة في وقت كانت الهند تتخبّط في ظلام من الطقوس العقيمة في ظلّ استبداد الكهنة ومحاولتهم تفسير النصوص المقدّسة مع ما يتناسب ومصالحهم الضيّقة،

---

١ ـ السحمراني أسعد، موسوعة الأديان الميسّرة، دار النفائس (بيروت،٢٠٠٢) ص١٥٠.

٢ ـ حلو جورج، صعب ريما، كفوري روبير، الحكمة البوذيّة، حياة البُوذَهَـ، تعاليمه، سبيل الحقّ، حلقة الدراسات الهنديّة، نوفل (بيروت،١٩٩٧) ص١١.

٣ ـ إنجيل بوذا، ترجمة سامي سليمان شيّا، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، (لبنان، ١٩٩١)، ص ١١.

فكانت البوذيّة نورًا يُهتدى به وصرخةَ محبّةٍ في وجه البغضاء ونداءً لضبط النفس والعودة إلى الأصل والتسامي إلى العلاء. هذا ما جعل التجاوب سريعًا بين المعلّم وتلاميذه، وبينهم وبين كلّ الذين سمعوا عن الناموس الذي أعلنه المعلّم المستنير الذي عاش رسالته أكثر ممّا علّم بالكلام. وقد عُرف مؤسّس البوذيّة "بوذا BUDDHA"، ومعنى الإسم في السنسيكريتيّة: المتنوّر أو المستنير، بأسماء وألقاب مختلفة، هي: الكامل، المستنير، الفريد، المبارك، المعلّم، سليل الشمس، المتّحد، البالغ حدّ الكمال، الساعي إلى الإشراق، العالِم العظيم، قاهر الأعداء، الممجَّد، البالغ المقام الحسن، المتجاوز، غوتَم، والمنتصر على كلّ الشرور. واعتبر باحثون أنّ البوذيّة هي جوهرة كنوز الهند الروحيّة، انطلقت منذ حوالى الألفَي وخمسمائة سنة في الهند، وانتشرت عبر القرون في بلدان كثيرة، فامتصّت الجزء الأكبر من تقاليدها المحليّة. إلاّ أنّ الجذور الهنديّة للبوذيّة بقيت هي المركزيّة والأساسيّة. وإذا كانت البوذيّة قد ظهرت مع بوذا، كما هو اسمه سائد في اللغة العربيّة، في القرن الخامس قبل الميلاد، إلاّ أنّ أصولها تمتدّ إلى ما قبل هذا بكثير، ولكن بدون تنظيم ورهبانيّات وما شابه. ومنذ ألفَي وخمسمائة سنة إلى اليوم، لم تنقُض البوذيّة الحقائق الكونيّة الدائمة، ما يجعل منها حليفة أو شقيقة لكلّ المعتقدات الدينيّة والفلسفات والعلوم. وتنبثق البوذيّة من الضباب الذي يظلّل كلّ نطاق الفكر الهنديّ لدرجة أنّها تصلح كمَعْلَم ترتيب زمنيّ لتاريخ الهند. إنّها تفلت من جوّ الإبهام وعدم التحديد الذي تغرق فيه كلّ الحركات الفكريّة الهنديّة، هذا البلد الدائم التغيّر والمشابه لذاته أبدًا[١].

بناء على رأي بوذا، البوذيّة فلسفة، لكنّها في رأي البوذيّين دين. ويتّفق باحثون مع بوذا إذ يرون أنّه لم يكن نبيًّا، ولا صاحب دين، ولم يتلقَّ وحيًا وإنّما هو باحث

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، مرجع سابق، ص١.

فيلسوف مفكّر عاش على الأرض. وفكّر في ما حوله من الأحياء، ورأى ما ينزل من متاعب، وانتفع في تفكيره بما سبقه من فلسفات وأفكار، واهتدى إلى نتائج بعضُها من أقوال مَن سبقوه[1]، ويقول "مولانا أبو المكارم آزاد" الذي كان وزيرًا للمعارف بالهند حول هذا الموضوع ما يلي[2]:

"يبدو لي أنّ وضع بوذا في صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه في صفّ الأنبياء، وذلك لأنّه لم يتعرّض في مباحثه لوجود اللّه، بل حاول حلّ مسألة الحياة، وانتهى منها دون التحرّش باللّه وبوجوده. إنّه قد قطع كلّ علاقة له مع الحياة الدينيّة في الهند التي كانت تدين بآلهة وآلهات لا تُعدّ ولا تُحصى، إنّه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد باللّه، وإنّ الأساس الذي بنى عليه بحثه، أساس فلسفيّ، فقال إنّ هدف الجهد الإنسانيّ يجب أن يكون الوصول إلى حلّ مسألة الحياة، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجودٍ فوق العقل. أجل، أسرعَ أتباعه بعد وفاته إلى تحويل تعاليمه إلى مذهب دينيّ. ولمّا وجدوا أنّه ترك المكان الذي يحتلّه اللّه في الأديان فارغًا، عمدوا إلى بوذا نفسه، فحملوه ووضعوه فوق عرش الإله الفارغ، إلاّ أنّ بوذا ليس بمسؤول عمّا فعله أتباعه"[3].

ويضيف العلاّمة الهنديّ "رادها كرشنن" الذي كان نائبًا لرئيس جمهوريّة الهند سنة ١٩٥٢، أنّ بوذا لم يكن نبيًّا لأنّه لم يقرّر عقائد، ولم يكن كذلك فيلسوفًا لأنّه لم يؤسّس مذاهب فلسفيّة، إنّما أسّس دعوته بناء على تجربته الروحيّة التي لا يمكن بيانها

---

١ - THOMAS EDWARD, *THE LIFE OF BUDDHA AS LEGEND*, PP.192 - 193.

٢ - شلبي د. أحمد، أديان الهند الكبرى: الهندوسيّة، الجينيّة، البوذيّة، سلسلة مقارنات الأديان ٤، مكتبة النهضة المصريّة، ط ٩ (القاهرة،١٩٩٠) ص ١٧٥.

٣ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٧٥ - ١٧٦، عن: التاريخ الجديد العام للفلسفة، مجلّة ثقافة الهند، تمّوز (يوليو) ١٩٥١، ص٥٢.

بالألفاظ، فدعوته حكاية عن هذه التجربة، وعن الطريق المؤدّي إليها، وبوذا يقول إنّ الحقّ لا يُعرف بالنظريّات، بل يُعرف بالسير المتواصل في طريقه. وفي ذلك يقول أيضًا: إنّ عملي ملكي، وعملي ميراثي، وعملي هو الرحم الذي يحملني، وعملي هو الجنس الذي أنتمي إليه، وعملي هو الملجأ الذي ألتجئ إليه[1].

في الواقع، إنّ ما علّمه بوذا، وأصبح يُعرف بالبوذيّة، ليس ديانة، كما أنّه ليس فلسفة، إنّما هو "طريقة حياة". لكنّ هذا لا يعني أنّ البوذيّة هي نظام أخلاقيّ فقط، بل هي طريقة تدريب أخلاقيّ وروحانيّ وفكريّ يؤدّي إلى تحرّر الفكر. وعلى الراغبين في تسمية البوذيّة بالديانة، عدم اعتبارها "عملاً وسلوكًا" مبنيَّين على الاعتقاد بقدرة محرّكة إلهيّة، أو على احترام لها أو رغبة في إرضائها، ولا ممارسة طقوس أو شعائر من أجل هذه الغاية، ولا اعترافًا من قِبَل الإنسان بقدرة عالية غير مرئيّة تدير قدره، وهو ملزم بالخضوع والاحترام والعبادة. إلاّ أنّ بوذا نفسه، قد سمّى تعاليمه "العقيدة والنظام"، ويمكن تطبيق هذه التعاليم من قبل أيّ شخص، بغضّ النظر عن ديانته. وكلّ ما يحتاجه المرء ليطبّق تعاليم بوذا هو الفضيلة والتجرّد والعزم. فقد صاغ بوذا نظامًا أخلاقيًّا متكاملاً، أراد من خلاله صقل النفس وتوليد اليقين والقناعة في الفكر، وملاشاة البدن ومقاومة الأهواء. فهو وضع أسلوب أو نظام حياة، يضفي على القلب وداعة وطهرًا وفيضًا من الروحانيّة ومحبّة ودعوة إلى التسامح. وممّا جاء في كتابه: "...إذا كانت الرياح لا تستطيع أن تؤثّر شيئًا في الجبل الأشمّ، فإنّ الأحداث كذلك لن تؤثّر في الشخص الذي أبعد ذاته عن فكرة الهوى والشهوة، ووجّه طاقته إلى اليقين والحياة والزهد". فالبوذيّة كناية عن لافتة على مفترق طرق، تشير إلى الاتّجاهات فقط، لكنّها لا تحمل عابر السبيل إلى وجهته.

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ١٧٦.

وهكذا يتّضح أنّ بوذا قد وضع طريقة حياة، ولم يقل إنّه وضع دينًا، فهو مجرّد معلّم يدلّ على الطريق ويرشد الإنسان إلى الخلاص الفرديّ. لكنّ ما حصل بعده ومع انتشار البوذيّة، أنّ الأتباع قد نسجوا، حول بوذا، ما نسجوا، وأقاموا المعابد وشرّعوا الطقوس والشعائر. وكانت البوذيّة تكتسب بعض تراث من اعتنقوها في بلاد شرقي آسيا. كما أنّ البوذيّة ليست مجرّد فلسفة تنطلق من الرغبة في المعرفة، وتهدف إلى الاستمالة للبحث عنها. وفإذا كانت البوذيّة تؤيّد البحث عن الحقيقة، غير أنّها ليست مجرّد تفكير تأمّليّ، أو بنية نظريّة، أو مجرّد اكتساب للمعرفة. ذلك أنّ بوذا يشدّد على الناحية التطبيقيّة لتعاليمه، تطبيق المعرفة على الحياة. فالمعرفة المكتسبَة بالفهم، غايتها في تعاليم بوذا تنمية خصائص الفكر والقلب. فقد هدف بوذا من خلال تعاليمه إلى التحقّق من طبيعة العناصر غير المُرضية في الوجود، وطبيعة كلّ صراعات الحياة، ومن ثمّ اتباع السبيل الذي ينقل الإنسان من حالة عدم الرضا إلى حالة الرضا. فإنّ مشكلة العذاب هي التي دفعت بوذا إلى البحث والتأمّل، في الواقع الكونيّ للحياة، وهدفه الوحيد كان كشف سرّ هذه المشكلة، ومن ثمّ شرح تفاصيل الطريقة التي تمكّن الناس من تخطّي مشكلة العذاب، وهي الطريقة التي، بتطبيقها العمليّ، يكون التجرّد والإشراق والخلاص النهائيّ.

فالأمر يبدأ بقرار ذاتيّ يتّخذه مَن يطلب الخلاص من العذاب. ويُنسب إلى بوذا قوله: "إنّه لمنَ الحمق أن تظنّ أنّ سواك يستطيع أن يكون سببًا في سعادتك أو شقائك، لأنّ السعادة والشقاء دائمًا نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن". وهو يأبى أن يبني تشريعه الخلقيّ على عقوبات تفرضها قوّة وراء الطبيعة، كائنًا ما كانت تلك العقوبات. فالناس في البوذيّة إمّا أنّهم طالبو خلاص ونيرفانا، وإمّا طائعون لمارا (الشيطان)، وهؤلاء يتلاعب بهم مارا. وقد جاء في إنجيل بوذا: "إنّ الذين يعيشون لمسرّاتهم

ويهتمّون بما يأكلون ويشربون، قد قيّدهم مارا بقيوده وجعل يتلاعب بهم تلاعب الريح بالشجرة الضعيفة التي لا تصمد فتسقط. إنّ الذين لا يهتمّون بما للجسد من مأكل ومشرب، فهم كصخرة ثابتة في أصل جبل لا تقوى الرياح على زعزعتها".

يقول أحد كبار علماء الهند إنّ بوذا لا يقرّر العقائد ولا يؤسّس مذاهب فلسفيّة ولا يزعم أنّه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصيّة ملكها من الأزل، بل يعلن بكلّ جلاء أنّه كسب هذه الحكمة بجهوده الجبّارة في ما سبق له من الحياة على هذه الأرض، دهورًا وأحقابًا بتعدّد الولادات، وهو يرشد أتباعه إلى نظام الرقيّ الخلقيّ، ولا يدعوهم إلى دين كسائر الأديان. إنّه يطلع أتباعه على سبيل ولا يقرّر عقيدة، لأنّه يرى أنّ قبول عقيدة يصدّ عن البحث وراء الحقّ، فكثيرًا ما ترفض الحقائق لأنّها تخالف عقيدة تمسّك بها الذين جاءت لهم هذه الحقائق. فبوذا يؤسّس دعوته على حصوله على المعرفة، أو بعبارة أخرى على تجربته الروحيّة التي لا يمكن بيانها بالألفاظ، فدعوته حكاية عن تجربة وعن الطريق المؤدّي إليها، وهو يقول إنّ الحقّ لا يُعرف بالنظريّات، بل بالسير في طريقه. وعلى هذا لم يعنَ بوذا بالحديث عن الإله، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتًا أو إنكارًا، وتحاشى كلّ ما يتّصل بالبحوث اللاهوتيّة وما وراء الطبيعة أو القضايا الدقيقة في الكون، إذ كان يرى أنّ خلاص الإنسان متوقّف عليه هو لا على الإله، ويرى أنّ الإنسان صانع مصيره. ومن كلماته في ذلك: كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفًا، ولا تعتصموا بملاذ خارجيّ، ولا تحتموا بغير أنفسكم.

غير أنّ بعضهم يرى أنّ دين بوذا هو دين حقيقيّ عظيم من وحي السماء. وهو مدرسة أخلاقيّة جامعة تهدف إلى بناء الإنسان بناء أخلاقيًّا متينًا يحرّره من أحمال الحياة الثقيلة ويخلّصه من الألم والحزن والشقاء والشرّ. تعاليمه أصفى من مياه البحيرة

الصافية الهادئة العذبة، وأنقى من الثلوج التي تكلّل رؤوس الجبال الشامخة. وأنّ دين بوذا يعلّمنا الفضائل السامية التي يجب أن يتحلّى بها كلّ إنسان لينال الخلاص. ولا ينكر بوذا الآلهة كما يتكلّم عنه بعض الباحثين الذين لم يدرسوا بدقّة تعاليم هذا الرسول العظيم ولم يتوغّلوا كفاية بروح تعاليمه. فإنّ بوذا يؤمن بالإله براهما وبغيره من الآلهة. وقد نزل الإله براهما بهيئة شخص فاضل ولقّنه بعض التعاليم وحثّه على التبشير بدينه وقال له: لو لم تأت وتبشّر بهذا الدين لكنتُ قد دمّرت هذا العالم.

ويرى هذا الفريق أنّ بوذا يؤمن بقوى الخير السماويّة التي يرأسها الإله براهما، وبقوى الشرّ التي يترأسها الشيطان. فلقد حاول الشيطان منع بوذا من القيام برسالته عدّة مرّات لكنّ بوذا كان يزجره ولم يذعن له. وحاول الشيطان قتل بوذا عندما توصّل إلى الإستنارة الكاملة، لكنّه لم يستطع، لأنّ الأرواح السماويّة الخيّرة عضدته وقهرت قوى الشرّ التي يترأسها الشيطان. ويعترف بوذا بالجنّة وبجهنّم وبالآلهة وبالملائكة وبالشياطين. وهو يعتقد بوجود منطقة روحيّة في جهة الشمال من هذا الكون الواسع تدعى الأرض الطاهرة أو الجنّة أو الفردوس التي يدخلها إلاّ الصالحون. كما يقول هؤلاء بأنّ بوذا لا ينكر وجود الروح كما يتّهمه البعض، وهو يقول بصراحة إنّ الإنسان يتألّف من روح وجسد وإنّ كلّ الأشياء في العالم هي روحانيّة. والروح، حسب معتقده، تنتقل في ولادات جديدة حاملة معها أعمالها الصالحة والطالحة وتُدعى الكارما. ولا تتخلّص هذه الروح من الولادة الجديدة إلاّ عندما تبلغ طور النيرفانا. والنيرفانا هي الإستنارة الكاملة والشرط الأخير الذي يتوصّل إليه طاهر الروح المستنير بنور الحقيقة التي أسّس بوذا تعاليم دينه على ضوئها[١].

---

١ ـ شيّا، إنجيل بوذا، مرجع سابق، ص٧.

لقد جاء أساس النظام الذي وضعه بوذا العمل لا العقيدة، فقد كان يحاول خلق عادة لا وضع عقيدة، وعلى هذا ليس في تعاليمه إلاّ القليل الذي يصحّ أن يوصف بالعقيدة، كما أنّه لم يأمر بعبادات ولا رياضات تقشّفيّة، وكلّ إلحاحه كان على التدريب الأخلاقيّ. إلاّ أنّ بعض المفكّرين الغربيّين يرون البوذيّة دينًا، لأنّها ترسم الطريق للتخلّص من الذنوب، ولأنّ فيها جانبًا روحيًّا، ولأنّ معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قويّة لا تتوافر إلاّ مع الأديان[1].

مــولدُ بُــوذَا

المتّفق عليه عمومًا أنّ بوذا قد عاش في شمال شرق الهند بين حوالى سنة ٥٦٤ وسنة ٤٨٣ق.م. وأنّ إسمه الأصلي "غوتاما سيدهارتا"، وُلد في منطقة قريبة من جبال الهملايا تضمّها حاليًّا جمهوريّة النيبال، من أبوَين ينتميان لطبقة "الكشتريا"، حسب توزيع الطبقات عند الهندوس، وهذه الطبقة تتولّى القيادة السياسيّة.

وفي بحث أكثر تحديدًا، جاء أنّ بوذا قد وُلد في شمال شرق الهند، بجانب مملكة "كوسالا" بين مدينة "بنارس" وجبال الهملايا، شمال نهر الغانج المقدّس، حيث تقع الآن آجام كثيفة على حدود نيبال. هناك كانت تمتدّ أرض خصبة مخضرّة فارعة الأشجار طيّبة الخمائل، وكانت هذه الأرض موطن قبيلة "ساكيا" أو "شاكيا" SAKYA أو SHAKYA من الطبقة الكشتريّة، وكان أمراء القبيلة هم أصحاب السيادة على هذه البقعة، وسلاطينها المسموعي الكلمة، النافذي الرأي. وكان "سودودانا SUDDODANA"، أحد نبلاء هذه القبيلة، يقطن قرية تُدعى "كبيلاواثو" أو "كَبِلَفَسْتو" KAPILAVATHU أو

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٧٦، عن: BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 43.

KAPILAVASTU له فيها ضياع فسيحة، وزروع نضرة، وقصور شاهقة، وجاه عريض، وكان متزوّجًا من نبيلة اسمها مايا أو مهامايا MAYA يعيش معها في هذا النعيم المقيم والمجد العظيم. وفي سنة ٥٦٣ق.م. أنجب هذان الأبوان طفلاً أطلقا عليه إسم "سدهارتا"[١]. وهذا الطفل هو الذي سيصبح بوذا المستنير.

وجاء في بحث آخر[٢] أنّ والد بوذا كان ملكًا يُدعى "شُدّهودَنَ" يحكم على بلاد "الشاكْيا SHAKYA" في "كَبِلَفَسْتُ KAPILAVASTU " على حدود النيبّال. وكانت الملكة، زوجة الحاكم، أميرة كولِيَ، وتُدعى مهامايا. واختلف الباحثون في تحديد تاريخ ميلاد بوذا بين قائل بأنّه وُلد سنة ٥٦٣ ق.م.[٣]، وقائل بأنّه وُلد في صيف سنة ٥٦٨ ق.م[٤]. وقائل بأنّه وُلد سنة ٥٦٠ ق.م.[٥]، وقائل بأنّه وُلد سنة ٥٥٨ ق.م[٣]. غير أنّ الشائع، كما ذكرنا آنفًا، هو أنّه وُلد سنة ٥٦٤ ق.م.

وتذكر مدوّنات أنّ الملكة ولدت ابنها في بستان "لومبيني LUMBINI"، وهو مكان يبعد مئة ميل إلى الشمال من بناريس. في هذا المكان التذكاريّ حيث وُلد بوذا المستقبل، أقام الأمبراطور "آسوكا" بعد مرور نيّف وثلاثة قرون على هذا الحدث، نصبًا حجريًّا تذكاريًّا لبوذا، لا يزال حتّى يومنا هذا.

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص١٤١.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٥.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٤١، حيث يورد في الحاشية أنّ هذا التحديد ذكره إدوارد توملس وبناه على عمر بوذا عند وفاته في سنّ الثمانين سنة ٤٨٣ ق.م. وعلى عمليّات حسابيّة أخرى تجعل هذا التحديد أقرب إلى الدقّة. أنظر: THOMAS EDWARD , *THE LIFE OF BUDDHA AS LEGEND*, P. 27.

٤ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي (القاهرة، ١٩٩٥) ص١٠٠.

٥ ـ صعب أديب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، دار النهر للنشر، (بيروت، ١٩٩٣) ص ٥٣.

٦ ـ السعدي نبيه محمود، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، موسوعة هكذا نفهم مذهب التوحيد، دار العلم (دمشق،٢٠٠١) ٣٨.

أسطُورَة

الـوِلاَدَة

نُسِجَ حول ولادة بوذا تصوّر يشبه ما جاء عن ولادة بعض الأنبياء. منها أنّه في أحد الأيّام، حلمت الملكة بأنّها كانت مستلقية على فراشها عارية البطن، يتهلّل خلخالها فرحًا كلّما تقلّبت من جانب إلى آخر فوق سحاب أحلامها. فأطلّ القدر بنظرته المستطلعة، على السهول الجنوبيّة الخضراء، من موطنه فوق الهملايا السماويّة، فاستوقفت أنظاره تلك الصبيّة الغافية الحسناء، التي ألهتها أطياف النوم الحريريّة عن بعض حشمتها، فلم يتمالك نفسه، ونزل إليها من عليائه وجامعها، بعد أن سلبت لبّه بغنج الآسيويّة ونعومتها. ولمّا حان وقت ولادتها، أنجبت طفلاً جميلاً، اسمه سودهارتا، وماتت بعد أسبوع من ولادته[1].

وجاء في رواية أخرى[2] أنّ الملكة مايا كانت ترتعش وهي تحكي لزوجها قصّة الحلم الغريب الذي رأته في تلك الليلة من ليالي صيف عام ٥٦٨ ق.م.، فبينما هي مستلقية على الفراش إذ بأربعة من الملائكة في ثياب بيض يتقدّمون منها ويحملونها بكلّ محتويات حجرة نومها، ويطيرون بها إلى أعلى قمّة في جبال الهملايا حيث تقوم شجرة باسقة خضراء، ويضعونها تحت ظلّها. ولا تكاد الملكة تطلّ حولها حتّى تقترب منها أربع ملكات يُدخلنها الحمّام ويُلبسنها ثيابًا جميلة ويعطّرنها بعطور رائعة الرائحة، ثمّ يحملنها إلى منزل آخر مصنوع كلّه من الفضّة، وتضعها الملكات على فراش آخر مقدّس، وهناك، يهبط فيل أبيض من فوق جبل ذهبيّ ويتقدّم منها، وفي خرطومه

---

١ ـ السعدي، أضواء توحيديّة على الفلسفات الهنديّة، ص ٣٧.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٠٠ ـ ١٠٢؛ عن إنجيل بوذا.

غصن من نبات "البشنين"،ويدور الفيل حول الفراش دورات ثلاثًا، ثمّ يمسّ جانب الملكة الأيمن ويدخل في رحمها... فاضطرب الملك وهو ينصت إلى زوجته. ولم تكد الملكة تنتهي من قصّة الحلم حتّى أرسل الملك يستدعي أربعة وستّين حكيمًا من حكماء قبيلته. وانطلق الحكماء إلى القصر الملكيّ حيث راحوا يستمعون إلى قصّة حلم الملكة... وقال الحكماء:

ـ لا يشغلنّ بالك شيء أيّها المعلّم السعيد.. ولكن أبشِر، فالملكة قد حملت بغلام سيصبح ملكًا على كلّ البلاد لو هو استقرّ في بيته... أمّا إذا كانت الثانية وغادر داره هائمًا على وجهه في الأرض، فعندئذ سيصبح هو البوذا (المستنير) كاشف نقاب الجهل عن وجه هذا العالم.

ولم تمضِ أيّام حتّى تحقّق ما قاله الحكماء، وأحسّت الملكة بحقيقة الحمل. وكان هناك شيء عجيب. فقد كان الجنين يبدو واضحًا وهو جالس القرفصاء في رحم أمّه. وظلّ على هذه الصورة حتّى اقترب موعد الوضع. وفي ذلك اليوم طلبت الملكة من الملك أن تسافر إلى أهلها لتضع مولودها هناك، وإذ هي في الطريق فوجئت بالمخاض وهي تحت شجرة "سال" في بستان يُسمّى "لومبيني". وتحت الشجرة الوارفة الظلال جلست الملكة القرفصاء.. بعد أن حجبها الخدم عن الأنظار بستار خاصّ. ولمّا أرادت النهوض، مدّت يدها إلى غصن الشجرة، فانحنى من تلقائه حتّى قارب كفّها، ولم تكد تنهض حتّى كان تحتها طفلٌ تلقّفته أيدي أربعة من البراهمة في شبكة نُسجت خيوطها من أسلاك الذهب. ووقف المولود فجأة، وتقدّم إلى الأمام سبع خطوات، ثمّ صاح في صوت عذب: "أنا سيّد هذا العالم، وهذه الحياة هي آخر حياة لي".

وفي اللحظة نفسها، ظهر اثنتان وثلاثون علامة في السماء والأرض، فحدث زلزال شديد، وانتشر النور في كلّ مكان، وسقط مطر خفيف على غير ميعاد، وتفتّحت

براعم الزهور وأكمام الثمار، وانتشرت رائحة زكيّة طيّبة عمّت كلّ الأرجاء، واستعاد الأعمى البصر، واستردّ الأصمّ السمع، وعاد الأبكم ينطق ويغنّي. وانطلقت أنباء مولد الأمير لتعمّ كلّ مملكة "الساكيا". ومن كلّ مكان، جاءت الأفواج لتهنئة الملك، مشاة وعلى ظهور الخيل والفيلة، إلى القصر حاملين الهدايا لأميرهم الوليد.

وكان من بين زوّار القصر العديدين، زاهد عملاق، عمّت شهرته الآفاق إسمه "أسيتا". وكان الزاهد قد شهد من فوق صومعته بجبال الهملايا حفلاً أقامته ملائكة السماء، عرف أنّه بمناسبة مولد بوذا بين قبائل الساكيا. وهبط الزاهد من مكانه وراح يسعى إلى حيث يدلّه النور حتّى بلغ باب قصر الملك. وهناك قادوه إلى الوليد الصغير، فلم يكد يراه حتّى هتف في قوّة وفرح:

- هنيئًا أيّها الملك، إنّ هذا المولود لم تأتِ بمثله امرأة من قبل، ولن تجيء بمثله امرأة بعد.

وعاد الزاهد يُطلّ إلى عينَي الأمير الصغير ويبكي.. واضطرب الملك وراح يسأله عن سرّ هذا البكاء. وأجاب الرجل:

- هذا الطفل أيّها الملك سيصل إلى درجة التنوير السامية، إنّه سيدخل النرفانا، ويهدي العالم إلى طريق الحقّ والصواب. على أنّ ما يبكيني إنّما هو أسفي على نفسي إذ لن يطول بي العمر حتّى أرى مبادئ بوذا السامية تنتشر على الأرض فتمحو منها الشقاء، وتكشف الغمّ والبلاء.

وكان لا بدّ للملك أن يفرح. وأن يأمر بمزيد من القرابين تقدَّم للآلهة، وبالمزيد من الإحسان يقدَّم للفقراء، وبعظيم من الاحتفالات تُقام في القصر لأيّام سبعة جديدة[1].

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٠٢.

في اليـوم الخـامس لـولادة الطفل، أُطلـق عليـه اسم سِدّهارتْه غَوتَمَ، أو سـيدارثا غوتاما SDDHARTA GAUTAMA ويعني "الذي تحقّقت أهدافه"[1].

وبعد مرور سبعة أيّام على ولادة الطفل، توفّيـت الوالـدة، فربّتـه خالتـه "مهايابـاتي MAHAYAPATI"[2].

تَكريسُ سودهارتا ونَشأتُـــــــــه

عندما بلغ سودهارتا الثانية عشرة من العمر، أُقيم احتفال كبير في القصر الملكـيّ دُعي إليه عدد كبير من الضيوف، لأنّ الأمير، فـي هـذه السـنّ، كـان عليـه، وهـو ابـن لرجل هندوسيّ طيّب، أن يضع الخيط المقدّس حول عنقه، وهو ما يفعله كلّ فتى عندما يصل إلى سنّ التكريس. وأمام الضيوف، وكما يفعل جميع الغلمـان فـي هـذه المناسبة، أقسم الصبيّ أن يكون دارسًا متحمّسًا للكتب المقدّسة طبقًا لعقيدة أبيه، عقيدة الهنـدوس. وما كان يعتقده الهندوس هو أنّه عندما يضع الغلام الخيط المقدَّس حـول عنقـه، ويقسم على الإخلاص لعقيدته، يصبح مولودًا من جديد ويوصَف منذ ذلك الوقت بأنّه هندوسيّ مولود مرتَين. وحالما أصبح بوذا مولودًا مرتَيـن، وهـو ابـن ملـك، أُرسـل إلـى أشـهر كهنة مملكة ساكيا وأكثرهم علمًا ليتلقّى عنهم حقيقـة المعرفـة. وكـانت الكتـب التـي يتـمّ فيها التدريس هي "الفيداس" أي الكتب المقدَّسة في العقيدة، وهـي كتـب طويلـة صيغـت كلّها شعرًا، وإلى جانب الفيداس كانت هناك كتب أخرى ضخمة تفسّر الكتب المقدَّسـة، وكان البعض منها عسيرًا صعب الفهم. وكان على الأمير الصغير أن يتعلّم لغة جديـدة

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٥٣.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٠٢.

قبل المباشرة بهذه الكتب. فجميع الكتب المقدَّسة عند الهندوس مكتوبة بلغة غير التي يتكلّمونها، لغة قديمة جدًّا هي السنسكريتيّة. وحالما تعلّم سودهاراتا قراءة اللغة السنسكريتيّة وفهمها، بدأ الكهنة يعلّمونه الكتب المقدَّسة التي تشرح تعاليم "البراهميّة" عقيدة الهندوس، والتي كانت تدور حول العالم، وكيف خلقه براهما، وكيف نسلت البشريّة من "مانو" أوّل الكائنات، والطوائف، وتجسّد الروح، والكرما، والنيرفانا، كما كانت الكتب المقدَّسة تحمل أيضًا أسماء كلّ آلهة الهندوس وجميع التراتيل الواجب إنشادها في محرابها.... وتفسيرات هذه التعاليم التي تقول للناس كيف يجب أن يعيشوا الحياة الصالحة للهندوسيّ المتديّن. وظلّ الأمير سودهارتا أربعة أعوام يدرس مع معلّميه[1].

شبّ الطفل سودهارتا في نعيم ملكيّ عظيم، كما شبّ أترابه من أبناء السادة والملوك. ووجد الدنيا كلّها بإمرته، والنعيم رهن إرادته، وتهيّأت له مفاتن الدنيا، وانبسط الأمل أمام عينيه، وتدفّقت المسرّات تحفّه من كلّ جانب، وبلغ مطلع الشباب رافلاً في هذه النعمة، كلمته مسموعة، ورأيه مطاع[2].

أظهر الولد سودهارتا نضوجًا مبكّرًا في التفكير، وكان يجلس متربّعًا ويراقب الشهيق والزفير، واكتسب بذلك توحّد الفكر.

وبحسب التقاليد المتّبعة في ذلك الزمان، زُوِّج الأمير في عمر السادسة عشرة إلى الأميرة الجميلة "يَشوذهارا YASHODHARA" التي كانت في مثل سنّه، وهي ابنة عمّه ملك "كولي"، وكانت قد وُلدت معه في نفس يوم مولده. ولم يكن ينقصه أيّ من أمور الحياة

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٤٢.

الكريمة الهانئة، ولا كان يدري بالبلاء والكرب. لكن، مع تقدّم العمر والنضج، بدأ الأمير يلمح بلايا العالم. وكلّما كان يحتكّ بالعالم خارج جدران قصره، كان يقتنع أكثر فأكثر بأنّ هذا العالم تنقصه السعادة الحقيقيّة.

كان بوسع سودهارتا أن يعبر الحياة كما عبرها آلاف من الأمراء والملوك من أترابه، وأن تنسيه مفاتن الحياة التي نعم بها تلك الآلام التي يعانيها البؤساء والأشقياء، وكان من الممكن أن يلهيه شبابه عن هرم الشيوخ، وصحّته عن آلام المرضى، وحياته المرحة عن صور الموت والفناء، كما تلهّى سواه وشُغفَ بالحياة كأنّ الشباب لا يهرم والصحّة لا تنحلّ والحياة لا تزول[1].

الطَّائِرُ

الحَكِيم

يسجّل التراث البوذيّ أسماء ما لا يقلّ عن ٢٤ بوذا سبقوا "بوذا غوتاما GAUTAMA"، وهو أحد ألقاب بوذا الذي عاش في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد. وليس هناك دليل على وجودهم كشخصيّات تاريخيّة، وإنّما وجودهم مؤكّد "كحقيقة تجلّت" وأعلنها "بوذا غوماتا". وهكذا يتصوّر التراث البوذيّ فترة زمنيّة بمائة وعشرين ألف سنة سبقت العصر الذي عاش فيه "بوذا غوماتا" في القرن السادس قبل الميلاد، غير أنّ هذه كلّها ليست سوى أرقام رمزيّة. فإنّ قياس الزمن عند الرجل البوذيّ، وفي الفكر الهنديّ عمومًا، شاسع جدًّا إذا ما قورن بمقاييس التاريخ الغربيّ؛ فهو يرتدّ في الماضي ارتدادًا لا أوّل له، ويمتدّ إلى الأمام امتدادًا لا نهاية له. ومسار زمن الساعة ليس دلالة أوليّة، رغم أنّه ليس بغير دلالة على الإطلاق، فإذا أمكننا أن

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٤٢، عن: RYLANDS G.A., *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 318.

نقول زمان الساعة، أفقيّ الأبعاد، يمتدّ من الحاضر إلى الأمام وإلى الخلف، فـإنّ البعد الذي له مغزى مطلق عند الرجل البوذيّ هو بعد رأسيّ أو عموديّ. إنّه يهتمّ بما حـدث في هذا البعد داخل مسار الزمن المتقدّم، ويرى من الضروريّ بصفة خاصّة أن نوقـظ في الناس بعض الوعي بهذا البعد مهما يكن هذا الوعي معتمًا. لأنّـه سوف يؤدّي إلـى حالة اليقظة أو إلى عالم آخر من الوجود[1].

تحدّث أتباع بوذا عن أنّه عاش قبل أن يصبح المستنير، خمسمائة وثلاثين نوعًا من الحياة. فعـاش إلهًـا إثنتَيـن وأربعين مـرّة، وملكًـا خمسًـا وثمـانين مـرّة، وأميرًا أربعًـا وعشرين مرّة، وعالمًا اثنتَين وعشرين مرّة، كما عاش لصًّا مرّتَين، وعبدًا مرّة واحدة، ومقامرًا مرّة واحدة، كما عاش عدّة مرّات في أجساد أسد فغزال فجواد فنسر فثور فثعبان فضفدعة... وأنّه، قبل أن يصبح المستنير، كان مختلفًا عن كـلّ الملوك والعبيد والحيوانات الأخرى التي عاش حياتها وهو يمرّ بكلّ تلك العصور، فكان دائمًا أكثر الجميع حكمة.

لقد آمن أتباع بوذا بهذه الحقيقة. وراحوا يتحدّثون عن قصّة بارزة حدثت في حيـاة بوذا قبل أن يصبح المستنير.

في ذلك الوقت، كان اسمه "بوديستا"، وكان يعيش في صورة طائر.

وفي أعماق الغابة، كان لذلك الطائر "بوديستا"، سلطان علـى كلّ أسراب الطيور التي تعيش على مقربة من شجرة عالية ذات فروع تمتدّ إلى كلّ اتّجاه، بحيث لا يشملها البصر كلّها... وذات صباح فوجئت الطيور جميعًا بأكوام من التراب والغبار تتساقط

---

١ ـ بارندر جفري، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتّاح إمام ومكاوى د. عبد الغفّار، مكتبة مدبولـي، ط٢ (القاهرة،١٩٩٦) ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.

من فروع الشجرة، التي كانت فروعها كلّها تتحرّك ويحتكّ بعضها بالبعض الآخر. وأخذ الدخان يتصاعد عاليًا، وبدأ الرعب والفزع يسيطران على كلّ الطيور.. وتأمّل بوديستا الموقف مليًّا.. وبدأ يفكّر:

"لا شكّ أنّ الفروع إذا استمرّت في احتكاكها كلّ منها بالآخر، فلا بدّ أن يؤدّي الاحتكاك إلى وجود شرر... وإذا وُجد الشرر فسيتطاير وتشتعل النيران فتحرق الأوراق الجافّة المتساقطة... وإذا اشتعلت النيران في الأوراق فسرعان ما تحترق الشجرة العظيمة نفسها. وإذن فعلينا، إذا أردنا الحياة أن نبتعد من هنا... وأن نرحل على الفور إلى مكان آخر".

وراح الطائر.. بوديستا.. يغرّد لتسمعه بقيّة الطيور..

"إنّ الشجرة بنت الأرض..

وهي التي نعتمد عليها نحن أبناء الهواء..

هذه الشجرة نفسها بدأت تشتعل بالنار

فاهربي أيّتها الطيور... بعيدًا في السماوات...

فموطننا هو نفسه..

بدأ يسبّب لنا الأخطار.. والموت".

وأنصتت الطيور إلى صوت بوديستا.. وكان بعضها من الحكمة بحيث استمعوا للنصيحة، وطاروا معه بعيدًا في الهواء.. أمّا الآخرون الذيم لم يسمعوا العظة ولا اهتمّوا لها.. فقد كانوا من الحمق بحيث بقوا في مكانهم وراحوا يقولون:

"إنّ بوديستا يرى التماسيح دائمًا في قطرة الماء...".

ولم تمضِ لحظات حتّى اشـتعلت النـيران بـالفعل... بنفس الطريقـة التـي تنبّـأ بهـا بوديستا.. واحترقت الشـجرة عـن آخرهـا وتصـاعد منهـا اللهيـب والدخـان... وعميـت عيون الطيور التي ظلّت هناك... فعجزت عن الهرب، وسقطت في أعماق اللهيب..

وكانت هذه القصّة في الواقع.. بعض ما يحدث على وجه الأرض[1].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ١٣١.

الفَصلُ الثَّانِي

بُوذَا فِي حَيَاتِه وتَعَالِيمِه

التّنسُّكُ؛

مفتَاح الحِكمَة؛ وَفَاة بوذا؛

تَعَاليم بُوذا؛ النِرفَانَا؛

الكَرمَا الولاَدَة الجَديدَة؛

مِن خَصَائِص البُوذيّة.

النَّسُّك

ذكرت أبحاث أنّ سدّهارته، في التاسعة والعشرين من عمره، وفي اليوم الذي وَلدت فيه زوجته الأميرة يَشوذهارا ابنَها الوحيد "راهُلا RAHULA" غادر قصره، متخلّيًا عن العرش والعزّ والمجد، وانسحب متنكرًا بثياب النسّاك إلى عزلة الغابة للبحث عن حلّ لمشكلة الحياة، عن الضمانة السامية ضدّ العبوديّة، عن النِرفانا. وكرّس سِدّهارتْه غَوتَمَ نفسه للمهمّة السامية لاكتشاف دواء للعلل الكونيّة للحياة. وراح يتجوّل على ضفاف الأنهر طالبًا الإرشاد من المعلّمين الروحيّين الكبار، آملاً في أن يرشدوه، وهم أرباب التأمّل، إلى سبيل الخلاص. إلاّ أنّ حدود معرفتهم واختباراتهم الروحيّة كانت غير كافية لمنح سِدّهارتْه ما كان يجدّ في طلبه، وما كان ليرضى بأيّ شيء أقلّ من الإشراق الأسمى، فتركهم وراح يطوف مجدّدًا بحثًا عمّا كان لا يزال مجهولاً لدَيه. وانضمّ إليه خمسة نسّاك أُعجبوا بجهوده وإصراره[1].

غير أنّ روايات أخرى تقول بأنّ سدّهارته بدأ ينشغل ويقلق، ولا يزال ابنه طفلاً، بمشكلات أزليّة مثل: لماذا يولد الإنسان؟ هل يولد فقط ليعاني المرض، ثم تنهكه الشيخوخة وفي النهاية يموت؟ وتروي النصوص كيف التقى، على التوالي، برجل يعذّبه المرض، ثمّ برجل في آخر مراحل الوهن والشيخوخة، ثم بجثّة محمولة إلى

---

١ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٥ - ٦.

مكان المحرقة، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء. وبينما هو يفكّر في هذه الوقائع، وكيف أن هذا هو مصير كلّ إنسان، إذ رأى شخصًا رابعًا هو رجل مقدّس حليق الرأس جوّال متديّن، وواحد من الذين نذروا أنفسهم للسعي إلى حياة الزهد، لكي يعثروا على طريقٍ للتحرّر من عبث الحياة الظاهر. وهؤلاء الرجال المتديّنون الجوّالون هم الذين يُعرفون باسم "الشرمانيين SHRAMANAS"، ولم يكونوا ظاهرة غريبة على الهند القديمة. وهكذا تحول سدّهارته إلى هذه الحياة، حياة الزاهد المتجوّل، آملاً في أن يجد حلاًّ لمشكلات الوجود البشريّ[1].

وتقول الرواية نفسها: كثيرًا ما يصوّر هؤلاء "الشرمان" أو المتجولون المتديّنون في صورة مخالفة للشخصيّات الدينيّة الرئيسيّة الأخرى في الهند في ذلك العصر، وهم البراهمة BRAHMINS، أو الكهنة، إذ يقوم الشرمان، في الأعمّ الأغلب، بتعليم بعض العقائد الدينيّة والنظريّات الفلسفيّة، وهي عقائد متنوّعة ومختلفة كانت تجعل الشرمان ينشغلون بالمجادلات الدينيّة، ولكنّ الشيء الذي يوحّد بينهم عمومًا هو أنّهم يمثّلون بدائل للمذهب البرهميّ وطقوس التضحية والقرابين. ولمّا كان نظام القرابين الذي يترأسه البراهمة معقّدًا أو مكلفًا، فإنّه لم يقدّم الكثير ممّا يلائم ربّ البيت العاديّ، أو المزارع أو صغار التجّار. ولهذا كان هؤلاء ينجذبون بقوّة إلى تعاليم الشرمان، وكان الدافع المسيطر على معتقداتهم المختلفة هي فكرة التحرّر من متاعب الحياة، وذلك في أغلب الأحيان عن طريق التنظيم الصارم أو الزهد. وتضيف الرواية أنّ سدّهارته قد انضمّ إلى جماعة من النسّاك أو الزهّاد، وظلّ مدّة من الزمن يعمل بجدّيّة تامّة، جاهدًا في السعي وراء الحقيقة الروحيّة بمنهج الزهد، وأخيرًا وجد أنّه لم يتقدّم كثيرًا في

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

سعيه، على الرغم من أنّ نظام الزهد الذي اتّبعه بلغ من الصرامة حدًّا جعله "جلدًا على عظم"، واقترب به كثيرًا من الموت، فقرّر أن ما يبحث عنه ذ لا يمكن الوصول إليه عن هذا الطريق، ولا عن أي طريق آخر من الطرق التي يمثّلها القادة الدينيّون المعاصرون له[1].

فقد كان يسود في الهند، ولا يزال، اعتقاد بين كثيرين من النسّاك بأنّ التطهّر والخلاص النهائيّ من الشوائب والعلل يمكن إنجازه بالإماتات الذاتيّة القاسيّة، وقرّر الناسك غَوتَمَ أن يختبر حقيقة هذا الاعتقاد. بدأ بصراع مصمّم لقهر جسده، على أن يسمو فكره، وقد تحرّر من قيود الجسد، إلى أوج التحرّر. كان شديد الحماس في ممارساته هذه. فكان يقتات من أوراق الشجر والجذور بمقدار صغير جدًّا ويخفّضه باستمرار. فجعلت منه ندرة الطعام حطامًا جسديًا. كان أسماله كومة من الغبار، وكان ينام بين الجثث، على فراش من الشوك... "كنت صارمًا في انضباطي النسكيّ، صارمًا بين الآخرين، كالقصب الهزيل الذاوي ضارت أطرافي"... بهذه الكلمات، صوّر بوذا لتلاميذه، بعد عدّة سنوات وقد بلغ الإشراق، حالته خلال إماتاته وكفاراته في البداية.

فقد جاهد سودّهارته على هذا النمط من التقشّف لستّ سنوات طويلة، اقترب فيها من باب الموت، ولكنّه لم يجد نفسه يقترب من هدفه الروحيّ. فتوضّح عنده، بالاختبار الشخصيّ، عدم جدوى الإماتات الذاتيّة، إذ إنّه ذات يوم وبعد وضوئه، خارت قواه كليًّا وسقط على الأرض فاقد الوعي لا يستطيع الحراك بتاتًا. فحضرت إذذاك إحدى الفتيات، "سُجاتا"، وراحت تهتمّ به وبصحّته وطعامه، إلى أن استعاد قواه وعادت إليه العافية، مكتشفًا أنّ تجربته للإشراق قد فشلت. لكنّ فكره الذي كان لا يزال عاملاً،

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٥٨.

راح يبحث عن سبيل جديد باتّجاه الهدف المنشود. عرف أنّه، بجسد ضعيف تمامًا كجسده، لن يستطيع اتّباع السبيل، وسيكون بدون فرص للنجاح، فتوقّف عن إماتة ذاته وعن الصيام المتطرّف، وبدأ يتناول الطعام العاديّ مجدّدًا. إستعاد جسده صحّته وعادت إليه العافية من جديد. هنا تركه رفاقه الخمسة خائبي الأمل، لاعتقادهم بأنّه تخلّى عن الجهد وعاد إلى حياة الوفرة[1].

مفتَــاح الحِكمَـة

بعزم ثابت وإيمان كليّ بطهارته وقوّته، بدون مساعدة أيّ معلّم، وبدون رفيق، قرّر سودهارته أن يقوم ببحثه الأخير في عزلة تامّة. وهناك، على ضفّة نهر "غايا GAYA"، وهو رافد يصبّ في وسط نهر الغانج، وفي ذات يوم، بعد أن تناول الأرزّ مع الحليب من سُجاتا، جلس سودهارته متربّعًا تحت شجرة الـ"بو BO TREE" في غابة "أوروبلا URUVALA"[2] ليتفيّأ ظلالها، وبدأ في التأمّل الجادّ على طريقة الرجال المقدّسين في الهند، عازمًا على أن يظلّ في تأمّله على هذا النحو حتّى يصل إلى الإستنارة التي يسعى إليها. ويخبرنا التراث كيف هاجمه الشيطان "مارا MARA" وبناته الثلاث، وكيف حاولوا بحيلهم المختلفة أن يجعلوه يحيد عن تحقيق هدفه في أن يصبح بوذا، أي المستنير. غير أنّ جهودهم كلّها ذهبت هباء، وبعد ليلة من الصراع الروحيّ أمكنه أن يتغلّب على جميع العوامل الشرّيرة التي تربط الناس، في رأي البوذيّة، بهذا

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٦ ـ ٧.

٢ ـ أُعطي لهذه الغابة اسم جديد يتناسب مع الحدث العظيم الذي حصل فيها، هو: بوداكيا BUDDHAGIA.

العالم الناقص. وهكذا، استيقظ بوذا ودخل في نطاق الوجود الأزليّ المتعالي[1]، فاهتدى إلى مفتاح الحكمة، وهو أوّل قانون للحياة:

"من الخير يجب أن يأتي الخير، ومن الشرّ يجب أن يأتي الشرّ".

وأدرك سدهارته أنّه باتّخاذه القانون الأوّل للحياة مفتاحًا للحكمة، يستطيع أن يجيب على كلّ الأسئلة التي تزعجه. وفي الصباح تبيّن له أنّه أوشك على نهاية بحثه الطويل عن الحكمة... وأنّه الآن أصبح "المستنير". ومنذ ذلك اليوم أصبحت تلك الليلة تُسمّى عند أتباعه: "الليلة المقدّسة"، وأصبحت الشجرة تُعرف بشجرة بوذا أو "شجرة الإشراق"، أو "شجرة العلم" أو "الشجرة المقدّسة" أو "شجرة المعرفة" أو "شجرة بو Bo"[2]. وقد احتلّت هذه الشجرة مكانة سامية عند البوذيّين، كما الصليب عند المسيحيّين. وإذا كان المسيحيّون قد نشروا الصليب في حياتهم ورسموه على أجسادهم، فالبوذيّون يرون في الشجرة المقدّسة شيئًا يحب السعي إليه، لهذا زرعوا في كلّ قطر شجرة واحدة من نوع الشجرة المقدّسة يحجّون إليها، في مناسبات مختلفة، وفي معبد "بروبودور" بالقرب من "جوكجارتا" بإندونيسيا، توجد الشجرة الوحيدة من هذا النوع، والبوذيّون يسعون إليها للتبرّك والزيارة، وتحميها إدارة المعبد بسور حولها خوف أن يلتقط البوذيّون أوراقها أو أغصانها للتبرّك، أو يعبثوا بجذعها في اقترابهم منها واحتكاكهم بها[3].

ويروي باحثون آخرون الواقعة نفسها على الشكل التالي:

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٠٥ ـ ١٠٧، ١٢٣.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٤٨.

على ضفّة نهر "نِرنَجَرَ" في "غايا GAYA"، قام بوذا بالجهد الأخير، بعزيمة لا تثنى:

> حتّى وإن بقي منّي فقط الجلد والعظم والأعصاب، وجفّ منّي الدم واللحم وذوي جسدي، فإنّني لن أتحرّك من وضعيّتي هذه، حتّى بلوغ الإشراق الكليّ...

هكذا، بجهد لا يعرف الكلل، وبتكرّس لا يعرف الوهن، عزم على إدراك الحقيقة وبلوغ الإشراق الكامل. فانكبّ على "التيقّظ على الشهيق والزفير" فدخل "بودهِسَتّوَ غَوتَمَ" في الإستغراقات التأمّليّة الأربعة بمراحلة تدرّجيّة. فيما هو متوضّع هكذا في التأمّل، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة على وضعيّته، بلغ غَوتَمَ الإشراق وتكشّفت له الحقائق الأربع النبيلة:

١ ـ هذا هو العذاب.
٢ ـ هذا هو نشوء العذاب.
٣ ـ هذا هو إبطال العذاب.
٤ ـ هذا هو الطريق المؤدّي إلى إبطال العذاب.

فهم الأمور حقًّا كما هي: هذه عوامل مفسِدة، حوافز منجّسة؛ هذا هو نشوء الفساد، هذا هو إبطال الفساد، هذا هو السبيل المؤدّي إلى إبطال الفساد. ويحسن بنا هنا أن ننقل العبارة التي سجّل بها بوذا هذه اللحظة التي يعتبرها هو، ويعتبرها أتباعه، لحظة إشراق وفوز. يقول بوذا:

> لمّا أدركت هذا تحرّرت من الهوى، تحرّرت من شرور الكون الأرضيّ، تحرّرت من شرور الخطأ، تحرّرت من شرور الجهل، وتيقّظ في المتحرّرِ شعورُ التحرّرِ وشعورُ عدم تكرّر المولد، قد انتهى الصراط المقدّس، قد تمّت الفريضة، فلن أرجع إلى هذه الدنيا رجعةً أخرى، قد أبصرت هذا[1].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٤٧، عن: الرامبوري محمّد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، مجلّة ثقافة الهند، ص ٨٩ ـ ٩٠.

وهكذا ففي ليلة قمر بدر مكتمل، وبعمر الخامسة والثلاثين، بلغ سدّهارته الإشراق الأسمى بإدراكه تمامًا الحقائق النبيلة الأربع، الحقائق الأبديّة، وصار البوذا، أي العارف المستنير.

ويوضّح التراث أنّه كان باستطاعة بوذا، عند هذه النقطة، أن يظلّ هكذا، دون أن ينشغل أو يهتمّ بالعالم الفاني الزائل، لكنّه رحمة منه، وشفقة على جماهير الجنس البشريّ، طرح هذا الإمكان لكي يكرّس نفسه، خلال الحقبة الزمنيّة الباقية من حياته الفانية، لإعلان "الدهاما DHAMA" أو الحقيقة الأزليّة التي أيقظته. ومن ثمّ ظلّ في تأمّله لمدّة أسبوع واحد آخر، ثمّ لبث مدّة يتجوّل جيئة وذهابًا في المنطقة المجاورة لشجرة "البو"[١]، وخلال تلك المدّة عاد إليه الشيطان "مارا" من جديد وحثّه، وقد أصبح الآن بوذا، أن يهجر عالم الفانين هذا، ويستمتع بغبطة "النبانا NIBBANA" وإن كانت كلمة "النرفانا NIRVANA" السنسكريتيّة أكثر شيوعًا، فأجابه بوذا بقوله: إنّه لا بدّ له أن يعلن أوّلاً "الدهاما" للآخرين، ولا بدّ أن يرى نظام الرهبان وقد استقرّ، وعندها فقط يغادر نهائيًّا هذا العالم الفاني[٢].

وبعد شهرَين من بلوغه الإشراق، قرّر بوذا نشر الـ"دهاما" أو ألـ"دْهَرْمَ"، أي الحقيقة التي أدركها، إلى رفاقه القدامى، النسّاك الخمسة. كان يعرف أنّهم يعيشون في بنارس في ميدان الأيائل، منغمسين في الزهد المتطرّف الصارم، عديم الجدوى. فغادر غايا إلى بنارس، المدينة الهنديّة المقدّسة، قاطعًا، على مراحل، مسافة ١٥٠ ميلاً، وهناك في ميدان الأيائل انضمّ إليهم. وفي يوم قمر بدر مكتمل، من شهر

---

١ ـ تُسمّى أحيانًا "شجرة العرفان" التي تحتها أشرقت شمس الهداية على بوذا، ويرى البعض أنّها شجرة من فصيلة التين، وقد عنى البوذيّون بأمرها عناية كبيرة، وجعلوها موضع تقدير إلى درجة التقديس.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

تَمّوز (يوليو) عند المساء، لمّا ارتفع القمر في سماء مشعّة، توجّه المعلّم إلى النسّاك الخمسة قائلاً:

أيّها النسّاك، طرفان لا يجب اتّباعهما من قِبَل الناسك الذي تخلّى عن حياة المنزل، هما: الانغماس في الشهوات من جهة، وإماتة الذات من جهة أخرى. كلاهما لا يؤدّيان إلى الخلاص. السبيل الوسط أيّها الرّهبان، الذي فهمه "تَتْهاغَتَ[1]" بعد أن تجنّب التطرّف، يهب الحكمة والمعرفة ويؤدّي إلى الهدوء والسلام، فالتحقّق، والإشراق، والنيرفانا. أمّا السبيل الوسط، أيّها الرهبان، فهو السبيل النبيل المثمّن، عنيت:

١ ـ الفهم الصحيح.
٢ ـ الفكر الصحيح.
٣ ـ الكلام الصحيح.
٤ ـ العمل الصحيح.
٥ ـ العيش الصحيح.
٦ ـ الجهد الصحيح.
٧ ـ التيقّظ الفكريّ الصحيح.
٨ ـ التركيز الصحيح.

هكذا أعلن المستنير "سبيل الحقّ DHAMA PADA"، وهو الإسم الذي سيحمله كتاب يتضمّن مقطتفات مختارة جُمعت في حوالى سنة ٣٠٠ق.م.، قوامها ٤٢٣ مقطعًا انتُقيت من كتب مختلفة من النصوص البوذيّة المقدّسة المعروفة بـ "السلال الستّ"، والتي كُتبت بلغة "البالي" القريبة من اللغة التي تكلّم بها بوذا، وقد حافظت هذه النصوص على التعاليم الأصليّة للمستنير.

---

١ ـ تَتْهاغَتَ في السنسكريتيّة تعني "المتجاوز".

فعندما ارتفع عدد الأتباع إلى الستّين توجّه إليهم بوذا قائلاً:

إذهبوا الآن وتجوّلوا لهناء وسعادة الكثيرين، محبّة بالعالم. لا يذهبنّ اثنان منكم في اتّجاه واحد. أعلنوا الناموس الممتاز في البداية، الممتاز في وسطه، الممتاز في النهاية، المفيد والكامل.

هكذا بدأ بوذا رسالته السامية التي استمرّت حتّى آخر أيّامه. سار مع تلاميذه في شوارع الهند غير مميّز بين الطبقات أو المراكز أو الرتب الاجتماعيّة، قابلاً في رهبانيّته كلّ مَن عرف أنّه أهل لعيش الحياة المقدّسة. وكان بوذا المعلّم الوحيد الذي سعى إلى دمج الذين كانوا إلى حينه مفرّقين في طبقات ومراتب مختلفة، بالتسامح والتوافق والانسجام والسلام. كما عبّر عن تعاليمه بألفاظ ذات معنى حتّى بالنسبة لأبسط الناس، وذلك على خلاف تعاليم البراهمة وغيرهم من فلاسفة الهند القديمة. ورفع أيضًا من مكانة المرأة في الهند، وعاملها بالتقدير والاحترام والكياسة، ودلّها، هي أيضًا، على السبيل إلى السلام والطهارة والقداسة، وقَبِلَ دخولها في دينه وأسّس للراهبات ديرًا، وكان بين أتباعه نساء مؤمنات مدنيّات. وناهض تعدّد الزوجات وحرمان المرأة من العلم والدين، ونشر تعاليمه على النساء والرجال سواء بسواء، ولم يفرّق أبدًا بين الرجل والمرأة. ولم يشجّع أبدًا الجدال والخصام والنزاع والعداء والحقد، ولكنّه سمح باستعمال القوّة والدفاع عن النفس ولدفع الظلم إنّما بعد نفاد كلّ الوسائل السلميّة لتجنّب الحرب. وقال إنّ هذا لا يتعارض مع مبدأ السلام والعنف، وأكّد على أنّ من واجب المنتصر، عندما تنتهي الحرب، عقد صلح مع المغلوب وإعادة السلام إلى ربوعه. وبهذا يكون المنتصر قد رفع نفسه إلى مراتب العظماء الشرفاء وسجّل مأثرة طيّبة وخالدة للتاريخ وللأجيال اللاحقة. وقد ألحّ على التدريب الأخلاقيّ، وأكّد على معاقبة المجرم على جريمته وقال إنّ من واجب المجرم تقبّل

العقاب بطيبة خاطر معتبرًا ذلك تطهيرًا لنفسه وتكفيرًا عن الجريمة التي ارتكبها. ووضع بوذا وصايا عشرًا وسمّها "خطايا" يجب على الإنسان تجنّبها والبعد عنها وهي: القتل، السرقة، الزنى، الكذب، الافتراء، الشتم، الكلام الباطل، الطمع، البغض، الضلال[1].

وعلّم بوذا تلاميذه التأملات الخمسة الرائعة وهي: التأمّل بالمحبّة للأصدقاء والأعداء على السوء. التأمّل بالشفقة على كلّ الكائنات الحيّة التي تتألّم وتتعذّب وتحزن. التأمّل بالفرح أي أنّ نفرح لفرح الآخرين ونجاحهم وازدهارهم. التأمّل بالنجاسة وهو إمعان النظر في النتائج المميتة لتأثيرات الفساد والخطيئة. التأمّل بطمأنينة الفكر وصفائه وهدوئه التي نرتفع بواسطتها فوق الحبّ والبغض وفوق الرحمة والظلم وفوق الغنى والفقر ناظرين إلى مصيرنا الشخصيّ بهدوء بريء متجرّد منصف خال من المحاباة ومن التغرّض وبراحة كاملة. وعلّم بوذا أيضًا الحقائق الأربع النبيلة وهي: وجود الألم المنتشر في العالم، وسبب الألم الذي هو ميل الإنسان إلى الشرّ والملذّات الحسيّة، وتوقيف الألم الذي يتمّ بإخضاع النفس والتخلّص من الأنا الباطلة ومن التعلّق بالملذّات الحسيّة وبأباطيل العالم، والحقيقة الرابعة هي الطريق ذات الشعب الثماني وهي: المفاهيم الصالحة، والقرارات الصالحة، والكلمات الصالحة، والأعمال الصالحة، وطريقة الحياة الصالحة، والكفاح الصالح، والأفكار الصالحة، والتأملات الصالحة[1]. وهي التعاليم التي توجّه بها المعلّم إلى النسّاك الخمسة في بداية رسالته.

---

١ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص٨ ـ ٩.

٢ ـ المرجع السابق.

وَفَــــاة

بَــــوذا

إشتهرت دعوة البُودّهَ بتسميتها "النظـام" أو "عجلـة الشريعة" وترأسـها بنجـاح لخمس وأربعين سنة[1]، وتوفّي البُودّهَ عن عمر الثمانين في "كُـشِ نَغَـرْ KUSHI NAGAR" على بعد حوالى ١٢٠ ميلاً إلى الشمال الشرقيّ من بنارس، مع نصح وتحذير أخيرَين لتلاميذه:

> كلّ الأغراض المشروطة هي عرضة لتغيّرات دائمة. جاهدوا بتيقّظ فكريّ[2].

وقد جاء في مقال يشبه قصيدة رقيقة، تصوير لنهاية بوذا، على الشكل التالي[3].

> توجّه السيّد إلى تلّ في مدينـة "راج غاهـا" ومعـه "آننـدا" ابـن عمّـه ومريـده الأوّل، وغيره من تلاميذه ومريديه، فخاطب الجمع قائلاً: كـلّ شـيء يـؤول إلـى الانحـلال، وأنا كذلك. أيّها التلاميذ، قد شخت وأوشكت أن أموت، جدّوا لتحرير أرواحكـم بكـلّ ما أوتيتم من الحَول، وفي خلال الشهور القادمة سأموت، إنّ أجلي قد حان، وحياتي يجب أن تنتهي، وآن لروحي أن تُلقي حملها. أيّها الرهبان، عليكم بالتيقّظ والتبصّـر، لتكن أفكاركم سليمة، راقبوا قلوبكـم، وصونـوا نفوسكـم، ولا تغفلـوا، لتكـن إرادتكـم طاهرة قويّة، واجتازوا بحر الحياة غير آسفين ولا متحسّرين.

وتابع السيّد سيره ودخل غابة حتّى وصل مكاناً ترتفع أمامـه قمـم الهملايـا المكلّلـة بالثلوج، واختار مكاناً بين دوحتَين باسقتَين، واستلقى على جنبه في إجهاد ظاهر وتعـب

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ١٥١.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص ١٠.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٥٥ ـ ١٥٦، نقلاً عن مقال منشور في مجلّة "ثقافة الهند"، عدد آذار (مـارس) ١٩٥٠، ص ١٢٤ وما بعدها.

واضح، وأحسّ آنندا بأنّ السيّد يقترب من النهاية، فانتحى ناحية وأخذ يبكي، فطلبه السيّد، فجاءه وجلس بجواره، وقال له السيّد:

> ألم أقل لك مرّة بعد مرّة إنّ الأشياء لا ثبات لها؟ ألم أبيّن لك أنّ الأشياء التي نهواها لقربها منّا هي التي يجب أن نقطع علاقتنا بها، لأنّ زوالها أو الحرمان منها يورثنا الألم والحزن؟

... ورقد السيّد تحت الشجرتَين رقدة الأسد متعبًا، ومع ذلك تكلّم:

> أيّها النسّاك، كلّ شيء زائل، مارّ كمرّ السحاب. تذكّروا الحقيقة، واسعوا لحريّتكم بالتواضع والجدّ، ناظرين إلى النهاية.

سكت السيّد وأغمض عينَيه ودخل في التفكير العميق! لا يحرّك ساكنًا ولا يبدو عليه أنّه يشعر بما حوله.

"لقد مات السيّد". قال آنندا أخيرًا.

زجره بعض الإخوان قائلاً: "كلاّ! إنّه لم يمت، بل طرأت عليه حالة التفكّر الذي لا يبقى معها حسّ".

لكنّهم علموا بعدما راقبوه مدّة أنّ كلّ شيء قد انتهى. فما كان من بعض الإخوان الذين ما زالوا فريسة للأوهام، أن ألقوا أنفسهم على الأرض، يتمرّغون في الغبار وينتحبون. إلاّ أنّ آنندا وأصحابه الذين تحرّروا من الأوهام قالوا لهم:

"كلّ شيء زائل، أيّها النسّاك، والعقل الذي تحرّر من الهوى يعرف ذلك، ويعرف أيضًا أنّه كان لزامًا أن يفارقنا المبارَك، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك".

سمع الرهبان المنتحبون هذا الكلام، فرجعوا عن سلوكهم المخجل، وأُعلِن في البلاد أنّ السيّد قد مات.

وعلى شاطئ النهر، وعلى الأرض الرمليّة الفسيحة أحرقوا الجثّة، وأخذ كلّ واحد منهم يطوف حولها ثلاث مرّات، جامعًا كفّيه إزاء صدره، ثمّ يقف عند قدم المبارَك وينحنى احترامًا وإجلالاً، وقد اجتمع أهالي "كوسى نارا" القرويّون، فاحتفلوا بموت السيّد كما يُحتفَل بموت الملوك، لأنّهم تذكّروا أنّه كان ابن الملك!

ثمّ جُمع رماد السيّد، وقسموه إلى ثمانية أجزاء، وأرسلوا كلّ جزء منها إلى الجهة التي رأوها لائقة به، فبُنيت فوق الرماد بنايات عظيمة في الجهات الثمانية.

***

وقيل أيضًا عن وفاة بوذا[1]، إنّه لمّا بلغ الثمانين، مرض فجأة، وعرف أنّ النهاية قد دنت، وأخذ رهبانه يبكون ويقولون:

- إنّ سيّدنا سيتركنا.

والتفت إليهم بوذا وهو يقول:

> عندما أموت ولا أصبح بينكم، فلا تظنّوا أنّ بوذا قد ترككم، أو أنّه لم يعد موجودًا بينكم، فلديكم كلماتي وتعاليمي من أجل الحقيقة، وليكن دليلكم تلك التعاليم التي علّمتكم.

وبعد أن قال ذلك.. مات.. وكان ذلك عام ٤٧٠ قبل الميلاد[2].

---

١ - مظهر، قصّة الديانات، ص ١٣٧.

٢ - ورد في مراجع أخرى أنّ وفاة بوذا كانت سنة ٤٨٣ ق.م.

تَعَاليم
بُـوذا

كما سبق أن أسلفنا، يؤمن بوذا بقوى الخير السماويّة التي يترأسها الإله براهما وبقوى الشرّ التي يترأسها الشيطان. ويعترف بوذا بالجنّة وبجهنّم وبالآلهة والملائكة والشياطين. وقد نزل الإله براهما بهيئة شخص فاضل ولقّنه بعض التعاليم وحثّه على التبشير بدينه، وقال له: لو لم تأتِ وتبشّر بهذا الدين لكنت دمّرت هذا العام. وهو يؤمن بوجود منطقة روحيّة في جهة الشمال من هذا الكون الواسع تُدعى "الأرض الطاهرة" أو الجنّة أو الفردوس التي لا يدخلها إلاّ الصالحون[1].

لا ينكر بوذا وجود الروح بل يقول بصراحة إنّ الإنسان يتألّف من روح وجسد، وإنّ كلّ الأشياء في العالم هي روحانيّة. والروح، بحسب معتقده، تنتقل في ولادات جديدة حاملة معها أعمالها الصالحة والطالحة وتُدعى "الكرمَ" أو "الكارما"[2]. وبهذا، يعتقد بوذا، كما سائر المذاهب الهنديّة، بمبدأ التناسخ، وأهمّ ما تعمل له البوذيّة هو، التخلّص من تكرار المولد والوصول إلى النرفانا[3]. أي الاستنارة الكاملة والشوط الأخير الذي يتوصّل إليه طاهر الروح المستنير بنور الحقيقة التي أسّس بوذا تعاليم دينه على ضوئها. وقد ركّز بوذا في تعاليمه على عقيدة التقمّص لأنّه جاء إلى الهند الهندوسيّة المؤمنة بعقيدة التقمّص. ويقول باحثون[4] "إنّ هناك اليوم مدارس عديدة

---

١ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص ٧ ـ ٩.

٢ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص ٧ ـ ٨.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٦٦.

٤ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص١١.

منتشرة في أوروبّا وأميركا منذ مدّة من الزمن، تقوم بالدرس والبحث والاستنتاج عمّا إذا كانت عقيدة التقمّص صحيحة وواقعيّة، فأثبتت هذه الأبحاث والاستنتاجات الكثيرة أنّ عقيدة التقمّص صحيحة وواقعيّة. وهذا شرف كبير لبوذا الذي أعلن هذه الحقيقة منذ حوالي ٢٥٠٠ سنة.

والخطاب الأوّل الذي ألقاه بوذا على رفاقه في بنارس عقب أن تلقّى الإشراقة يحوي أهمّ عناصر الفلسفة البوذيّة. ونحن ننقل نصّه في ما يلي من "لَلِيتاوِشْتار" كتاب البوذيّين المقدَّس:

> أيّها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدَّسة عن الألم: المولد ألم، الهرم ألم، المرض ألم، الموت ألم، الاجتماع بغير المألوف ألم، الافتراق عن المألوف ألم، عدم ظفر الرجل بما يهوى ألم.
>
> أيّها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدَّسة عن مصدر الألم: الظمأ، والشهوة، والهوى، والرغبة في التلذّذ، وفي التكوُّن، في القوّة، ذلك الهوى، وتلك الشهوة تجرّ من مولد إلى مولد، ومن ألم إلى ألم.

ويسوق بوذا سلسلة قضايا تؤدّي إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الهوى أصل الألم، فهو يقول:

> إذا وُجِدت الشهوة والهوى وُجِد التحديد والتخصيص، وإذا وُجِد التحديد والتخصيص وُجِد الجهل، وإذا وُجِد الجهل، وُجِد الخطأ، وإذا وُجِد الخطأ وُجِد الحزن، فالحزن نتيجة للهوى والشهوات.
>
> أيّها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدَّسة عن إعدام الألم: إعدام الشهوة والهوى والظمأ والرغبة إعدامًا باتًّا.

أيّها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدّسة عن سبيل إعدام الألم: سلوك الطريق المثمّن: الاعتقاد الصحيح، العزم الصحيح، القول الصحيح، العمل الصحيح، العيش الصحيح، الجهد الصحيح، الفكر الصحيح، التأمّل الصحيح[١].

ونستطيع من هذا الخطاب الذي يُعدّ فاتحة تبشير بوذا أن نستخلص ما يسمّيه البوذيّون: الحقائق الأربع. وهي أهمّ ما في التعليم البوذيّ، فمَن آمن بها واتّبعها كُتبت له النجاة والسعادة، ومَن لم يعلمها ولم يؤمن بها ظلّ في شقائه وآلامه يموت ويحيا ثمّ يهرم ويهلك فيولد من جديد، ولا تنقطع هذه السلسلة حتّى يعرف هذه الحقائق ويتبعها. أمّا تلك الحقائق فهي[٢]:

الحقيقة الأولى: وجود الألم المنتشر في العالم. إذن فالألم موجود. الولادة والمرض والموت ومتاعب الحياة من فراق أحبّة أو من لقاء أعداء كلّها تأتي بالألم.

الحقيقة الثانية: لهذا الألم سبب: وعلّة الألم هي الشهوات والرغبات لأنّها التي تنمّي فينا الرغبة في اللذّة والتملّك والشوق إلى عالم مستقبل.

الحقيقة الثالثة: وهذا السبب قابل للزوال: يبطل الحزن متى بطلت الشهوة وانتفى الظمأ إلى الأشياء. ما يعني أنّ توقيف الألم يتمّ بإخضاع النفس والتخلّص من الـ"أنا" الباطلة ومن التعلّق بالملذّات الحسيّة وبأباطيل العالم.

الحقيقة الرابعة: الوسيلة لزوال هذا السبب موجودة: لإبطال الألم طريق واحد هو اتّباع الشعَب الثماني التي سبق ذكرها، والتي يصوغها بعض الكتب في عبارة أخرى:

---

١ - شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ١٦٦، استنادًا إلى: G. F. ALLEN, *BUDDHA'S PHILOSOPHY*, P. 38.

٢ - راجع: شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص١٦٦، إستنادًا إلى: *BUDDHISM*, ED. RICHARD CARD. P.94؛ شيّا إنجيل بوذا، ص ٨.

١) الآراء السليمة أو المفاهيم الصالحة.
٢) الشعور الصائب أو القرارات الصالحة.
٣) القول الحقّ أو الكلمات الصالحة.
٤) السلوك الحسن أو الأعمال الصالحة.
٥) الحياة الفضلى أو طريقة الحياة الصالحة.
٦) السعي المشكور أو الكفاح الصالح.
٧) الذكرى الصالحة.
٨) التأمّل الصحيح[١].

من هنا نادى بوذا باستقامة الإنسان في حياته وسيره على طريق الفضائل، وهذا هو الإيمان المتين الذي يجعل منه إنسانًا كاملاً متحررًا مستنيرًا متخلّصًا من أباطيل العالم وشهواته الرديئة المغرية، ومن أناه الباطلة أي أنانيّته.

ويضيف بوذا في إنجيله إنّ الذبائح للآلهة والتقدمات الأخرى والصلوات والابتهالات والتسابيح والتوسّلات لا تهدّئ غضب الآلهة ولا تجدي نفعًا، وإنّما النافع هو استقامة الإنسان في حياته.

ويقول إنّ الاستقامة هي أفضل من العبادة وهي الأمل في الحياة، وهي التي تؤدّي بالإنسان إلى "النيرفانا" عن طريق التأمّل الروحيّ بحقائق الفضائل السامية.

ويقول أيضًا إنّ اللّه طاهر ولا يحب إلاّ الطاهرين. ويُجهد بوذا نفسه لهداية الناس ودعوتهم إلى إصلاح أنفسهم وإصلاح المجتمع.

كان البراهمة، في عصر بوذا، يؤمنون إيمانًا أعمى بالقضاء والقدر، فلمّا جاء المعلّم الكبير حرّرهم من هذا الوهم قائلاً: رجل الشهوات عبدٌ لشهواته، وأعمالنا هي

---

١ - ALLEN G. F., *BUDDHA'S PHILOSOPHY*, P. 36.؛ شيًا إنجيل بوذا، ص ٩.

التي تنتج الخير والشر. وفي إنجيله تكرار لمرّات عدّة بأنّ الإنسان يملك طاقة جبّارة إذا ما طُهّر واستنار، ويستطيع بواسطة هذه الطاقة التحليق إلى أعالي السماء. أمّا إذا ضعف وتراخى وتكاسل وتواكل، فينخفض إلى مرتبة حيوان أو شيطان. وأفهَم البراهمة بأنّ الإنسان هو مصدر أعماله، وحذّرهم من إلقاء كلّ التبعات على القضاء والقدر والصدف.

وفي تعاليم بوذا أنّ هناك قيود عشرة تحول دون بلوغ الإنسانيّة درجة النجاة والسلام، وتلك القيود هي:

١ ـ الوهم الخادع في وجود النفس.

٢ ـ الشكّ في بوذا وتعاليمه.

٣ ـ الاعتقاد في تأثير الطقوس والتقاليد الدينيّة.

٤ ـ الشهوة.

٥ ـ الكراهية.

٦ ـ الغرور.

٧ ـ الرغبة في البقاء الماديّ.

٨ ـ الكبرياء.

٩ ـ الاعتداد بالبرّ الذاتيّ.

١٠ ـ الجهل.

وإتمامًا للفلسفة البوذيّة نذكر الوصايا العشر التي تُنسب إلى بوذا، وهي[١]:

١ ـ يجب ألاّ تقضي على حياة.

٢ ـ يجب ألاّ تأخذ ما يُعطى إليك.

٣ ـ يجب ألاّ تقول ما هو غير صحيح.

---

١ ـ BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 46.

٤ ـ يجب ألاّ تستعمل شرابًا مسكرًا.

٥ ـ يجب ألاّ تباشر علاقة جنسيّة محرّمة.

٦ ـ يجب ألاّ تأكل في الليل طعامًا نضج في غير أوانه.

٧ ـ يجب ألاّ تكلّل رأسك بالزهر وألاّ تستعمل العطور.

٨ ـ يجب ألاّ تقتني المقاعد والمساند الفخمة.

٩ ـ يجب ألاّ تحضر حفلة رقص أو غناء.

١٠ ـ يجب ألاّ تقتني ذهبًا أو فضًّا[1].

وقد نصّ "التعهّد الرهبانيّ البوذيّ" على إطاعة عشر وصايا هي:

١ ـ لا تقتل.

٢ ـ لا تزن.

٣ ـ لا تسرق.

٤ ـ لا تكذب.

٥ ـ لا تتناول المخدّر ولا السم.

٦ ـ كل باعتدال ولا تتناول طعامًا بعد حلول الظهيرة.

٧ ـ لا تحضر حفلات الرقص والغناء والتمثيل.

٨ ـ لا تستعمل الزينة ولا العطور.

٩ ـ لا تستعمل الأسرّة المرتفعة أو العريضة.

١٠ ـ لا تقبل الذهب أو الفضّة.

ويُظنّ أنّ وصايا "السانغا"، أي الرهبانيّة البوذيّة الأولى، هذه، تمثّل الطريق الوسط بين المغالاة في النسك والمغالاة في إشباع الرغائب. وإذا انحرف الناسك عن أيّ منها وجب عليه الاعتراف بخطيئته في اجتماع عام. أمّا إذا انضمّ إلى الجماعة عدد من

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٧٠، إستنادًا إلى: BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, P. 46.

الرجال والنساء العاديّين فيُطلب منهم التقيّد بالوصايا الخمس الأولى، بينما يتعيّن على الرهبان التقيّد بالوصايا العشر.

وعلّم بوذا تلامذته التأمّلات الخمسة وهي:

١ ـ التأمّل بالمحبّة للأصدقاء والأعداء على السواء.

٢ ـ التأمّل بالشفقة على كلّ الكائنات الحيّة التي تتألّم وتتعذّب وتحزن.

٣ ـ التأمّل بالفرح، أي أن نفرح لفرح الآخرين ونجاحهم وازدهارهم.

٤ ـ التأمّل بالنجاسة وهو إمعان النظر في النتائج المميتة لتأثيرات الفساد والخطيئة.

٥ ـ التأمّل بطمأنينة الفكر وصفائه وهدوئه التي نرتفع بواسطتها فوق الحبّ والبغض، وفوق الرحمة والظلم، وفوق الغنى والفقر، ناظرين إلى مصيرنا الشخصيّ بهدوء بريء متجرّد منصف خالٍ من المحاباة ومن التغرّض وبراحة كاملة[1].

وكما سبق وذكرنا، لقد سمح بوذا باستعمال القوّة للدفاع عن النفس ولدفع الظلم ولكن بعد نفاذ كلّ الوسائل السلميّة لتجنّب الحرب. وقال إنّ هذا لا يتعارض مع مبدأ السلام واللاعنف. وأكّد على أنّ من واجب المنتصر، عندما تنتهي الحرب، عقد صلح مع المغلوب وإعادة السلام إلى ربوعه. وبهذا يكون المنتصر قد رفع نفسه إلى مراتب العظماء والشرفاء وسجّل مأثرة طيّبة وخالدة للتاريخ وللأجيال اللاحقة.

وأمر بوذا، في إنجيله، بالرفق بالحيوان ومنع قتل أيّ مخلوق حيّ ولو كان دودة أو نملة، لكنّه سمح بقتل كلّ حيوان شرس يُقدم على أذى الإنسان أو افتراسه. لأنّه يؤمن بأنّ الروح موجودة في النبات والحيوان والإنسان، لكنّ روح الإنسان عاقلة وروح الحيوان تعيش في فلك الـ "أنا الغريزيّة" وروح النبات بدون وعي.

---

١ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص ٨.

ويؤمن بوذا بالعلّة والمعلول وبالسبب وبالنتيجة. لكنّه يقول إنّ اللّه لم يخلق الكون لأنّ روح اللّه حالٌ في كلّ أشياء هذا الكون. ويحثّ بوذا على التزوّد بالعلم غير المحدود الذي يشمل معرفة القوانين الروحيّة والطبيعيّة. لكنّه قال إنّ كثرة العلم لا تؤدّي إلى الاستنارة الكاملة وإلى النيرفانا، لكنّ تطبيق تعاليم الدين بقلب طاهر وخالٍ من الأنانيّة وبالتأمّل الروحانيّ الواعي هو الذي يجعل الإنسان مستنيرًا ويوصله إلى النيرفانا.

وبارك بوذا الزواج وجعله مقدّسًا. وحثّ الزوج والزوجة على الوفاء والأمانة والطاعة والمحبّة لبعضهما البعض. وقال إنّ الزواج مقدّس ويجب ألاّ يبقى أيّ شخص وحيدًا. وحضر بوذا عرس شابّ فقير ونسبت إليه عجائب في هذا العرس... فزاد المأكولات والمشروبات حتّى زادت عن حاجة كلّ الحاضرين. وزاد على ذلك بأنّه يجب على كلّ إنسان تزوّج الحقيقة لأنّها مستمرّة ودائمة وخالدة مع مَن تزوّجها إلى حياته الثانية أو إلى الجنّة[1].

ونجد في إنجيل بوذا ثورة على الطبقيّة المقيتة التي يعتنقها الهندوسيّون، ورفعًا من شأن الطبقات الوضيعة والمنحطّة في الهند، وكانت كثيرة في عصر بوذا، وقَبِل المنتمين إلى هذه الطبقات في دينه، وأثنى على فتاة مستقيمة محبّة مؤمنة من طائفة منحطّة وقال لها: "ستتألّقين على عرشك كما تتألّق الملكات على عروشهنّ".

وكما سبق أن أسلفنا، فقد احترم بوذا المرأة وقَبِل دخولها في دينه وأسّس للراهبات ديرًا. وكان بين أتباعه نساء مؤمنات مدنيّات. وناهض تعدّد الزوجات وحرمان المرأة من العلم والدين، ونشر تعاليمه على الرجال والنساء سواء بسواء. ولم يفرّق أبدًا بين

---

١ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص١٠.

الرجل والمرأة. ويتجنّى عليه بعض الباحثين الذي يتّهمونه بكراهيته للمرأة وبقوله إنّ النساء سيكونن سبب خراب الدين والعالم. لكنّنا نرى في إنجيله أنّه كرّم عدّة نساء وشكرهنّ ومدح أعمالهنّ كما كان يكرّم أعظم الرجال وأنبلهم. ويقول العالم الهنديّ "رادها كاشنن" الذي كان نائبًا لرئيس جمهوريّة الهند سنة ١٩٥٢، إنّ المرأة الهنديّة في عصر بوذا لم تكن منعزلة. غير أنّ بعض الباحثين[١] يورد اعتراضًا على هذه الفكرة بالقول إنّ بوذا كان كثير التردّد في قبول المرأة لتكون من أتباع دينه، وقد سأله مرّة أحد خاصتّه وهو ابن عمّه آنندا:

- كيف نعامل النساء أيّها السيّد؟

فأجاب: لا تنظر إليهنّ.

- ولكن إذا اضطررنا للنظر إليهنّ؟

- لا تخاطبهنّ.

ولكن إذا خاطبنَنا؟

- إذًا كُن على حذر تامّ منهنّ.

وكان آنندا من أنصار المرأة، وكان ابن عمّ بوذا وصفيّه، فما زال يلحّ على بوذا حتّى قَبِل ضمّ النساء إلى جماعته وأتباعه، على أنّه على الرغم من ذلك كان يرى في هذا خطرًا على المجتمع البوذيّ، وقد قال لآنندا مرّة: لو لم نضمّ المرأة لدام النظام الخالص طويلاً، أمّا الآن بعد دخول المرأة بيننا فلا أراه يدوم طويلاً.

---

١ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٧٩.

وقد نُسِب إلى بوذا قوله:

للنظام بعد موتي أن يغيّر من سننه ما يراه مضرًّا لمقاصده وحياته.

ويرى العلاّمة رادها كرشنن أنّ بوذا عنى بهذه الجملة لأتباعه طرد النساء إذا رأوا منهنّ خطرًا على الدعوة.

في المقابل، أورد باحث آخر[1] أنّ بوذا سُئل يومًا عن إمكانيّة اشتراك النساء في الأعمال الدينيّة لأنّ ذلك يناقض عقيدة البراهميّة التي لا تسمح للنساء بذلك، في حين أنّ الدين الجديد يلغي الطبقات وينادي بالمساواة، فأجاب بضرورة مشاركة النساء. وكان أن نظّم قواعد للراهبات وكانت زوجة بوذا نفسها أوّل امرأة تلتحق بالرهبانيّة.

ومع أنّ بوذا قد نادى بعدم التعصّب للدين واعتبر التعصّبَ أعدى أعداء الدين. ولم يشغل نفسه بالكلام عن الإله إثباتًا أو إنكارًا، وتحاشى كلّ ما يتّصل بالبحوث اللاهوتيّة وما وراء الطبيعة أو القضايا الدقيقة في الكون، إذ كان يرى أنّ خلاص الإنسان متوقّف عليه هو لا على الإله، ويرى أنّ الإنسان صانع مصيره، فقد اعتبر البوذيّون، في ما بعد، اعتقادًا راسخًا، بأنّ بوذا هو إله متجسّد، وقالوا بأنّه معلّم الآلهة والبشر.

وركّز بوذا على محبّة اللّه ومحبّة القريب ومحبّة الإنسانيّة، هذه النقاط المهمّة التي التقى عندها جميع الرسل والأنبياء والحكماء الإلهيّون وإن تغايرت وتباينت ديارهم ولغاتهم. لذلك تحوّلت البوذيّة من فلسفة إلى دين عالميّ وكبير[2].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص١٣٣.

٢ ـ شيًا، إنجيل بوذا، ص١١.

النِرفَانَا

النِرفانَا، هي الخير الأسمى في البوذيّة. تُلفظ الكلمة بحسب لغة البالي "نِبَّانَا" وفي السنسكريتيّة "نِرْفَانَا NIRVÂNA" وهي تتألّف من "نِر" و"فانَا". فإنّ "نِر" هي أداة نفي، و"فانَا" تعني "الرغبة" والتوق، فالنرفانا تعني إذًا نفيًا للرغبة والتوق وتخلّصًا منهما. كما يمكن شرح النِرفانَا على أنّها "إخماد نار الشهوة والغضب والضلال". فعندما تُستأصل كلّ أشكال التوق من النفس، تتوقّف قوى "الكرما" عن العمل، ويبلغ المرء النِرفانَا، متخلّصًا من دورة التناسخ. فليس مفهوم البوذيّة للخلاص في هذا الخروج من الدورة المتواصلة للحياة والموت، مجرّد تخلّص من الخطيئة وجهنّم. فهل تعني النِرفانَا العدم؟ القول بهذا الأمر لمجرّد أنّ المرء لا يستطيع إدراكه بحواسه الخمس هو مخالف للمنطق تمامًا، كالقول بأنّ النور غير موجود لأنّ الأعمى لا يستطيع رؤيته. وهكذا، يستطيع المرء أن يقول ما ليس هي النِرفانَا، في حين لا يستطيع التعبير عنها على نحو وافٍ بعبارات اصطلاحيّة عاديّة. إنّها شأن يُترك للتحقّق الذاتيّ. غير أنّ الفارق، في المفهوم البوذي، بين النرفانا وعمليّة الوجود، هو أنّ النِرفانَا وعمليّة الوجود أي دورة الولادات والميتات، فالأولى هي مرتجى أبديّ وسعادة مطلقة، أمّا الثانية فهي استمرار للحياة التي نعرفها.

وتصنّف البوذيّة كلّ الأشياء الكونيّة وفَوق كونيّة ضمن مجموعتَين هما: الأشياء المشروطة، والأشياء غير المشروطة. والنِرفانَا ليست مشروطة بأيّ سبب. إذن فليس لها نشوء أو زوال. إنّها لا تولد، لا تشيخ، لا تموت. هي ليست سببًا ولا نتيجة. أمّا كلّ الأشياء الأخرى في هذا الوجود فهي مشروطة، أي في تغيّر دائم، إذ لا تكون هذه الأشياء ذاتها في لحظتَين متتاليتَين من الزمن، فكلّ ما يبرز نتيجة لسبب هو زائل لا محالة، وهو غير مرغوب. وكلّ ما هو زائل وغير مرغوب لا يمكنه أن يهب السعادة.

ولأنّ النِرفانَا غير مشروطة، ولأنها لم تنشأ عن سبب ما، فإنّها، مقارنة بالوجود الظواهريّ، دائمة ومرغوبة وباعثة للسعادة. ويجب التمييز بين سعادة النِرفانَا وبين السعادة العاديّة. إذ إنّ الأولى تبرز كنتيجة لتهدئة الرغبات والشهوات، بعكس السعادة الدنيويّة التي تنتج عن إشباع بعض الرغبات. وإذا كان يُقال عادة في واقع إبطال العذاب، إنّه السعادة، لكن هذه ليست الكلمة المناسبة لتصوير طبيعة الواقع. يقول بوذا: "النِرفانَا هي السعادة الأسمى. إنّها غبطة سامية لأنّها ليست هروبًا من السعادة المختبَرة بالحواسّ، بل هي حالة إيجابيّة سعيدة من الإرتياح"[١].

والنِرفانَا، في تعاليم بوذا، لا توجد في أيّ مكان، لكنّها تُبلَغ عندما تنجز شروطها كاملة. قال بوذا: "في هذا الجسد الطويل القامة، بإدراكاته وأفكاره، أدلّكم على العالم، مصدر العالم، إبطال العالم والسبيل المؤدّي إلى إبطال العالم".

كلمة عالم هنا تعني العذاب. بالتالي فإبطال العالم يعني إبطال العذاب، أي النِرفانَا. ويرتبط بلوغ النِرفانَا إذن بهذا الجسد، وهو ليس شيئًا يخلق ذاته بذاته ولا ما يمكن خلقه. ليست النِرفانَا نوعًا من السماء حيث يقيم "أنا" تجاوزيّ، بل هي إنجاز في متناول الجميع. والفارق الأساسيّ بين البوذيّين والهندوس في مفهوم النِرفانَا هو أنّ البوذيّين، بعكس الهندوس، ينظرون إلى الهدف بدون روح أبديّة أو خالق. لهذا لا يمكن القول بأنّ البوذيّة تنادي بالأبديّة ولا بالعدميّة، لأنّ ما من شيء يؤبّد أو يمحق.

يقول بوذا في النِرفانَا "إنّها الثابت" ويصفها كما يلي: "حقًّا هناك عالم حيث لا يوجد جماد ولا سيولة ولا حرارة ولا حركة، لا هذا العالم ولا أيّ عالم آخر، ولا شمس ولا قمر. هذا عالم لم ينشأ ولا يزول، بل يولد ولا يموت، ليس هناك مركز ولا نموّ ولا

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٢٧ ـ ٢٨.

أساس. هذه هي نهاية العذاب... هنالك غير مولود وغير ناشئ وغير مشكّل. لو لم يكن هذا غير المولود، غير الناشئ وغير المخلوق وغير المشكّل، لكانت النجاة من عالم المخلوقين، الناشئين، المولودين والمشكّلين غير ممكنة. لكن بما أنّ هناك غير مولود، غير ناشئ، غير مخلوق، غير مشكّل، فإنّ النجاة ممكنة من عالم المولود، الناشئ، المخلوق والمشكّل"[1].

يتمثّل طريق الوصول إلى النِرفانَا إذن، بوجه خاصّ، في قتل الشهوات والرغبات والتوقّف عن عمل الخير والشرّ، وإذا أستطاع الإنسان أن يجتاز هذا الطريق، توصّل إلى الانطلاق نحو النِرفانَا. فهل النِرفانَا هي القضاء على الأنانيّة؟ والتحرّر من الهوى وسلطان النفس؟ نعم، هذا هو اتّجاه بعض الباحثين، وعبارتهم في ذلك هي: "إنّ شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وإنّ الإنسان يستطيع أن يكون سيّد رغباته، لا عبدًا لها، وفي مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوّة الثقافة الروحيّة الداخليّة ومحبّة الآخرين"[2].

وبدوا أنّ مفهوم النرفانَا قد مرّ بمراحل مختلفة، فقد كان مفهومها عند بوذا، في أوّل الأمر، أنّها الاندماج في اللّه والفناء فيه، ولكنّ أفكار بوذا تغيّرت بالنسبة للتفكير في اللّه، فقد تخلّى عن القول بأنّ هناك إلهًا، فاتّخذت النرفانَا معنًى جديدًا أو أحد المعنيَين التاليَين:

١ ـ وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحانيّ بتطهير نفسه، والقضاء على جميع رغباته الماديّة، أو بعبارة أخرى فناء الأغراض الشخصيّة الباطلة التي

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٢٨ ـ ٢٩.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٦٢ ـ ١٦٣.

تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروِّعة، ويصبح المقياس هو: كلّ مَن شاء منّا إنقاذ حياته عليه أن يخسرها.

٢ ـ إنقاذ الإنسان نفسَه من ربقة "الكرمَا" ومن تكرار المولد، بالقضاء على الرغبات والتوقّف عن عمل الخير والشرّ[١].

وبناء على المعنى الأوّل يصل الإنسان إلى النرفانا وهو حيّ. وبناء على المعنى الثاني ترتبط النرفانا بالموت وبالتخلّص من هذه الحياة على ألاّ يعود إليها.

الكَرمــــــــا

الولاَدَة الجَديدَة

إنطلاقًا من مبدأ التقمّص أو التناسخ أو تعدّد الولادات، فإنّ "الكَرْمَا"، هي نتائج الأفعال في الحياة، التي تؤدّي حتمًا إلى ولادة جديدة. فإنّ كَرْمَا الماضي، تتسبّب في الولادة الحاضرة، وكَرْمَا الحاضر، بالتركيب مع الكَرْمَا الماضي، يسبّبان في الولادة المستقبليّة.... فالحاضر هو مولود الماضي، ويصير بدوره والد المستقبل. وبينما الحاضر ليس بحاجة إلى برهان، فإنّ الماضي يرتكز على الذاكرة والتقارير والوصف، والمستقبل على التروّي والنظر في العواقب والاستدلال. ويقول بوذا في هذا المجال: "برؤية مستبصرة، نقيّة وفَوق طبيعيّة، أدركت كائنات تختفي من حالة وجوديّة وتعود لتظهر في حالة أخرى. رأيت الدنيء والنبيل، الجميل والبشع، السعيد والبائس، ينتقلون بحسب أفعالهم". لم يكن من سبب كي يخبر بوذا بأمر غير صحيح فقط لإقناع تلاميذه. وبناء على تعليماته، فقد نمّى الأتباع أيضًا هذه المعرفة الإدراكيّة الارتجاعيّة وكانوا قادرين على قراءة حيواتهم السابقة إلى مدى عظيم.

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٦٣.

وهناك مَن يعتقد أنّ تنمية هذه الرؤية فوق الطبيعيّة ليست حصرًا على بوذا وتلاميذه، بل يمكن لأيّ شخص، بوذيًا كان أم لا، أن يحصل على هذه الملَكة. حتّى قبل قدوم بوذا، نمّى الكثير من الرائين الهنود قدرات كهذه مثل الاستبصار، والسمع فوق الطبيعيّ، وقراءة الأفكار... كثيرون في الغرب أيضًا، نمّوا أو حصلوا فجأة على ذاكرة حيوات سابقة أو أجزاء منها. كذلك الأمر مع بعض علماء النفس الموثوقين المعاصرين واختباراتهم غير الاعتياديّة[1].

الكَرْمَا المتجذّر في الجهل، إذن، هي سبب الولادة والموت. وطالما بقيت القوّة الكَرْميّة، سيكون هناك ولادات جديدة. وإنّ عمليّة الصيرورة هذه، هي نتيجة "للنشوء مشروط"، يقود "عجلة الوجود" أو عمليّة الولادة والموت. وليست نظريّة "الوجود المشروط" أبدًا نظريّة حول تطوّر العالم من المادّة الأوّليّة، إنّما هي تبحث في سبب الولادة الجديدة، والعذاب، ولا تحاول إبراز المصدر المطلق للحياة.

إنّ جهل "الحقائق الأربع النبيلة"، هو أوّل حلقة أو سبب لعجلة الحياة. إنّه يغشّي الفهم الصحيح. بسببه تبرز الأعمال الإراديّة، الأخلاقيّة منها وغير الأخلاقيّة، الجيّدة والسيّئة، التي تضرب جذورها في الجهل، فتؤدّي إلى إطالة التطواف في عجلة الوجود. مع ذلك فإنّ الأعمال الصالحة هي ضروريّة للتخلّص من شرور بحر الحياة هذا.

ولكن ما هي تلك الحقائق الأربع النبيلة؟

---

١ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٣١ - ٣٢.

قال بوذا بوجود أربع حقائق هي: حقيقة العذاب، حقيقة أصل العذاب، حقيقة إبطال العذاب، حقيقة السبيل المؤدّي إلى إبطال العذاب. وإنّ جهل هذه "الحقائق الأربع النبيلة"، كما ذكرنا، هو أوّل حلقة أو سبب لعجلة الحياة.

فبسبب الأعمال الإراديّة، ينشأ الوعي الذي يربط الماضي بالحاضر، بالتزامن مع بروز "الوعي الوصليّ" هذا، ينشأ الفكر والمادة، وتكون الحواسّ الستّ النتيجة المحتومة للفكر والمادّة. وبسبب الحواس الستّ يحصل الاتّصال الذي يؤدّي إلى الأحاسيس. وبسبب الأحاسيس ينشأ التّوق. والتوق يولّد التعلّق. والتعلّق يحدّد الكَرْمَا، التي بدورها تحدّد الولادة المستقبليّة.

فالشيخوخة والموت ها النتيجتان المحتومتان للولادة. وإذا كانت النتيجة تظهر من السبب، عندها يجب أن تتوقّف النتيجة إذا ما توقّف السبب. فالإبطال الكامل للجهل، يؤدّي إلى إبطال الولادة والموت. وتتواصل عمليّة السبب والنتيجة هذه إلى ما لا نهاية. لا يمكن تحديد بداية هذه العمليّة كما من المحال القول متى غلّف الجهل هذا التيّار الحياتيّ. لكن عندما يتحوّل الجهل إلى معرفة، ويحوّل التيّار الحياتيّ إلى النِرفانَا عندها تنتج نهاية عمليّة الحياة أو توقّف عجلة الوجود[1].

وترى البوذيّة أنّ للموت أربعة أسباب، وللولادة أربعة أشكال.

الشكلُ الأوّل للموت، هو استنزاف طاقة "الكَرمَا المولِّدة" التي تتسبّب في الولادة المعنيّة. ويقول المعتقد البوذيّ بأنّ الفكرة، أو الإرادة، أو الرغبة، التي تكون بالغة القوّة، خلال الحياة، تصير مهيمنة عند لحظة الوفاة، وتحدّد الولادة اللاحقة. ففي فكرة

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٣٢ ـ ٣٣.

اللحظة الأخيرة هذه، طاقة خاصّة، وعندما تستنزف الطاقة الكامنة لهذه "الكَرمَا المولِّدة"، تتوقّف قوّة الحياة حتّى قبل الشيخوخة.

والشكل الثاني من أشكال الموت، هو انقضاء أجل الحياة. ويصنّف في هذه الخانة ما هو معروف عمومًا بالموت الطبيعيّ بسبب الشيخوخة. وبحسب البوذيّة، هناك عدّة منازل من الحياة، ولكلّ منزلة منها حدود معيّنة للعمر، وبصرف النظر عن قوّة الكَرمَا في الإنسان المعيّن، على المرء أن يخضع للموت عند بلوغ الحدّ الأقصى للعمر. وبحسب القوّة الكَرميّة عند الشخص، يكون مصيره. فإنّ قوّة الكرما تستطيع أن تجعل الشخص في المنزلة العاديّة، أو في منزلة أعلى كما هو حال الملائكة.

والشكل الثالث من أشكال الموت، هو استنزاف طاقة "الكَرمَا المولّدة" المتزامن مع انقضاء أجل الحياة.

أمّا الشكل الرابع، فهو عمل كَرمَا أقوى، يقطع فجأة طاقة الكَرمَا المولّدة قبل انقضاء أجل الحياة.

وتُسمّى الأشكال الثلاثة الأولى للموت بـ"الموت في حينه"، أمّا الشكل الرابع فيُعرف بالموت في غير حينه.

أمّا الشكل الأوّل للولادة، فهو المخلوقات المولودة في الرطوبة: مثل بعض الديدان التي تتّخذ من الرطوبة مادّة لنموّها.

والشكل الثاني هو المخلوقات المولودة في بيضة: مثل الطيور والأفاعي...

والشكل الثالث هو المخلوقات المولودة في رحم، و تنتمي إلى هذه الطبقة كلّ الكائنات البشريّة، وبعض الملائكة المرتبطة بالأرض، والحيوانات التي تُحمل في أرحام أمّهاتها.

أمّا الشكل الرابع فهو المخلوقات التي تتّخذ ولادة تلقائيّة: هي عادة غير مرئيّة للعين المجرّدة. فبسبب الكَرمَا السابق، تظهر فجأة، بدون أهل، الملائكة في العوالم السماويّة، والبؤساء العرضة للتعذيب والعذاب في حالات البلاء[1].

أمّا عن كيفيّة حصول الولادة، فتقول البوذيّة بأنّ الإنسان المنازع، تحضره "الكرمَا"، أي بعض أعماله سواء الصالحة أم السيّئة، ذات الشأن أم غير الجديرة بالتقدير. وتكون هذه الأعمال قويّة لدرجة حجب كلّ الأعمال الأخرى، فتظهر بشكل جليّ أمام عين الفكر. فإذا لم يكن الإنسان النازع قد اختبر عملاً ذا شأن، فقد يتّخذ غرضًا لفكرة ما قبل الموت، عملاً "قام به مباشرة بعد الموت". مثلاً، قد يبرز أمام السارق عمل سرقة، وأمام ناظر الطبيب الصالح عمل شفاء مريض، أو قد تبرز بعض الأعمال المحفوظة من الماضي السحيق، وتصير غرضًا لفكرة ما قبل الموت. وقد تكون "الكَرمَا" العائدة إلى الفكر، رؤية أو هوسًا أو رائحة أو نكهة أو ملمسًا أو فكرة... وقد تكون الفكرة إشارات إلى أماكن حيث سيولد المائت مجدّدًا. عندما تحصل هذه الدلائل على الولادة المستقبليّة، إذا كانت سيّئة، فإنّه من الممكن تحويلها إلى جيّدة. يصير هذا بتأثير فكر الإنسان المائت، فيُعمل فكره على معاكسة وإبطال تأثيرات "الكَرمَا المولّدة" في الولادة الجديدة. قد تكون هذه الإشارات نارًا جهنّميّة، غابات، مناطق جبليّة، رحم أمّ، أو منازل سماويّة، ...

تأخذ هذه العمليّة مجراها حتّى في حال الموت المفاجئ. ويُقال إنّه حتّى الذبابة، وهي تُسحق بالطرقة على السندان، تختبر هذه العمليّة الفكريّة قبل أن تموت فعليًّا. والمقصود بالموت هنا، هو توقّف الحياة النفسيّة ـ الجسديّة لوجود المرء الفرديّ،

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٣٣ ـ ٣٤.

ويحصل الموت بزوال الحيويّة، الحرارة، والوعي. وكما نور الكهرباء هو الظاهرة الخارجيّة لطاقة كهربائيّة غير مرئيّة، هكذا نحن، مجرّد ظواهر خارجيّة لطاقة "كَرميّة" غير مرئيّة. وعند الموت، يتوقّف الوعي فقط، ليعطي ولادة إلى وعي آخر في ولادة لاحقة. هذا التيّار الحياتيّ المتجدّد يحمل معه كلّ اختباراته السابقة. ولا يكون الكائن الجديد كما كان في الماضي تمامًا، ولا يختلف عنه كليًّا. وتوضيحًا، يمكن الاستشهاد بعمليّة ولادة الفراشة: كانت في الأول بيضة، ثمّ صارت يرقة، ثمّ تحوّلت إلى خادرة، وبعدها صارت فراشة. تحصل هذه العمليّة في مدّة حياة واحدة. ليست الفراشة ذات اليرقة، لكنّها لا تختلف عنها تمامًا. هذه أيضًا تيّار حياة أو تواصل. وتعتبر البوذيّة أنّ انتقال التيّار هو فوريّ. ولا توجد أماكن للانتظار ريثما يتمّ إيجاد مكان أو زمان مناسبَين للولادة. بل تحصل الولادة فورًا بعد الوفاة. وحيثما كان الميت، فإنّه سيولد مرّة جديدة، في عوالم سماويّة، في مملكة الحيوان[١]...

وبحسب البوذيّة، فبخلاف الفكر والمادّة اللذَين يكوّنان هذا المسمّى كائنًا، لا توجد روح خالدة ولا "أنا" مُنحتًا للإنسان، أو حصل عليهما المرء بطريقة غامضة من كائن غامض أو قوى خفيّة. بل يجب التمييز بين عقيدة الولادة الجديدة في البوذيّة ونظريّة التقمّص أو الإرتحال، لأنّ البوذيّة لا تعتقد بوجود روح خالدة أبديّة غير متغيّرة. وبالمعنى الأساسيّ، لا يستطيع البوذيّ التفكير بأيّ روح خالدة غير متغيّرة سواء في شكل ملاك، أو إنسان، أو حيوان؛ فهذه الأشكال ليست إلاّ ظواهر موقّتة لقوّة كَرْميّة. فكلمة "كائن"، هي مفهوم يُستعمل لأهداف اصطلاحيّة فقط.

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٣٥ ـ ٣٦.

وهنا يجدر التساؤل: إذا لم يكن هناك روح أو نفس تنتقل من هذه الحياة إلى أخرى، فما هو الذي يولد من جديد؟

يقول بوذا بأنّ ما من "أنا" ليفكّر، لكن يجب القبول بعدم إمكانيّة تفادي استعمال بعض العبارات الاصطلاحيّة. وبحسب البوذيّة، يتكوّن المسمّى "كائن" من الفكر والمادّة، أي الإسم والشكل. والمادّة هي مجرّد ظاهرة لقوى وخصائص. فقد حلّل بوذا ما نسميّه "ذرّة" غير قابلة للانقسام، وأعلن أنّها مجرّد ظاهرة لقوى مترابطة أسماها "الوحدات الأساسيّة للمادّة". هذه الوحدات هي: عامل التمدّد وهو أساس المادّة، عامل التلاحم، عامل الحرارة، عامل الحركة. ويضمّ إلى هذه الموادّ الأساسيّة مشتقّات هي: اللون، الرائحة، النكهة والعامل الغذائيّ. أمّا الفكر، الذي هو الجزء الأكثر أهميّة في الآليّات الوظيفيّة للإنسان، فهو مركّب من حالات سريعة الزوال، وهناك اثنتان وخمسون حالة فكريّة، يشكّل الشعور إحداها، والإدراك إحداها، والحالات الخمسون الأخرى الباقية تُسمّى جماعيًّا "الأعمال الإراديّة"... وهكذا يكون المدعو "كائن" مركّبًا من خمس مجموعات هي: المادّة (الشكل)، المشاعر، الإدراكات، الحالات الفكريّة والوعي، والتي هي في حالة من تقلّب متواصل. وإنّ فرديّة المرء هي تركيبة هذه المجموعات الخمس. وليس هناك من نفس دائمة تقيم في هذا المدعو "كائن".

وجوابًا على سؤال كيف تكون الولادة الجديدة ممكنة بدون نفس تولد من جديد؟ تقول البوذيّة بأنّ الولادة هي بروز المجموعات مجدّدًا ومجدّدًا. تمامًا كما يكون بروز حالة ماديّة مرتبطًا بحالة سابقة كسبب ومسبّب لها، هكذا فإنّ بروز هذه الحياة النفسيّة - الجسديّة على شكل كائن هو مرتبط بأسباب سابقة للولادة. كما أنّ عمليّة حياة واحدة ممكنة بدون شيء دائم ينتقل من لحظة فكريّة إلى أخرى، هكذا فإنّ سلسلة عمليّات حياتيّة هي ممكنة بدون أيّ شيء يرتحل من حياة إلى أخرى. وبعبارات اصطلاحيّة:

إنّ هذا الجسد يموت ناقلاً قواه الكَرْميّة إلى جسد آخر بدون أيّ شيء يرتحل من هذه الحياة إلى أخرى. الكائن المستقبليّ هناك يكون بسبب الكَرْما الحاضر هنا. ليس الكائن الجديد تمامًا نفس سابقه، لأنّ التركيبة تختلف، ولا هو أيضًا مختلف تمامًا، بسبب نفس التيّار من الطاقة الكَرْميّة. هناك إذن تواصل لتيّار حياتيّ معيّن، هذا فقط، وما من شيء آخر[1].

مِن خَصَائِص البُوذيَّـــــة

تتميّز البوذيّة عن غيرها من الأديان بخصائص عديدة، أبرزها:

برأي العديد من الباحثين، لا بل أكثرهم إن لم يكن جميعهم، أنّ بوذا قد اعتبر نفسه كائنًا بشريًّا لا علاقة أو ارتباط كان له بأيّ إله أو أيّ قوة فوق مستوى البشر. فهو لم يكن إلهًا أو تجسّدًا إلهيًّا أو رمزًا ميثولوجيًّا، بل كان رجلاً استثنائيًّا يتجاوز داخليًّا حالته البشريّة، لهذا كان يُدعى بالكائن الفريد، والمستنير... فقد استطاع بمجهوده الفرديّ إنجاز التحقيق الفكريّ والعقليّ الأسمى، وبلغ ذروة الطهارة والكمال المتّسمة بأفضل صفات الطبيعة البشريّة، فكان تجسّدًا للحنوّ والمعرفة اللذَين صارا المبدأين الهاديَين في نظامه الدينيّ وشرعته وتدبيره لشؤون العالم.

لقد أدرك بوذا، بالاختبار الشخصيّ، تفوّق الإنسان. لم يدّعِ أبدًا أنّه مخلّص أو منقذ "الأرواح" بديانة ملهَمَة، بل أثبت، من خلال مواظبته وإدراكه، أنّ هناك إمكانيّات

---

١ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٣٦ - ٣٩.

لامحدودة كامنة في الإنسان، عليه أن يسعى لتنميتها وكشفها، وأنّ الإشراق والخلاص هما، مطلقًا، في يد الإنسان. ولأنّه كان نصيرًا للحياة الشاقّة النشيطة، بالمبدأ والسلوك، فقد شجّع تلاميذه على الاعتماد على الذات وليس على أيّ قوّة أخرى، فكان بذلك أوّل داعية في تاريخ البشريّة يعلّم بإمكان بلوغ الخلاص بمعزل عن أيّ عامل خارجيّ، وبأنّه على كلّ واحد أن يحقّق لنفسه بنفسه الخلاص من العذاب ومن نزاعات الحياة ومن عدم الرضا، محذّرًا تلاميذه من إلقاء العبء على عامل خارجيّ منقذ، سواء كان إلهًا أو ملاكًا... ووجّههم إلى سبيل التمييز والبحث، وحثّهم على الانشغال في المهمّة الحقيقيّة لتنمية قدراتهم ومزاياهم الداخليّة، بقوله:

لقد وجّهتكم إلى الخلاص. يجب أن تحقّقوا الحقيقة والناموس بأنفسكم.

وهكذا فقد غدا المستنيرون البوذيّون، الذين شاهدوا الحقيقة وبلغوا الخلاص، مساعدين حقيقيّين، لا يصلّي لهم البوذيّون والمريدون، بل يحترمونهم ويبجّلونهم لأنّهم قد أشاروا إلى سبيل السعادة الحقيقيّة والخلاص. فالخلاص هو ما يجب أن يؤمّنه المرء لذاته. فلا يستطيع أحد منح الخلاص لآخر، إنّما قد يقدّم الآخرون يد العون بطريقة غير مباشرة، لكنّ بلوغ الحريّة يكون من خلال التحقيق الذاتيّ والإدراك الذاتيّ للحقيقة. فلا تتحقّق الذات إلاّ للذي يتفكّر بحريّة في مشاكله بدون عوائق. وعلى كلّ فرد القيام بالجهد المناسب وكسر الأغلال التي جعلته مستعبَدًا، واكتساب التحرّر من قيود الوجود بالمثابرة والجهد الشخصيّ ونفاذ البصيرة، وليس بالصلاة والتوسّل إلى كائن خارجيّ حتّى ولو كان ساميًا.

هذا لا يعني أنّ المستنير قد نفى، في أيّ وقت من الأوقات، وجود الآلهة والكائنات السامية والإله الأسمى لكنّه رفض فكرة البحث والنقاش العقيم في الأمور الماورائيّة.

ومن خصائص البوذيّة المميّزة أنّ بوذا لم يحتفظ بمعرفته السامية لنفسه وحده. فالإشراق التامّ واكتشاف الحقائق الأربع النبيلة ليست امتيازًا لكائن واحد فريد اختارته العناية الإلهيّة، كما أنّها ليست حدثًا فريدًا لا يتكرّر في تاريخ البشريّة. إنّه إنجاز مُباح لأيّ شخص يكافح من أجل الطهارة الكاملة والمعرفة الحقّة، وينمّي السبيل النبيل بعزيمة لا تنثنى، وقد شقّ بوذا ذلك السبيل بوضعه المبادئ الثمانية التي يمكن للمرء من خلال اتّباعها أن يسلك نحو الإشراق. ثمّ إنّ بوذا لم يفرّق بأيّ شكل بين تلاميذه ولم يفضّل واحدًا منهم على آخر، وليس هناك أيّ دليل من شأنه أن يشير إلى أنّه قد أوكل إدارة الرهبانيّة إلى أيّ تلميذ استثنائيّ قبل موته، أو إلى أيّ كان على أنّه خليفته. بل إنّ بوذا، قد أوضح لتلاميذه، قبل موته، أنّه لم يفكّر يومًا بتنظيم رهبانيّة وإدارتها، وها هو يقول لتلاميذه المحيطين به، وهو على فراش الموت:

العقيدة والنظام اللذان قد أعلنت ووضعت لكم، ليكونا معلّمكم بعد رحيلي...

حتّى خلال حياته، كانت العقيدة والنظام يديران ويرشدان الرهبان، ولم يكن هو الحاكم أو الرئيس بأيّ حال من الأحوال، بل كان "السبيل المثمّن" النبيل، هو الذي يسوق الممارسة البوذيّة، فهو التعليم للإنسان الحرّ.

كما رأى باحثون أنّ من خصائص التعاليم البوذيّة تشجيعها، بلا ريب، الأفكار والمؤسّسات الديمقراطيّة. ويقولون إنّ كان بوذا، بحكمته، قد أحجم عن التدخّل والتعارض مع الحكومات الموجودة آنذاك، فقد جعل جماعة الرهبان مؤسّسة ديمقراطيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى. وقد قال الماركيز زِتْلَند، الذي كان في ما مضى، نائبًا للملك في الهند، في مقدّمة كتاب "تراث الهند": "قد تكون مفاجأة للكثيرين أن يعرفوا بأنّه في مجالس البوذيّين في الهند، ومنذ أكثر من ألفَي سنة، وُجدت مبادئ ممارساتنا البرلمانيّة الحاليّة... رئيس الهيئة، رئيس المجلس، النصاب، الاقتراع

السرّيّ، أمر اليوم، المناقشة والدرس والبحث، تمرير المشاريع بعد ثلاث قراءات"، كلّ هذه الإجراءات والتصرّفات الشكليّة الصحيحة، لا يزال يُعمل بها في لقاءات الجماعة. حتّى الفكرة الحديثة للتصويت بالوكالة أو التفويض، كانت موجودة في نظام بوذا.

ميزة أخرى، يسجلّها باحثون للبوذيّة، هي طريقة بوذا الشفّافة في تعليم الناموس. فقد استهجن المعلّم ورفض كلّ مَن يقول بعقيدة سرّيّة فـ"السرّيّة هي دمغة العقيدة الخاطئة المضلّلة... والناموس الذي أعلنه "الكامل[1]" يضيء بكلماته عندما يعلَن وليس عندما يُخفى". وقد أعلن الناموس مجّانًا وبالتساوي للجميع، لم يكتم شيئًا ولم يرغب أبدًا في الحصول من تلاميذه على إيمان مطيع أعمى بشخصه أو بتعاليمه، بل هو شدّد على التفحّص التمييزيّ والبحث الذكيّ. وإنّ إعتماد أيّ أمر من غير تحقيق أو برهان ليس في روح البوذيّة. وانسجامًا مع هذا الموقف السليم، قال بوذا:

> كما يختبر الحكيم الذهب بالإحراق، بالقطع والحكّ، هكذا عليكم أن تقبلوا كلامي بعد الفحص وليس فقط احترامًا لي[2].

ويصوّر علماء الهند صورة رائعة لبوذا، فيقرّرون أنّه كان شديد الضبط، قويّ الروح، ماضي العزيمة، واسع الصدر، عزوفًا عن الشهوة، بالغ التأثير، بريئًا من الحقد، بعيدًا عن العدوان، جامدًا لا ينبعث فيه حبّ ولا كراهية، ولا تحرّكه العواطف ولا تهيّجه النوازل، بليغ العبارة، فصيح اللسان، مؤثرًا بالعاطفة والمنطق، له منزلة كبيرة في أعين الملوك، ومجالسه ملتقى العلماء والعظماء[3].

---

١ ـ **الكامل:** هو أحد ألقاب بوذا.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص١١ ـ ١٤.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٦٠.

الفَصل الثَّالِث

تطوُّر البُوذِيَّة وتنظيمُها

الإقبَال عَلى البوذيَة؛

تطوُّر النّظام؛ النُّظُم الرّهبانيّة عند البوذيين؛

إستِقرارُ البُوذيّة في الهِند؛ آسُوكا ناشِرُ البُوذيّة؛

بُوذيّـة المَهايانا .

الإقبال على البوذيّة

حقّق بوذا نجاحًا في نشر دعوته من دون كبير عناء، ومن دون أن يلاحق من الحكّام في تلك الحقبة. ويعود هذا النجاح إلى أنّ اضطراب الناس وحيرتهم في الهند، آنذاك، كانا داعيَين لقبول أيّ مذهب يَردُ أو فكرة تخطر بالبال، كما أنّ القابليّة الهنديّة تتميّز بأنّها أكثر احتمالاً للأفكار الجديدة. كذلك اشتركت في نجاح بوذا عوامل أخرى، فضلاً عن الطبيعة الهنديّة، أهمّها قوله بإلغاء الطبقات، فقد كان ذلك داعيًا إلى أن يتبعه كثيرون ممّن انحطّت طبقاتهم أو ممّن كانوا يشعرون بثورة ضدّ هذه الطبقات المتعدّدة المتفاوتة السيادة في الهند[١]. ولقد عرض بوذا تعاليمه في مجموعة من كبيرة من الحكايات والأمثولات والتشبيهات والطرائف وأمثالها من أساليب التعليم الشعبيّ، وكان باستمرار يشرح ذلك بطريقة تثير اهتمام الناس وتشجّعهم على أن يلزموا أنفسهم على نحو شخصيّ بـ"الطريق" الذي عن طريقه وحده، يمكن أن يأملوا في الوصول إلى فهم تامّ وعميق للحقيقة. وهذا التأكيد على أهميّة الحاجة إلى التحقّق الشخصيّ ممّا تمّ قبوله في البداية على أساس الإيمان قد ظلّ هو السمة الغالبة على الممارسات البوذيّة حتّى يومنا هذا[٢].

---

١ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٥٣ - ١٥٤.

٢ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٥٩.

وهكذا فإنّ الطبقات الدنيا قد دفعت بنفسها إلى البوذيّة لتتخلّص ممّا عانته في رحاب الهندوسيّة من اضطهاد واحتقار. أمّا طبقة الملوك والجنود فقد دخلت البوذيّة تخلّصًا من سلطان البراهمة الذين أثاروا سخط جميع الطبقات الأخرى باستبدادهم وتعسّفهم. ثمّ كان لصفات بوذا الشخصيّة أثر كبير في ما صادفه من نجاح، ومن أبرز صفاته عداؤه للتعصّب الدينيّ، واعتبار التعصّب أعدى أعداء الدين. وقد رأى مرّة أحد تلامذته غارقًا في نقاش حادّ مع براهميّ كان يرمي بوذا بالإلحاد وقلّة الورع، وكان يطعن نظام التسوّل الذي أسّسه بوذا، ولمّا رأى بوذا حماسة تلميذه وحدّته أنكر عليه ذلك وقال: "إيّها الأخوان، إن كان هناك مَن يقدح في ذاتي أو في ديني أو في "النظام" فليس لكم أن تغضبوا أو تحزنوا أو تحقدوا، لأنّكم بهذا تعرّضون أنفسكم لخطر الخسارة الروحيّة أوّلاً. ثمّ لا تتمكّنون في ثورة الغضب من تمحيص أقوال القادح ثانيًا[1]".

وكما كان بوذا عدوًّا للتعصّب كان عدوًّا للطيش والغضب. فلم يُعرف عنه أنّه شتم، أو سخط، أو نطق لسانه بكلمة جارحة أو قاسية، وكان يرى الدنيا جاهلة غافلة، لا شرّيرة خبيثة. كلّ هذا جمع الأصدقاء حول بوذا، وسبّب لدعوته النجاح الذي حظيت به دون كثير من العناء والجهد[2].

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، ١٨٢.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٥٤، نقلاً عن: EDWARD THOMAS, *THE LIFE OF BUDDHA AS LEGEND*, PP. 97- 99.

تطوُّر

النِّظام

كان بوذا وتلاميذه في البداية يشكّلون جماعة من "الشرمان SHRAMANAS"، أو المتجوّلين المتديّنين، ولم تتبنّ هذه الجماعة طريقة مستقرّة في الحياة إلاّ في ما بعد. وغُطّيت منطقة وسط وادي نهر الغانج كلّها بمدنها المختلفة، كبيرة وصغيرة، بجماعات من الرهبان البوذيّين الجائلين ذهابًا وإيابًا، حتّى أصبح اسم "حكيم سكياس" (بوذا) معروفًا معرفة جيّدة ومحترمًا للغاية بطول هذه المنطقة وعرضها. وكانت ظروف العصر مواتية لنمو الجماعة البوذيّة، فقد اختفت الإتّحادات القبليّة قبل قدوم النظم الملكيّة، الأكثر قوّة والأشدّ عدوانيّة، كالنظام الملكيّ في منطقة "ماغاذا MAGAHDA" بعاصمتها "بتليبوتا PATALIPUTTA" أو"بتنا PATNA". ومع اختفاء الجمهوريّات اختفت كذلك طرق وأساليب الحياة القديمة المألوفة، وكان تنظيم النظم الملكيّة أوضح، وغير شخصيّ أكثر؛ ولذلك سُرَّ الناس أن يجدوا في الجماعة البوذيّة التي نظّمت على غرار الاتّحادات القديمة، شيئًا من الحياة المشتركة التي فقدوها. وفضلاً عن ذلك، فقد أدّت ظروف العصر المضطربة إلى ظهور أسئلة ملحّة كمثل: لماذا نعاني نحن البشر؟ وما الغاية النهائيّة من الحياة البشريّة؟ وما إلى ذلك... وقد وجد الكثيرون إجابات شافية عن هذه الأسئلة في التعاليم البوذيّة[1].

لم يكن بوذا وتلامذته يتجولوّن طوال العام، إذ يصبح التنقّل مستحيلاً لمدّة ثلاثة أشهر أو نحو ذلك، وهي مدّة الأمطار الموسميّة الغزيرة في شمال الهند، وكانت مجموعات الرهبان البوذيين تلجأ، خلال هذه المدّة، إلى أماكن أشبه بالمخابئ، فكانت

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٢٦٠.

جماعة الرهبان البوذيين، وفقًا للتقليد البوذيّ، تستخدم الكهوف منذ أقدم الأزمنة كملاجئ في موسم الأمطار، حيث يعيشون حياة جماعيّة، ثم يعودون، بعد أن تنتهي الأمطار الموسميّة، إلى التفرّق في أماكن شتّى مرّة أخرى. ولكن مع مرور الزمن، امتدّت هذه الممارسة للحياة المشتركة خلال انحسار المطر، إلى ما بعد انتهائه، حيث بدأت جماعات من "الشرمان" البوذيّين في الاستقرار. ومع أنّ جماعات الرهبان استبدلت بهذه الملاجئ، تدريجيًّا، أديرة مبنيّة، فقد استمرّ التقليد القديم في بعض أجزاء الهند، حيث كشفت الحفريّات عن عددٍ من الكهوف التي لم تكن تُستعمل للسكن بل للعبادة[1].

النُّظُم الرّهبانيَّة

عندّ البوذيِّين

ليس الرهبان البوذيّون كهنة يؤدّون الطقوس والتقدمات. فهم لا يمنحون الأسرار المقدّسة ولا ينطقون بالحلّ والغفران. وليس الراهب البوذيّ وسيطًا بين الإنسان والقدراتّ فوق الطبيعيّة، لأنّ البوذيّة تعلّم بأنّ كلّ فرد، أكان علمانيًّا أو راهبًا، هو المسؤول الوحيد عن خلاصه الشخصيّ. وبالتالي، من غير الضروريّ اكتساب عطف واستحسان وفضل كاهن وسيط. "أنت عليك وحدك بالكفاح؛ المستنيرون يرشدون إلى السبيل فقط". والسبيل هو ذاته الذي سلكه وأشار إليه المستنيرون في كلّ العصور، الهدف ذاته، السلام الأسمى، النِرفانَا[2].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، مرجع سابق، ص ١٣.

يرى باحثون أنّه لا يتضح، من الشواهد المتاحة، طبيعة التسلسل التاريخيّ للكهانة البوذيّة. ويبدو من التراث المرويّ أنّه لمّا توفّي بوذا، وهو في سن الثمانين، كان قد أصبح شخصيّة شهيرة ومحترمة للغاية، كما كان له أتباع ومؤيّدون من الأغنياء والفقراء على السواء. فقد كان ملك "ماغاذا" المسمّى "بمبزار BIMBISARA"، واحدًا من أخلص تلاميذه. وتقول الرواية أنّ بوذا ومعه أتباعه ذهبوا إلى مقرّ الملك، وألقى عليهم بوذا مواعظ "ذاب لها قلبه" فقبل الدين الجديد، وأصبح من أشدّ تلاميذه إخلاصًا. ولكن يبدو أنّ موقف بوذا تجاه النظام الملكيّ، كان يشوبه بعض الإلتباس، إذ تدلّ بعض الأقوال المنسوبة إليه، على أنّه نظر إلى ممارسة الملكيّة بوصفها عقبة في سبيل السعي إلى الحياة الدينيّة، وأنّها مصير ينبغي تجنّبه إذا أمكن. ويبدو، من ناحية أخرى، أنّه أخذ بوجهة النظر التي تقول: إنّ الملك إذا كان لديه استعداد طيّب نحو "الحقيقة البوذيّة"، يستطيع أن يفعل الكثير لتيسير التطبيق المؤثّر للحياة البوذيّة على رعاياه، وذلك بأن يؤكّد على وجود عدالة اجتماعيّة داخل مملكته، وأنّ أحدًا لا يعاني الفقر أو الحاجة، كما لا تسنح الفرصة لأحد لكي يزداد ثراءً على نحوٍ فاحش.

ويجد هؤلاء الباحثون هنا، تطبيقًا للمبدأ الذي تميّزت به البوذيّة، ألا وهو "الطريق الوسط"، وهو يعني الطريق الذي يقع بين حياة الحسّ والمتعة المسرفة، وبين حياة الزهد والتقشّف المتطرّفة. ولقد رفض بوذا نفسه هاتَين الحياتَين المتطرّفتَين في مسار حياته، وهو يدنو من البوذيّة. والظاهر أنّ خلق الظروف المثاليّة لتحقيق حياة بوذيّة بأكبر عددٍ ممكن من المواطنين، كان في نظر بوذا هو المهمّة الحقيقيّة للملك الورع. فالنظام الاجتماعيّ العادل تفترضه سلفًا تعاليم بوذا، بدلاً من أن تأمر به، على الرغم من أنّنا لا نفتقر إلى الإشارات الكثيرة، في تعاليم بوذا، التي تقول بوضوح: إنّ هذا النمط من الحياة الاجتماعيّة هو الذي تهدف إليه. ولهذا السبب، فإنّ المؤرّخين الهنود

المحدثين من أمثال "د. د. كوزامبي D. D. KOSAMBI" و "روميلاتـابر ROMILA THAPER" يعتبرون البوذيّة في بدايتها "فلسفة اجتماعيّة"، يجد أيّ حاكم صالح أنّه مـن الضـروريّ أن يتوافق معها[1].

كانت الدعوة في المقام الأوّل، دعوة إلى أن يفقد المرء وجوده الفـرديّ فـي الحيـاة المشـتركة لجماعـة "السـنغا SANGHA" أو النظـام البـوذيّ "للبهيخـوس BHIKKHUS"، وهـذه الكلمة الأخيرة تترجم عادة "بالرهبان" أو "الراهبات"، وهي بغير شكّ ترجمة أقرب إلـى معناها فـي كلمـة "كـاهن" التـي يسـتخدمها الأوروبيّـون أحيانـًا اسـتخدامًا خاطئـًا عندمـا يطبّقونها على أعضاء الجماعة البوذيّة في آسيا في وقتنا الراهن. والكلمة تعنـي حرفيًا "المشارك SHARER"، وكانت تشير في البداية إلى واقعة أنّ "البهيخـو BHIKHU" يعتمـدون في قوت بعضهم على المشاركة في الطعام الذي يقدّمه كلّ مَن يريد دعم الجماعـة مـن أصحاب النوايا الطيّبة، وهي تعني كذلك الشخص الذي يشارك فـي الرصيد العـام مـن "الصدقات" التي تقدّم إلى الجماعة في أيّة منطقة معينة سواء أكانت أطعمة أم سلعًا.

وحياة "البهيخو" كانت، ولا تزال، حياةً تستلزم نبذ جميـع المقتنيـات، والامتيـازات الشخصيّة، والاستعداد للعيش في حياة مشتركة مـن الفقـر والعفّـة، وداخـل هـذه الحيـاة المشتركة بأنظمتها المعترف بها، وممارستها التأمليّة، تنحلّ "أنا" الفرد، ويزداد وضـوح المنظور البوذيّ الحقّ. ولقد طـوّرت البوذيّـة فـي مرحلـة مبكّـرة وقنّنـت قـاعدة للحيـاة عُرفـت باسـم الــ"فينايـا VINAYA" أي "النظـام"، وقـد كـانت البنـود المنفصلـة، فـي هـذه الشريعة البوذيّة، في المقام الأوّل، أحكامًا أصدرها بوذا، حول مشـكلاتٍ نوعيّـة تتعلّـق بالسلوك، ظهرت في مواقف معيّنة، ثمّ قُبلت هذه الأحكام في ما بعد، وأصبحت معيـارًا

---

[1] ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

اتّخذ شكل القانون في مجموعة هائلة تشغل الآن القسم الأوّل من أقسام ثلاثة، هي: النظام، الأحاديث، ولبّ المذهب. وهي على الترتيب: "فنيايا ـ بيتاكا VNAYA-PITAKA"، "سوتا ـ بيتاكا SUTTA-PITAKA"، و"أبهيدهاما بيتاكا ABHIDHAMA-PITAKA". وكانت إحدى الوظائف الهامّة لجماعة "السنغا"، هي حفظ هذه المجموعات، ونقلها في البداية مشافهة ثمّ في شكلٍ مكتوب، ولا تزال هذه هي وظيفة السنغا حتّى يومنا الراهن، وهي وظيفة ينظر إليها بجديّة تامّة، لاسيّما في مدرسة "ترافاندا THERAVADA" البوذيّة التي تنتشر في "سري لانكا" وجنوب شرقي آسيا[1].

أهمّ قسم بالنسبة للبهيخوس من كلّ المجموعة المعروفة باسم "النظام"، هو قسم يضمّ قائمة من ٢٥٠ بندًا، تتعلّق بالسلوك وتُعرف باسم "الباتيموخا PATIMOKKIHA"، وهي تتألّف في الواقع من قائمة من الإنتهاكات التي ينبغي تجنّبها ابتداء من أكثرها خطورة، وهي التي تكون عقوبتها الطرد من النظام، يعقبها انتهاكات عقوبتها وقف العضو لمدّة زمنية محدّدة، ثم انتهاكات تقلّ خطورتها بالتدريج حتّى يصل الأمر إلى مسائل تتعلق بآداب السلوك واللياقة. وهذه القائمة تُتلى في الاجتماع الكامل الذي تعقده الجماعة كلّ ١٤ يومًا، ويُطلب فيه الاعتراف بأيّ انتهاكٍ لها، وهذه التلاوة ضرب من الممارسة القديمة للنظام البوذيّ، ولا تزال تراعى بإيمان وخشوع في أديرة الرهبان والراهبات على حدٍّ سواء، وهي تذكرة مستمرّة للرهبان والراهبات بمعيار السلوك الملائم لأعضاء جماعة "السنغا". وهناك فارق هامّ بين "السنغا" البوذيّة والأنظمة الدينيّة في الغرب، وهو أنّ العضويّة، في حالة البوذيّة، يمكن أن تستمرّ، أو لا تستمرّ، طوال حياة الرجل أو المرأة. فإذا ما شعر العضو، "أو البهيخو"، في أيّ وقت، أنّه لم يعد

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

قادرًا على الاستمرار في النظام، وأنّ عليه أن يعود إلى الحياة العاديّة، فهو حرّ في أن يفعل ذلك، بعد أن يبدي رغبته إلى رئيس الدير. وليس من غير المألوف في بعض بلدان جنوب شرق آسيا أن يصبح الشخص عضوًا في جماعة "السنغا" لمدّة محدودة فحسب. ويُنظر إلى ذلك على أنّه أمر جدير بالتقدير، كما أنّه نافع ومفيد. فإذا استطاع العضو البقاء في "السنغا" طوال حياته، كان ذلك أفضل. وكثيرٌ من البوذيّين يفعلون ذلك بطبيعة الحال، فيصبحون محترمين، ولهم تقدير خاصّ في المركّب الاجتماعيّ الدينيّ في المجتمع البوذيّ في آسيا. وهكذا يتّضح أنّ هناك خطأ يقع فيه الغربيّون بسهولة عندما يتصوّرون أنّ "السنغا" البوذيّة، هي انسحاب من العالم. ويرجع ذلك، من ناحية، إلى استخدام التسمية غير الدقيقة، وهي كلمة "الراهب"، والواقع أنّ الرهبان البوذيّين، ليسوا، في العادة، رجالاً قطعوا صلتهم بالمجتمع كلّه، وليس الدير البوذيّ مكانًا منفصلاً عن المجتمع الأوسع، فهناك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامّة الناس، والناس يزوّدون الرهبان بالطعام والثياب، ويساندون الدير بطرق شتّى، بينما يقدّم الرهبان خدمات مختلفة إلى الناس المحليّين[1]. ولا يزال الراهب البوذيّ، حتّى الآن، هو الشخصيّة الرئيسيّة في مناطق انتشار الهينايانا. ويعتمد حرفيًّا النصوص المقدّسة، القليلة نسبيًّا، المكتوبة بلغة البالي القديمة. والنظام الرهبانيّ هنا هو النظام الأصليّ الصارم عينه. وينطلق الرهبان صباحًا للاستعطاء وهم في ملابسهم الصفراء، وقد حلقوا رؤوسهم كما كان يحصل أيّام بوذا، وليس لهم هدف في الحياة سوى الحصول على الخلاص الفرديّ الذي يعادل القداسة. لذلك كان التأمّل النسكيّ الصامت هو القاعدة المتّبعة في جميع أديرة الهينايانا. وتقوم تعاليمهم على أنّ كلّ ما في الكون من آلهة وبشر وحيوان كائنات خاضعة للصيرورة الدائمة، أي للعذاب. والانعتاق من

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

العذاب يقتضي التركيز والتأمّل واختراق ظواهر الأمور إلى الجوهر، وصولاً إلى التنوّر الذي هو الحقيقة القصوى. فالبوذيّ الكامل هو المتنوّر على غرار بوذا[1].

ويعدّ التعليم من أوضح الخدمات التقليديّة التي يقدّمها الرهبان: فالدير مدرسة يذهب إليها البنون والبنات من أبناء القرية لتعلّم القراءة والكتابة. والنتيجة هي أنّ بوذيّة الريف في آسيا تحصل، عمومًا، على نسبة أعلى من المتوسّط في معرفة القراءة والكتابة. وهناك خدمات أخرى يقدّمها الرهبان وتختّص بالاحتفالات، ولاسيّما في الأعياد أو في المناسبات المختلفة مثل الجنازات. وهم يقدّمون إرشادات منتظمة للجمهور حول طريقة الحياة البوذيّة، ويعملون مرشدين روحيّين وناصحين أخلاقيين. وفضلاً عن ذلك فهم يؤدّون دورًا قياديًّا في شؤون المجتمع المحلّيّ ومشروعاته، ولاسيّما في تايلند على سبيل المثال، حيث تسعى الجهات الحكوميّة إلى تعاونهم في تنفيذ الخطط الحكوميّة في قطاعات الزراعة والطبّ وغير ذلك.

ويبدو أنّ بوذا قد حرص على وضع المبادئ والأسس للتعامل بين الرهبان وعامّة الشعب. فبالإضافة إلى المبادئ الأخلاقيّة الموجّهة لعامّة الشعب، هناك التزامات اجتماعيّة وأخلاقيّة معيّنة ومعترف بها، وصفها بوذا في أحد أحاديثه المعروفة باسم "السيغالوفادا سوتا SIGOALOADA SUTTA" وهو حديث يشرح واجبات الأبناء نحو آبائهم، والآباء نحو أبنائهم، والتلاميذ نحو معلّميهم، والمعلّمين نحو تلاميذهم، والأزواج نحو زوجاتهم، والزوجات نحو أزواجهنّ، والخدم نحو مستخدِميهم، والمستخدِمين نحو خدمهم، وأخيرًا واجبات عامّة الناس نحو معلّميهم الدينيّين، أي الرهبان، وواجبات الرهبان نحو عامّة الشعب. وهذه المجموعات من الواجبَات التي يبدو أنّها ترجع إلى

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٥٩.

حقبة قديمة جدًا من تاريخ البوذيّة، لها في حالات كثيرة تطبيقات حديثة ملائمة بصورة ملفتة للنظر، وهي على العموم، تراعي بإخلاص شديد أكثر من أمثالها من سائر الشرائع الأخلاقيّة القديمة[1].

إستِقرَارُ البُوذيَّة في الهِنـــــــد

في خلال القرنَيـن الأولَيـن لبداية الدعوة البوذيّة، كان هنالك نموّ مستمرّ لعدد أعضاء "السنغا". ولكن سرعان ما انشغل بعض الرهبان، على نحوٍ متزايد، بالتفصيلات الحرفيّة للشريعة المنظّمة، وانصرفوا عن روح المذهب إلى النواحي القانونيّة، فبدأوا في انتقاد غيرهم من الرهبان الذين اتّهموهم بالتراخي والإهمال في مراعاة النظام. ولقد أدّى ذلك إلى حدوث انقسامٍ كبيرٍ في المذهب بعد قرن واحد من وفاة بوذا، إذ انفصل أولئك الذين تمسّكوا بحرفيّة النظام، وشكّلوا جماعة خاصّة استقلّت عن أصحاب النظرة الأكثر تحرّرًا. أما التطوّر الرئيسيّ الثاني الذي حدث في القرنَين الأولَين، فهو تطوّر المنهج التحليليّ للفلسفة البوذيّة، الذي كان قد بدأه بوذا.

كانت تعاليم بوذا توجّه إلى جمهور المستمعين، ولهذا جاءت إلى حدّ كبير على هيئة محاورات، وأمثولات، وطرائف، وتشبيهات، وما إلى ذلك. لكنّ بعض الأحاديث المنسوبة إليه، لا سيّما تلك الأحاديث التي كان يعلم فيها "البهيخوس BHIKKHUS" تحتوي على تخليصات للمسائل الجوهريّة في قوائم أو رؤوس مجموعات تستهدف المساعدة على التذكّر. ونجد هذا، بوجه خاصّ، في تحليل مجموعات العوامل الخمس "الخندات KHANDHA" التي تشكّل ما يُسمّى "بالشخص"، ولقد خضعت هذه المجموعات من

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧١.

العوامل لتحليلات أخرى، ونتجت عن ذلك قائمة من الظواهر الذهنيّة والنفسيّة وعلاقاتها المتبادلة، وتفاعلاتها، شكّلت ما عُرف باسم "أبهيداهما" أو "جوهر العقيدة". وأصبحت دراسة هذه التجريدات أحد الموضوعات التي نالت اهتمامًا كبيرًا من رهبان البوذيّة في الحقبة التي تلت وفاة بوذا. فنشأت الاختلافات حول تفسير بعض النقاط، وبعد حوالي قرنين تطوّر الخلاف إلى انقسام كبير بين مدارس فكريّة. فدارت مجادلات واسعة حول مشكلة ما إذا كان من الممكن النظر إلى الأحداث الماضية والمقبلة على أنّها حقيقة، قبل حدوثها أو بعده. وقد أكّد "الستافيراس الكبار" أو التقليديّون، على أنّ الأحداث التي تقع في الحاضر، هي وحدها الأحداث الحقيقيّة. أمّا خصومهم من "السارفاستفادين SARVASTIVADINS"، فأكّدوا على أنّ أحداث الماضي والحاضر والمستقبل، هي كلّها بالتساوي، أحداث حقيقيّة، ومن هنا استمدّوا اسمهم من "سارفا" بمعنى كلّ، و"آستي ASTI" بمعنى "يوجد"، و"فادينز VADINS" أي المؤكّدون أو المثبّتون[1].

وهكذا فقد انقسمت البوذيّة إلى عدّة مذاهب، كسائر الأديان، وأدخل مؤسّسو هذه المذاهب وأتباعهم تعاليم وطقوسًا مغايرة في بعض الأحيان لتعاليم بوذا[2]. فمع مرور السنوات، بدأ أتباع بوذا ينسون أنّ فكرة بوذا عن الدين كانت خلقيّة خالصة، وأنّ كلّ ما كان يعنيه هو سلوك الناس. أمّا الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت فكلّها عنده لا تستحقّ الذكر. نسي الأتباع كلّ هذا، وراحوا يؤلّهون بوذا نفسه، وبدأت القصص في كتبهم المقدّسة تتحدّث عن الإله بوذا، وتصف كيف تقدَّم له القرابين. وبعد أن كان بوذا يعظ ضدّ الأصنام، أقام له أتباعه التماثيل في كلّ معبد

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

٢ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص ١١.

وجعلوا منه هو نفسه إلهًا معبودًا. واستمرّت السنوات تمضي، والخلافات تستفحل بين الأتباع الذين حوّلوا البوذيّة إلى دين كامل، وراحوا يختلفون في تفسير التعاليم. وأصبح للبوذيّة كهنة، ولكنّ الكثيرين منهم لم يفهموا ماذا علّم بوذا. وعندما لا يستطيع الكهنة فهم التعاليم الكبرى لأساتذتهم يحاولون تفسيرها بطرقهم الخاصّة، وعندئذ يقولون إنّ تفسيراتهم هي وحدها الصحيحة وما عداها باطل. وغالبًا ما تتناقض تفسيراتهم مع ما علّمه أساتذتهم. وكان هذا هو ما حدث بالفعل. فقد اتّسعت شقّة الخلافات حول ما الذي كان يقصده بوذا وما الذي لم يكن يعنيه. وبدأت هذه الخلافات تتيح الفرصة لكثير من تعاليم الديانات الأخرى التي تعيش في الهند، مثل الفيديّة والبراهميّة، تتسرّب إلى البوذيّة، بالرغم من حرص المخلصين من التلاميذ على مقاومة تأثّر عقيدتهم بغيرها من الديانات. وانقسم الأتباع قسمَين. وشجّعت الديانات الأخرى هذه الانقسامات وأخذت تدسّ تعاليمها في ثنايا البوذيّة حتّى تضاربت فيها الآراء. وبدأت البوذيّة تفقد أتباعها شيئًا فشيئًا[1]. ونتج عن تلك الانقسامات تخلّي الرهبان عن بعض القواعد الصارمة كتلك المتعلّقة بالاعتراف العلنيّ، كما سُمح لهم بالنوم على أسرّة مريحة وأكل وقعة بعد انتصاف النهار، واقتناء الذهب والفضّة، وتناول المشروبات المخمّرة. وكانت النتيجة انشقاقًا فصل الرهبان المتحرّرين عن الرهبان الأصوليّين الذين تمسّكوا بإيمان الأوائل[2].

ويلخّص باحثون[3] موضوع الإنشقاقات في الديانة البوذيّة بأنّه لمّا كان بوذا قد ترك بعد رحيله أمورًا كثيرة عالقة لا ترتبط مباشرة بموضوع السلام الداخليّ، فقد برزت

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٣٨ـ ١٤١.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٥٨.

٣ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص١٧.

الاختلافات الفلسفيّة بين أتباع المعلّم فور رحيله. لحلّ هذه النزاعات، اجتمع خمسمائة من الرهبان في مغارة قرب "راجَاغرِهَا RAJAGHRIHA" لتثبيت القواعد المتعلّقة بتنظيم حياة الرهبان. كان "آننْدَا" المعلّم، أحد تلاميذ بوذا، قد دوّن عظاته، فيما سجّل "أبالي" النظام الرهبانيّ، وأخذ "كَشيبَا" على عاتقه عمليّة نشر العقيدة. مع هذا تشير المخطوطات التي وصلت إلينا حول تطوّر البوذيّة إلى أنّ أتباع بوذا قد انقسموا في القرن الثالث ق.م. إلى ثماني عشرة مدرسة، تنظّمت ثلاث منها فقط وثبتت على مرّ العصور، وهي "المركَبات الثلاث" التي عُرفت بهذا الإسم، لأن بواسطتها يعبر البوذيّ بَحر الولادات والميتات ويبلغ شاطئ النِرفانَا:

١ - المركبة الصغرى HINAYANA: تجمع المتمسّكين حرفيًّا بالعقيدة البوذيّة الذين لا يحاولون تحويلها إلى ديانة تعبّديّة، ولسان حالهم أنّ بوذا قد أوصى تلاميذه بحفظ العقيدة كما علّمها. يسلك أتباع هذه المركبة السبيل الوسط الذي شدّد عليه المعلّم ولا يعترفون بأيّ من الاجتهادات والفلسفات والعقائد التي وضعها النسّاك والمعلّمون البوذيّون لاحقًا، لأنّ "المبارَك" رفض أصلاً تعليم أيّ فلسفة أو عقيدة ماورائيّة أو دينيّة. ينحصر أتباع هذه "المركبة" اليوم في سريلانكا وإندونيسيا وتايلاندا وبورما.

٢ - المركبة الكبرى MAHAYANA: برزت هذه المركبة في القرن الأوّل، وهدفها إعطاء شروح وتفسيرات واسعة مسهبة للعقيدة. سُمّيت هكذا مقارنة بالمركبة الصغرى الضيّقة والمحدودة في العقيدة الأوّليّة. من الأسباب الأساسيّة لتنظيم هذه المركبة هو الوضع الفلسفيّ والعقائديّ الضعيف للمركبة الصغرى في مواجهة فلاسفة الهندوسيّة. يرفض أتباعها سلوك الطريق الأوسط لاقتناعهم بأنّ التطرّف والتقشّف القاسي قد مهّدا بلوغ المعلّم الإشراق. ينتشر أتباع هذا المذهب في الصين وكوريا واليابان.

٣ ـ المركبة الماسيّة أو المركبة التنتريّة VAJRAYANA: تفرّعت في القرن السابع في الهند من المركبة الكبرى، مُدخلة بعض المعتقدات والممارسات اليوغيّة والتنتريّة والتعبّديّة. تنحصر هذه المركبة اليوم في منغوليا والتيبيت ويرأسها الدلاي لاما. وسيكون لنا عودة تفصيليّة إلى هذه المذاهب.

أمّا في الهند، فسرعان ما تعرّضت البوذيّة للانكماش والذوبان، من جديد بالهندوسيّة، وباتت مهدّدة بالزوال لولا أنّ الملوك الذين آمنوا ببوذا لعبوا دورًا فاعلاً في إعادة إحيائها وانتشارها في الهند وخارجها.

إنّ من أهمّ ما نادى به بوذا هو إلغاء نظام الطبقات في الهندوسيّة. ومن أقواله في ذلك: "إعلموا أنّه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصبّ في البحر، كذلك تبطل الطبقات الأربع عندما يدخل الشخص في النظام ويقبل الشريعة". إنّ ما يدعو إليه بوذا هو مؤسّسة الرهبانيّة، حيث يتساوى سائر البشر. ولكن يؤخذ على هذا الإتّجاه أنّه جعل إلغاء نظام الطبقات متوقّفًا على دخول البوذيّة. فلم يدعُ للمساواة في حدّ ذاتها[1]. ويرى باحثون أنّ إلغاء نظام الطبقيّة لم يكن كافيًا لتثبيت البوذيّة في ذلك المجتمع الهنديّ الذي اعتاد اللجوء إلى جمهرة من الآلهة في تعبّده. وأنّ اتّجاهات البوذيّة الخلقيّة واللاعقائديّة التي سبّبت سرعة انتشارها في الهند لسهولتها، ولتعارضها مع آلهة الهندوس، جعلت الكثير من الهنود يتبعون البوذيّة في أخلاقها ويظلّون، مع ذلك، على ولائهم لآلهة الهندوس، ذلك لأنّ البوذيّة لم تتكلّم عن الإله، فتركت فراغًا في نفوس أتباعها الذين راحوا يبحثون، من جديد، عن سبل لملء هذا الفراغ. فكان من الطبيعيّ أن يلجأوا إلى الهندوسيّة، الأمر الذي ساهم، إلى حدّ كبير، في سرعة ذوبان الدين

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٧٩.

الجديد في الدين الذي ساد طويلاً: الهندوسيّة. وإذ كانت البوذيّة تقوم على عدم الاعتراف بالإله، عاد أتباعها ليعترفوا بالآلهة الهندوكيّة ويتقرّبوا إليها، لذلك لم تكن مظاهر البوذيّة خالصة لها، بل كانت خليطًا منها ومن الهندوسيّة، ومن هنا أخذت البوذيّة تتلاشى من الهند شيئًا فشيئًا، وأخذت الهندوسيّة تمتصّها أو تمتصّ أتباعها يومًا بعد يوم. لأنّهم اندمجوا في تقاليد الهندوسيّة وطقوسها وآلهتها[١]. وبما أنّ بوذا لم يبنِ معابد، ولم يأمر أتباعه بممارسة أيّ لون من ألوان العبادة، لجأ أتباعه إلى معابد الهندوس، فوضعوا فيها تمثال بوذا بين آلهة الهندوس، ولم يعارض الهندوس لأنّ العقل الهنديّ لا يضيره أن يُضمّ إله جديد إلى ما يُعترف به من آلهة. وبمرور الزمن، ذاب تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة، وذاب أتباع البوذيّة بين الهندوس، فلم يعد للبوذيّة شأن في شبه القارة الهنديّة[٢]، وبجوار تمثال بوذا، سوف ينتعش آلهة آخرون في البلدان الأخرى التي ستدخلها البوذيّة، فيظهر في اليابان تمثال الإله "شنتو" وفي الصين تمثال الإله "تاو سيم TAOSIM"[٣].

وكان من أسباب ضعف البوذيّة في الهند، بالإضافة إلى ما سبق، أنّ البوذيّة اهتمّت بإصلاح الباطن، أي إصلاح الأخلاق، فحاربت الشهوة والغرور والكبرياء، وألزمت بالشُعَب الثماني من رأي سليم وشعور صائب وسلوك حسن... لكنّ الهندوسيّة قنعت بأشياء ظاهريّة كالعمل في الأنهار المقدّسة والأخذ بالطقوس والقرابين.. ومعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالجة الأمور الباطنيّة. ولهذا تخلّى البوذيّون، يومًا بعد يوم، عن صراعهم مع نفوسهم، واكتفوا بقربان يقدّمونه أو مظهر يظهرون به كما

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٧٣، ١٧٩، ١٨٢ ـ ١٨٣.

٢ ـ النمر عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند، ص ٤٥ ـ ٥٥ بتصرّف.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٧٣.

ترى الهندوسيّة، وممّا ساعد على ذلك تأصُّل نظام الطبقات الذي رفضته البوذيّة، واحتواء الهندوسيّة على تقاليد القوم وعاداتهم، ما جرّهم إليها يومًا بعد يوم[1].

هذا ما آلت إليه حال البوذيّة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. ففي داخل الهند، كانت البوذيّة تضعف وتتكمش، ولم تكن قد عرفت بعدُ طريقها إلى خارج الهند، وجاء الملك العظيم آسوكا والبوذيّة على وشك أن تنهار، فاعتنقها وبعث فيها الحياة مرّة أخرى، ودفع بها إلى الخارج.

آسُـــــــوكَا

ناشِرُ البُوذيَّة

كان الإسكندر المقدونيّ قد استولى على السند في زحفه نحو الشرق، لكنّه لم يتقدّم نحو نهر الغانج، ولم يسيطر على باقي الهند لأنّ المقدونيّين رفضوا أن يسيروا معه في ذلك العالم المجهول، وألّف المقدونيّون مملكة صغيرة في هذا الركن من الهند. وفي سنة ٣٢١ ق.م. تمكّن الأمير "شاندراغوبتا CHANDRAGUPTA" ملك "باتنا PATNA"، الذي يتحدّر من الأسرة "الموريّة"، أن يجمع حوله قبائل عديدة بمنطقة التلال، وأن يستولي على المملكة الإغريقيّة بالبنجاب، ويزيل عن الهند آثار الحكم الإغريقيّ. وجاء بعده ابنه "تْشَنْدْرَ غُبتَ"، فبسط رقعة مملكته[2]. وفي أثناء ولايته، كان ابنه آسوكا أو آشوكا (٢٦٤ ـ ٢٣٧ ق.م.)، يطمع بالاستيلاء على العرش بعد أبيه، فقتل إخوته ما عدا واحدًا فقط هو "تِسّ"، الذي التحق بالرهبانيّة البوذيّة لاحقًا، وبلغ القداسة. وبذلك تسنّى له تحقيق حلمه بالمُلك. وقد حكم آسوكا بعد حوالى ٢١٨ سنة بعد رحيل بوذا، لمدّة

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨٣، نقلاً إستنادًا إلى: RYLANDS, *THE PEOPLES AND RELIGIONS OF INDIA*, P. 119.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٨٤.

٣٧ سنة[١]. ووجد آسوكا نفسه حاكمًا على الأقاليم الممتدّة من أفغانستان إلى مدارس، وسار في مطلع حياته سيرة أبيه وجدّه في محاولة التوسّع عن طريق الحرب. وكان آسوكا شرّيرًا فاقد الضمير والرحمة، ولم يكتف بقتله إخوته "وعددهم تسعة وعشرون، أو حرقه زوجاته وجواريه وكنّ خمسمائة[٢]، بل تسبّب بالعذابات لعائلات كثيرة نتيجة لحروبه الظالمة، لذلك عُرف بآسوكا الشرّير[٣].

وبينما كان في قمّة انتصاراته الحربيّة، أحسّ باشمئزاز من هول الحروب وقسوتها، فتخلّى عن الحرب، وكره النصر عن طريقها، وزهدت نفسه فيها تمامًا، وتبنّى مذهب البوذيّة، وصار حاكمًا مثاليًّا، وتغيّر لقبه إلى آسوكا الصالح. كما وُصف أيضًا بأنّه "حبيب الآلهة" و"السارّ للنظر"[٤].

بعد اعتناقه البوذيّة، أعلن آسوكا أنّ فتوحاته ستكون، منذ ذلك الحين، في ميادين الدين. وتروي الأساطير أنّ هذا التحوّل كان بسبب ما ناله من حيرة، وبسبب تأنيب ضميره لقتله إخوته بعد اعتناقه البوذيّة، فصار همّ آسوكا نشر هذا الدين بين الناس، وراح يحضّ المواطنين على نبذ العنف والعيش بسلام، مع ممارسة الفضائل البوذيّة كلّها. وحدّ من استهلاك اللحوم في قصره وفي البلاد، وألغى رياضة الصيد الملكيّ، وعامل خدمه كأبنائه، وحُفرت وصاياه على خمس وثلاثين صخرة في أرجاء البلاد لكي يقرأها الشعب ويعيش بمقتضاها، وعُرفت باسم "المراسيم الصخريّة"، وهي توصي باحترام الوالدَين، والعطف على كلّ الكائنات الحيّة، وقول الصدق، وتوطيد

---

١ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص١٩.

٢ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٨٤، عن: SEDILLOT RENÉ, *THE HISTORY OF THE WORLD*, P. 62.

٣ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص١٩.

٤ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٨٤؛ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص١٩.

العلاقات الجيّدة بين جميع الناس، والتسامح مع كلّ الأديان والمعتقدات... ورفع النصب التذكاريّة لبوذا في كثير من الأماكن. وطلب من موظّفي الدولة ممارسة أخلاق التقوى والفضيلة مع المواطنين[1]. وقام في الهند بحركة عظيمة للخير والثراء، فحفر الآبار، وزرع الأشجار، وأسّس المستشفيات للناس والحيوانات، والحدائق العامّة والبساتين التي تربّى فيها الأعشاب الطبيّة، واهتمّ بأهالي الهند الأصليّين، وبالمؤسّسات التعليميّة، واتّخذ العدّة لتعليم النساء، وخصّص هبات خيريّة هائلة لهيئات التعليم البوذيّة[2]. وأقام آسوكا المسلاّت في عدّة أماكن حيث دوّن عليها تعاليم البوذيّة، وأنذر مَن يميلون للعصيان، ووعد البررة بالهبات والخيرات. وتنازل عن ممتلكاته ولم يستبقِ إلاّ ثمانية أشياء ضئيلة هي أردية ثلاثة صفراء، ونطاق يشدّها به، وإبرة لترقيع الأردية، ومجموعة خيوط للترقيع، وموسى لحلق شعره، وغربال لتصفية الماء قبل شربه حتّى لا يبلع نفسًا. وندب آسوكا رجالاً يتجوّلون في البلاد، يرغّبون الناس في النسك والورع، ويعلّمونهم مكارم الأخلاق، وحثّهم على أن يكونوا قدوة للناس، ليسهل على الناس الاقتداء بهم، فيجاروهم في سيرتهم الرشيدة، وصبرهم على الشدائد، وعهد إليهم كذلك النظر في الأعمال الخيريّة وإدارة شؤونها ليزيد نفعها، وخوّلهم بعض السلطة فكان لهم إطلاق سراح المسجونين إذا اقتنعوا ببراءتهم، وكانوا يراقبون الناس ليتحقّقوا من أنّهم يلتزمون سبل السلام ويحترمون القوانين ويُراعون حقّ الفقراء والأكابر[3].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٥٨ ـ ٥٩.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨٤، عن: WELLS, *A SHORT HISTORY OF THE WORLD*, PP. 126 - 127.؛ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص ٢٠.

٣ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨٤، عن: الأنصاري محمّد عامر، آسوكا الأمبراطور الهنديّ العظيم، ص٨٢ ـ ٨٣.

لكلّ هذا اعتبر المؤرّخون أنّ حقبة حكم آسوكا كانت أزهى حقبة في تاريخ الهند خاصّة، وفي تاريخ البشريّة المضطّربة عامّة، لِما شهدت من المثاليّة والازدهار[1].

وجّه آسوكا كامل طاقته إلى نشر الناموس خارج الهند، فأرسل البعثات الدينيّة إلى بلاد فارس، وأفغانستان، والأمبراطوريّة اليونانيّة، وجبال هملايا، وكشمير، وسيلان ومصر، وسوريا، فحوّل بذلك البوذيّة إلى ديانة عالميّة[2].

ويُقال إنّه عقد مجمعًا ثالثًا في السنة السابعة عشرة لتتويجه، برئاسة أخيه "تسّ" لإعادة تنظيم الرهبانيّة، وأمر بالحجّ إلى الأماكن المقدّسة[3]. وقيل أيضًا إنّه في حوالي ٢٥٠ ق. م، أي في منتصف ولايته، انعقد مجلس الرهبان البوذيين في "بتنا PATNA" وكان، من أهدافه الأولى مناقشة الموضوعات الفلسفيّة التي انقسم حولها البوذيّون إلى ستافرياس STAVIRAS "و"سارفستفادا SARVASTVADINS"، وفي النهاية انحسم الموقف لصالح المدرسة الأولى. ويبدو أنّ "سارفستفادا" قد انتقلت منذ حوالي ذلك الوقت من العاصمة إلى الشمال الغربي في أعالي وادي الغنج، وأخيراً اتّخذت مركزًا لها مدينة "ماثورة"، وهي "مترا" الحديثة، جنوبي دلهي، على نهر "جيمنا JUMNA"، وامتدّت أمبراطوريّة "أسوكا" حتّى الحدود الشماليّة الغربية للبنجاب. ولمّا كان الرهبان البوذيّون أحرارًا في التنقّل في شتّى أنحاء المنطقة، فمن المرجّح أن تكون الجماعة قد وصلت، قرب نهاية عهد أسوكا، إلى حدود مملكته، حيث التقوا بإحدى الممالك الهلنستيّة في "غاندهارا GANDHARA"[4].

---

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٢٠.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٨٤، عن: WELLS, *A SHORT HISTORY OF THE WORLD*, PP. 126 - 127.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشؤوها وتطوّرها، ص٥٨ ـ ٥٩.

٤ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

لم يكن هذا الاحتكاك بالثقافة الهلنستيّة بغير أثر على البوذيّة، بل كانت إحدى نتائجه أن تطوّرت فنون العبادة وأشكالها، كما حدث لتمثال بوذا الذي يشير إليه الغربيّون عادة باسم "صورة بوذا"، في حين يسمّيه البوذيّون "بوذا ـ روبا[1] BDDHA RUPA" أي هيئة بوذا فحتّى هذه الحقبة لم تكن هناك تماثيل أو منحوتات لبوذا، ولكن يبدو أنّ استخدام صور بوذا قد بدأ منذ الاحتكاك بثقافة البحر الأبيض في شمال الهند. وبعض الأمثلة المبكّرة التي تبدو فيها شخصيّة بوذا واقفًا، تشبه شبهًا قويًّا شخصيّة "أبّوللو" اليونانيّ. غير أنّ هناك وجهة نظر أخرى تذهب إلى أن تطوّر هذا الشكل في الفنّ البوذيّ، لا يرجع إلى صلات ثقافيّة أجنبيّة، بقدر ما يرجع إلى تطوّر محلّيّ تمركز حول مدينة "ماثورا" . ولقد كانت الطريقة التي يعبّر بها عن محبّة بوذا حتّى ذلك العصر، طريقة رمزيّة، تستخدم أشكالاً حجريّة صلبة، أو ربوة عالية (ستوبا STUPA) تمثّل نصبًا تذكاريًّا يضمّ رفاتًا من نوع ما. وتمّ بناء الكثير من هذه الأشكال في شمال الهند في عهد الأمبراطور "أسوكا" تعبيرًا عن تقوى البوذيّ. ولا يزال بعض نماذج هذه الأشكال المعماريّة القديمة قائمًا في الهند[2].

كانت إحدى طرق انتشار البوذيّة في عهد أسوكا، هي التخطيط المنظّم لحركة التبشير. فقد أرسل عددًا من البعثات من مدينة "بتنا PATNA" وانتشرت في جميع المناطق التي تقع على حدود أمبراطورية أسوكا. ومن الصعب الآن أن نحدّد بيقين الأماكن التي ذهبت إليها البعثات المذكورة في الوثائق. ولكن هناك منطقة لا يمكن الشكّ فيها، فقد أرسلت بعثة من الرهبان إلى "سري لانكا" وسوف نعود إلى الحديث عنها في ما بعد. واستقرّت جماعات البوذيّة في جميع أنحاء الأمبراطوريّة التي أقامها

---

١ ـ كلمة تعني: الشكل والمادة معًا، وهي هنا تعني التمثال الذي يجسّد هيئة بوذا.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٤.

أسوكا وازداد عددها، ومن المرجّح أن تكون قد ازدادت من حيث الاتّساع، ومن حيث التوفير والإجلال الذي لقيته أيضًا. وبينما كانت "السنغا" مفتوحة باستمرار أمام الرجال والنساء على حدٍّ سواء ومن جميع طبقات المجتمع، كانت هناك إضافات ملحوظة إلى "السنغا" من طبقات البراهمة، فيبدو أنّها لم تبلغ من الكثرة العدديّة مثل ما بلغته في عصر "أسوكا" وما بعده. ولقد ساهم ذلك في ظهور اتّجاه جديد في الفكر والممارسة البوذيّين سُمّي في النهاية بـ"المهايانا MAHAYANA"[1].

بُوذيَّة

المَهَايَانَا

"المهايانا" تعني "المنهج الكبير" وهو الطريق الذي يحقّق هدف البوذيّة، ولقد تبنّى الإسم أتباع هذه المدرسة وهم على وعي بالفرق بينها وبين ما سُمّي باسم "المنهج الصغير" أو المينايانا MINAYANA، والفرق بين هاتَين المدرستَين هو أنّ المهايانا كانت أكثر وعيًا بالشموليّة، بمعنى أنّها تقدّم نفسها لقطاع أوسع من المجتمع. أمّا الصورة الأقدم والأكثر تقليديّة للحياة البوذيّة، فقد تضمّنت فروقًا أكثر بين الرهبان وعامّة الناس عندما أكّدت على أهميّة حياة الأديرة ودعت إلى المراعاة الدقيقة لشريعة "الفينايا VINAYA"، كما ذهبت إلى أنّ المرء لا يستطيع أن يبلغ هدف البوذية، وهو "النرفانا NIRVANA" إلا إذا عاش حياة الأديرة، أما أتباع "المهايانا" فقد رأوا في ذلك نظرة ضيّقة لا ضرورة لها، ورغم أنّهم لم ينكروا صحّتها أو مشروعيّتها، فقد اعتقدوا أنّها صارمة بغير داع. وكان هناك جانب نقديّ آخر وجّهته مدرسة "المهايانا" إلى مدرسة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

"الميناييانا"، وهو أنّ تأكيد المدرسة الأخيرة يشجّع على الغرور الروحيّ، وهو غرور يقوم في رأيهم على أساس سيّء.

كان التوجّه الشعبيّ للمهايانا، إلى حدّ ما، استمرارًا لأحد الجناحَين الكبيرَين اللذَين ظهرا بعد وفاة بوذا بحوالى قرن من الزمن، وهو الجناح الذي أخذ بتفسير أقلّ حرفيّة وصرامة لنظام الأديرة. وهناك وشائج قربى بين هذه الحركة التحرّريّة المبكّرة في القرن الرابع الميلاديّ وبين المهايانا، أي بعد وفاة بوذا بحوالي خمسة قرون[1].

قُيّض للمهايانا أن تستقطب عددًا أكبر من الأتباع. والحقّ أنّ الفضل يعود إليها في انتشار البوذيّة على أوسع نطاق خارج الهند، ولا سيّما في الصين واليابان. والواقع أنّ جماعة الميناييانا أطلقت على نفسها اسم "ثيرافادا"، وأنّ جماعة المهايانا سمّتها "الوسيلة الصغرى" استخفافًا. وقد ظهرت المهايانا في البنجاب، حيث تبنّى الملك "كانيشكا" البوذيّة في القرن الأوّل قبل الميلاد بعد استفساره عن بقيّة الأديان السائدة، ومنها الزرادشتيّة. وإليه تعود الموافقة على فنّ النحت والعمارة الذي أبدعه الإغريق هناك، وكان ذا أثر في العالم البوذيّ كلّه. كما يعود إليه التطوّر الذي أدّى إلى نشوء المهايانا وإلى نشر البوذيّة على أوسع نطاق. وهذا يعني أنّ أثر كانيشكا فاق أثر آسوكا[2].

مع المهايانا تحوّلت النزعة الانعزاليّة السلبيّة في البوذيّة الأولى إلى نزعة إيجابيّة تفاؤليّة. والخطوة الأولى في هذا الاتّجاه كانت تأليه بوذا. فقد اعتُبر غوتاما كائنًا إلهيًّا جاء إلى الأرض للعطف على الإنسانيّة المعذّبة عبر توجيه الناس إلى طريق الخلاص. وفي أحد الكتب المقدّسة: "الجاكاتا"، رواية كاملة تخبر كيف عاش بوذا، خلال حيوات كثيرة، مجسّدًا كلّ الكمالات، حتّى وصل أخيرًا إلى أعلى سماء. ومن هناك نزل إلى

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٥.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٠ ـ ٦١.

الأرض متّخذاً شكل فيل أبيض، ودخل رحم أمّه وهي نائمة في قصر في الهملايا، كما سبق القول، وقد بشّرها الملائكة بما سيحصل، وأحاطوا بها عندما ولدت ابنها في كهف مقدّس. وفي حيواته السابقة كان بوذا في مرحلة التكوّن، أي "بوديساتفا" BODHISATTVA وهذه عبارة اكتسبت أهميّة بالغة في تاريخ المهايانا. فقد كانت الخطوة الثانية نحو النزعة التفاؤليّة اكتشاف عدد كبير من الكائنات التي تنتمي إلى رتبتَي "بوذا" و"بوديساتفا". هذا يعني أنّ "غوتاما" لم يكن بوذا الوحيد، بل سبقه كثيرون مثله، نزل بعضهم إلى الأرض وبقي بعضهم في السماء في طور التكوّن والاستعداد. هكذا صار للخيال الدينيّ كائنات كثيرة يعتمد عليها. وعادت الصلاة للظهور بين المؤمنين، إذ غدت مستجابة، وظهرت الفنون الدينيّة من رسم على الجدران، ونحت، لتعين على التأمّل والعبادة. ولم يبقَ الخلاص في نطاق الجهد الفرديّ، بل غدا عملاً ممكناً بواسطة المساعدة الخارجيّة، فهناك كائنات كثيرة تعين المؤمنين على تحقيق ما يبتغون[١].

تجدر الإشارة إلى أنّ المتنوّرين الكامنين، أي "البوديساتفا"، هم في المهايانا، أهمّ من المتنوّرين الفعليّين. وفي حين أنّ عدد البوديساتفا في الهينايانا اثنان، هما غوتاما قبل تنوّره، و"ماتريا" أي "بوذا المنتظَر"، فهم كثيرون جدًّا في المهايانا. هؤلاء يسمعون صلوات الناس ويهبّون إلى الاستجابة. وهم يؤدّون أعمالهم إمّا في السماء ناظرين من عروشهم إلى المحتاجين، وإمّا بالنزول إلى الأرض في هيئة ملائكة. ومن هؤلاء "مانجوسري" الذي نجده في الرسوم حاملاً سيفًا يمثّل المنطق وكتابًا يمثّل الحقيقة البوذيّة أو القانون. ومنهم "أفالوكيتا" الذي يجسّد الرحمة الإلهيّة الشاملة وينظر إلى كلّ مَن يسكن العالم ليساعده. وتمثّله الرسوم في لباس أمير حاملاً في يده اليسرى زهرة لوتس حمراء ومادًّا اليد اليمنى دلالةً على العطف. وفي المهايانا نوع ثالث من

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦١.

المتنوّرين، يختلف عن الثاني في كون أفراده حقّقوا كمال التنوّر، ولكن ليس على هذه الأرض وليس في هيئة بشر. هؤلاء يرتعون في السماء ويُرجئون دخول النرفانا لكي يسمعوا صلوات الناس ويلبّوا حاجاتهم، مطيلين بقاءهم ما أمكن على هذه الحال. ويشكّل هؤلاء طبقة المتأمّلين. وقيمتهم اللاهوتيّة آتية من أنّهم حلّوا مشكلة انفصال البوذا عن البشر بعد فنائه. ومن هؤلاء "فيروكانا VAIROCANA" الذي ينتمي إلى الشمس، وهو ذو أهميّة قصوى في جاوا واليابان. ومنهم "أميتابا" الذي يُدعى باسمه في آسيا كلّها. وهناك نصّ مقدّس معروف على نطاق واسع في الصين واليابان، يذهب إلى أنّ الإيمان في هذا الإله يكفي، من غير أيّ عمل، للحصول على الخلاص. وهو يحضر فوق رؤوس المؤمنين به عند ساعة موتهم كي يموتوا براحة ويولدوا بعد ذلك في الفردوس، أي الأرض الطاهرة التي يحكمها "أميتابا"[1].

هكذا نجد أنّ البوذيّة الأولى تبدّلت كثيرًا. فبعدما كان الخلاص، في رأي غوتاما، عمل الفرد لنفسه، وكانت الصلاة غير مجدية، وجدت المهايانا الخلاص في قوى إلهيّة خارج الإنسان وجعلت من الصلاة قلب الحياة الدينيّة. فالمؤمن يصلّي لكي ينال ما يحتاج إليه ويعيش حياة طويلة ليخدم إخوانه في الإنسانيّة أطول وقت ممكن. أمّا في القديم فكان ينشد الفناء. وهذا يعني أنّ تطوّر البوذيّة أكسبها عنصر التفاؤل. لكنّ الهينايانا حافظت على النظرة الفرديّة المنغلقة. وقد ظهرت في الهند كتابات كثيرة باللغة السنسكريتيّة على أيدي جماعة المهايانا خلال القرون الخمسة الأولى بعد الميلاد. ومن أوّل ما ظهر كتابان حول حياة بوذا، مليئان بأخبار المعجزات التي اجترحها. ثمّ جاء أحبّ كتب المهايانا "لوتُس القانون الصالح" وهو مجموعة مواعظ وأحاديث للبوذا. كما ظهر كتاب يصف أرض أميتابا الطاهرة وطريقة الوصول إليها. وفي كتاب لاحق

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦١ ـ ٦٢.

يحوي أحاديث في الحكمة الأزليّة، نقع على تشبيه جميل حول قطع النهر: فهناك الضفّة التي ننطلق منها، وهي في هذا العالم الظاهر، والضفّة التي نصل إليها، وهي النرفانا، والزورق الذي به نعبر وهو العقيدة البوذيّة القويمة. فالإنسان ينطلق من ضفّة هذا العالم الذي يعرفه بحواسه منذ الطفولة، من غير أن يعرف كيف ستكون الضفّة المقابلة. ويبحر به الزورق الذي يقوده لبوذا. وكلّما دنا من الضفّة الأخرى، وجد أنّ الضفّة التي تركها وهميّة أكثر منها حقيقيّة. وعندما يصل يترك وراءه الزورق الذي يغيب معناه ومعنى بوذا نفسه عند تحقيق الانعتاق التام. وهذا يعني أنّ قيمة بوذا وقيمة العقيدة والإيمان هي بلوغ النرفانا، وأنّ قيمة الوسائل التي استخدمها المرء تزول بعد وصوله. وفي المهايانا أنّ لكلّ فرد طبيعة البوذا، وفي إمكانه أن يصير هو بوذا ويتخلّص من لعنة العودة إلى الحياة. وهذه الفكرة منحت الناس التفاؤل[1].

كانت إحدى الخصائص الرئيسيّة للبوذيّة أنّها الأساس الشعبيّ الواسع الذي قامت عليه، بالإضافة إلى موقفها الأكثر تحررًا من القواعد والممارسات الدينيّة، ومعنى هذا أنّ الأشكال الشعبيّة للإيمان والعبادة وجدت قبولاً سريعًا. ولقد تبنّت البوذيّة، باستمرار، موقفًا متسامحًا من المعتقدات الأصليّة في البلاد التي دخلتها، ومن ممارسات الناس الذين انتشرت بينهم، وسارت على هذا النحو في المجتمعات الريفيّة في آسيا، وكان هذا الاتّجاه، على أيّ حال، أكثر ظهورًا بين أتباع المهايانا، وقد نتج عن ذلك قدر لا بأس به من العبادات المحليّة واستيعاب الآلهة المحليّة للبوذيّة التقليديّة الصارمة. أمّا كيف حدث ذلك، فهو ما لا يمكن تفسيره إلاّ بالإشارة إلى تطوّر آخر، طرأ على "المهايانا"، وهو مفهوم "البوديساتفا". يقال إنّ "البوديساتفا" هو كلّ شخص يكون على أعتاب "النرفانا"، ثم يؤجّل عامدًا الدخول في حالة الغبطة النهائيّة: "النرفانا"، شفقة منه

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٢ ـ ٦٣.

على جماهير الناس العاديّين. وبدلاً من أن يتحوّل إلى "بوذا" كامل، فإنه يظلّ مقيمًا في العالم الزمني الموقّت، مكرّسًا نفسه لخلاص الآخرين. هذا التأكيد على أهمّيّة "الشفقة" التي يمثّلها مفهوم "البوديساتفا"، لم يكن أمرًا جديدًا كلّ الجدّة. فقد اعتُبرت الرحمة بالآخرين فضيلة عند البوذيّة المبكّرة، لكنّها كانت تحتلّ فيها مكانًا تابعًا للحكمة، ثمّ احتلّت، مع تطوّر المهايانا، موضعًا مماثلاً للحكمة، بوصفها فضيلة أساسيّة للمثل الأعلى الروحيّ الذي تمثّله "البوديساتفا". لكن هذا التطوّر لم يكن سوى استعادة لما كان عليه المثل الأعلى الروحيّ المبكّر، أو ما يسمّى بالـ"أراهات ARAHAT" أي "أهل الفضل والاستحقاق"، أي الأشخاص الذين جاوزوا حدود فكرة "الذات"، وأصبحوا، لهذا السبب، مصدرًا للتأثير الروحيّ الأخلاقيّ الخيّر. غير أنّ المثل الأعلى للـ"أراهات" قد فسد خلال القرون التي سبقت نشأة المهايانا مباشرة؛ ولهذا احتاجت إلى اكتساب هذه الصورة الجديدة. هكذا نُظر أيضًا إلى البوديساتفا بوصفه شخصًا تحرّر من الخضوع للحدود البدنيّة للحياة البشريّة، وأصبح يسكن عالمًا "سماويًا" ومجالاً روحيًّا أوجده بفضل قداسته، وقد اعتقد الناس أنّ هذا الشخص يستطيع أن يُدخل الآخرين في هذا العالم المبارك، عن طريق قواه الروحيّة. ولم يكن هناك، من الناحية النظريّة، حدّ ضروريّ للأعداد الممكنة من البوديساتفا، ولذلك نشأ الإيمان بعدد من هؤلاء الأشخاص الذين يُعرف كلّ واحد منهم بإسمه، إن كان ذكرًا، أو بإسمها إن كانت أنثى، وقد عرفت أسماء بعض هذه الشخصيّات المرموقة مثل "أفالوكيتشوارا AVALOKITESHWARA" أي ذلك الذي يتواضع ويرحم، و"أميتبها AMITABHA" أي النور الذي لا حدّ له، و"مانجوشري MANJUSHRI" أي "السيّد الجميل"... وكلّ واحد من هؤلاء الأشخاص أصبح في تلك الأيّام عند عامّة الشعب، في الهند، الشخصيّة الرئيسيّة في عبادة كانت، من ناحية "الظاهر"، قريبة الشبه جدًّا بعبادة إله واحد. ومن هذه الزاوية

تمثّل بوذيّة المهايانا انتقالاً من عبادة آلهة الهند المحليّة إلى العقيدة البوذيّة وتطبيقاتها العمليّة[1].

وفي الوقت الذي كانت فيه المهايانا تتطوّر لتصبح إغراءً واسعًا لعامّة الشعب في الهند، كان رهبانها يطوّرون فلسفة دينيّة على درجة عالية من التجريد. وانعكس ازدياد أعداد الرجال من أسر البراهمة، أي الكهنة، الذين دخلوا جماعة "السنغا" البوذيّة، على الدرجة المتزايدة من النقد العقليّ البرهميّ الذي تعرّض له نظام "الـ"أبهى داهما" القديم. فقد كان البراهمة أساتذة المنطق الهنديّ القديم، ولهذا نقدوا نظريّات الـ"أبهى داهما" ومدارس المهايانا على أسس منطقيّة. أمّا منهج "الـ"أبهى داهما" الذي يقوم بتحليل ما يبدو أنّه كائنات موضوعيّة حقيقيّة إلى مكوّناتها العارضة، فقد تبلور في النمط النهائيّ لـ"الداهما" التي كان يُظن أنّها هي "الذرّات" النهائيّة والواقعيّة التي تتألّف منها جميع الأحداث الذهنيّة والنفسيّة والبدنيّة، كما كان يُعتقد أنّ عددها معيّن محدود، وإن كان العدد الدقيق يختلف من مدرسة إلى أخرى.

إنتقد فلاسفة "المهايانا" هذه النظريّة في الوجود بحجّة أنّها تتعارض مع المنهج التحليليّ، وذهبوا إلى أنّ الهدف من هذا المنهج هو أن يبيّن أنّه لا توجد كيانات حقيقيّة مطلقة، طالما كان الأمر يتعلّق بالعالم التجريبيّ؛ فمن غير المنطقيّ النظر إلى الروح البشريّة على أنّها واقعيّة. ذلك أنّ كلّ شيء في تدفّق مستمرّ، وقد كان منهج بوذا يستهدف بيان ذلك، ولم يقل بوجود أيّ "محطّة" نهائيّة ساكنة داخل العالم التجريبيّ، حتّى ولا في ما يُسمّى "بالدهما"؛ ولهذا اتّبعوا المنهج التحليليّ بصراحة تامّة مؤكّدين على أنّ "الداهما" التي قال بها رهبان الهينايانا HINAYANA لم تكن سوى محطّات تعسّفية خالصة.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

لا يمكن، من الناحيـة المنطقيّـة، أن يكـون هنـاك حـدّ لعمليّـة التحليـل والمزيـد مـن التحليل، فلا يوجد شيء يمكن أن تُنسـب إليـه صفـات دائمـة، ولا يمكـن الوصـول إلـى "الواقع الحقيقي" إلاّ بعد استبعاد كلّ صفة إيجابيّة، لأنّ أيّ صفة أو خاصيّة تحمل معهـا قدرًا من النسبيّة، ومن ثمّ لا يمكن النظر إليهـا علـى أنّها مطلقـة. والحـقّ أنّ مـا كـانوا يسعون إليه هو شيء مطلق، وقد وصفوا هدف التحليل البوذيّ بأنّه هو ما نصـل إليـه عندما تفرغ كلّ صفة إيجابيّة وتصبح "خـواء". والمصطلـح الـذي يسـتخدمونه للإشـارة إلى المطلق هو "SHUNYATA" الذي يُترجم أحيانًا بكلمة "الخـواء". وقـد أُطلـق علـى فكـر مدرسة المهايانا كلمة "مدهياميكا MADHYAMIKA" التي يمكن ترجمتها على وجه التقريب "بمذهب الحياد". كما تُعرف أحيانًا أخرى باسم "شونيا ــ فـادا SHNYA VADA" أي "أهـل الحلّ الوسط". وأكبر دعاة هذه المدرسة كان راهبًا بوذيًّا من أسرة براهميّة فـي جنـوب الهند اسمه "نكارجونا NAGARJUNA" وتلميذه "أرياديفا ARYADEVA"، وكـان نشـاطهما فـي أوائل القرن الثالث الميلاديّ.

إذا كان هذا النوع من الموضوعات يبدو بعيدًا جدًّا عن الممارسات العمليّـة للديـن، فيجب أن نتذكّر أنّ أمثال هـذه الرياضـة العقليّـة، لـم تكـن تمـارَس إلاّ فـي سياق حيـاة العبادة التأمّليّة داخل الأديرة. لكن حتّى في هذه الحالة، كانت هناك درجة معيّنة من ردّ الفعل في الدوائر البوذيّة ضدّ الإسراف في البراهين العقليّة. ولقد اتّضح ذلك في شـكل واحـد انبثقـت عنـه مدرسـة تُعـرف باسـم "يوغاكـارا YOGACARA"، أي مدرسـة اليوغـل الهمليّة، نشأت في الهند حوالي نهاية القرن الرابع الميلاديّ. وكان دعاتها، من الناحيـة الفكريّـة، همـا "أسـانغا ASANGA" (٣١٠ ـــ ٣٩٠م) وشـقيقه "فاسـوباندا VASUBANDHA" (٣٢٠ ــ م.٤٠٠). وتمثّـل اليوغاكـارا YOGACARA تحـوّلاً عــن التشـدّد السـائد داخـل المهايانـا، وعـودة إلـى الجوانـب الأخلاقيّـة والتأمليّـة فـي الديـن. وفـي مقـابل إصــرار

"المادهيمكا MADHYAMIKA" على "الخواء" بوصفه الشيء الوحيد المطلق، تؤكّد مدرسة "يوغاكارا" على حقيقة الوعي الخالص "فيجنانا VIJNANA"، وأصبح هدف الحياة البوذيّة هو تقنية الوعي وتطهيره عن طريق التأمّل والجهد الأخلاقيّ، وبالتالي بلوغ الخالص الذي هو الشيء الحقيقيّ والمطلق[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٦ ـ ٢٧٩.

إنتشار البُوذيَّة في الشَّرق

تطوّر البُوذيَة وانتشارها؛

تَراجُع البُوذيَة في الهِند؛ البُوذيَة في سْري لانكَا؛

في الصّين واليَابان وكُوريَا؛ البُوذيَّة في بُورمَا؛

البوذيَة في تايلند؛ في كمبُوديا وفي لاوُس؛ في فيتنام؛ في أندونيسيَا .

تطوّر البُوذيَّة وانتِشارُها

كانت البوذيّة، في بداياتها، نظامًا أخلاقيًّا واتّجاهًا تربويًّا، لكنّها أخذت تتطوّر من قرن إلى قرن، فدخلتها مسائل عن الإلهيّات والكون، وكان بوذا قد نهى عنها وحذّر مريديه منها، ولكنّهم، بعده، بحثوا فيها وأدرجوها في التعليم نفسه، فأصبحت البوذيّة مذهبًا فكريًّا ومباحث عقليّة، وبعُدت البوذيّة الجديدة بذلك عن البوذيّة القديمة، التي كانت تزكية وتربية، فأصبحت البوذيّة الحديثة فكرًا وفلسفة. وقد قسّمها العلماء حسب الطابع العام، إلى البوذيّة القديمة والبوذيّة الجديدة[١].

فصبغة البوذيّة القديمة أخلاقيّة، وميزتها سذاجة المنطق وإثارة العواطف، وطابعها الحضّ على الخضوع لقوانين النظام، فكانت تعمل بموجب ما دعا إليه بوذا نفسه، واتّبعها مريدوه وأتباعه الملازمون له. أمّا البوذيّة الجديدة فهي عبارة عن تعاليم بوذا المختلطة بآراء دقيقة في الكون، وأفكار مجرّدة عن الحياة والنجاة، مؤسَّسة على نظريّات فلسفيّة، وقياسات عقليّة، قد سمحت بها قرائح المتأخّرين من الشراح والزعماء، والغالب عليها صبغة الفلسفة[٢].

وقد ارتبط التغيّر الفلسفيّ البوذيّ بانتشار البوذيّة ودخولها أقطارًا كثيرة، فإنّ أتباعها هنا وهناك أكثروا فيها القياس والتأويل حسب عقولهم وثقافاتهم، حتّى بعُدت

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨١.

٢ ـ الرامبوري محمّد عبد السلام، فلسفة الهند القديمة، مجلّة ثقافة الهند، كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٥٣، ص٩٥.

عن أصلها الساذج البسيط. ومن شأن استعراض اتّجاه الفرق الفلسفيّة الجديدة للبوذيّة، تبيان أنّ أكثرها اتّخذ الاعتراف بالإله أساسًا لفلسفته.

فمن الفرق البوذيّة فرقة تقول بوحدانيّة اللّه، وأنّه أوجد أوّلاً عددًا محدودًا من الأرواح، ثمّ ترك الإنشاء والتعمير مكتفيًا بما وضعه في العالم من قوانين وقوى، كالبذور تسير سيرها الطبيعيّ بلا نهاية، وهذه الأرواح هي التي تخلق الخير والشرّ.

وفرقة تقول إنّه أودع هذه الأرواح التي أرسلها للعالم قوى تستطيع منها أن تعرف الخير من الشرّ، ومن أجل ذلك لا يرسل اللّه رسلاً اكتفاءً بذلك.

وفرقة ترى أنّ اللّه يفرِغ الكمالات الإنسانيّة في كلّ زمن على إنسان يتجرّد لعبادته، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانيّة، وهذا الإنسان المختار يحلّ محلّ الإله في إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم، تبعًا لِما يأتونه من الأعمال، ويعرفه الناس ويلتفّون حوله.

وتبالغ فرقة أخرى في تصوير المعنى السابق فتقول إنّ اللّه يحلّ في أيّة صورة يختارها من صور أفراد الإنسان حلول تطهير وتكميل، لا حلول استقرار.

وتتكلّم كلّ الفرق عن التناسخ واتّصاله بالكرما، ولكنّ بعض الفرق يرى تناسخ النوع الإنسانيّ مقصورًا عليه، وتناسخ الحيوان مقصورًا عليه، فلا تنتقل روح من إنسان إلى حيوان، ولا العكس؛ وتزيد فرقة أخرى في تضييق دائرة التناسخ، فترى أنّ روح العالِم تنتقل إلى صانع، وهكذا[1].

إنّ التاريخ الإجماليّ للبوذيّة يقرّر أنّ هذه الديانة واصلت سيرها طوال خمسة وعشرين قرنًا، وفي خلال هذه الحقبة الطويلة، تطوّرت البوذيّة سواء من ناحية

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨١ ـ ١٨٢، عن: فاضل محمّد، الحراب في صدر البهاء والباب، دراسة موجزة، ص١٠٣.

العقيدة، أو التطبيق، أو الأدب، أو المؤسّسات المرتبطة بها كالمعابد والمعاهد، وقد اقتحمت البوذيّة حوالى ثلاثين قطرًا في آسيا، وكان تأثيرها عظيمًا في آداب هذه الأقطار وفي اتّجاهاتهم الدينيّة. ومنذ القرن التاسع عشر اتّصل الفكر البوذيّ ببعض دول أوروبّا فأصبح للفكر البوذيّ أثره في الفلسفة الغربيّة والأدب الأوروبّيّ والموسيقى وغيرها من الفنون الثقافيّة.

ذلك مجمل القول حول تمدّد البوذيّة وانتشارها، ولكنّ إعطاء تفاصيل عن هذا الانتشار يكاد يكون أمرًا متعذّرًا لقلّة المادّة الدقيقة عنه، بيد أنّه من الممكن على كلّ حال، لو قسّمنا عمر البوذيّة إلى خمس مراحل، كلّ مرحلة خمسة قرون، أن نعطي أبرز التطوّرات عن البوذيّة في كلّ من هذه المراحل[1].

ففي المرحلة الأولى، من مطلع البوذيّة حتّى القرن الأوّل الميلاديّ، شهدت العقيدة البوذيّة تحوّلاً كبيرًا في ما يتّصل ببوذا، فقد كان في أوّل هذه المرحلة، يُعدّ معلّمًا ورجلاً عظيمًا ورائدًا عالميًّا. ثمّ أصبح بمرور الزمن رجلاً مقدّسًا فمعبودًا فإلهًا. ولم يكن ذلك التطوّر الواسع باتّفاق الجميع، لذلك عُقدت عدّة مؤتمرات، لكنّها لم تستطع أن تقنع الجماهير بترك مكان الإله شاغرًا كما أراده بوذا أن يكون، فظلّ الخلاف قائمًا. وفي خلال هذه المرحلة ظهر الأمبراطور آسوكا الذي دفع بالبوذيّة إلى خارج حدود الهند، وبدأت البوذيّة تبني المعابد وتضع فيها الآلهة، كما بدأت تقيم الجمعيّات التي ترعى الحياة الاجتماعيّة وتشرف على شؤون الدين وخاصّة في الهند وسيلان.

وفي المرحلة الثانية، من القرن الأوّل حتّى القرن الخامس ميلاديّ، أخذت البوذيّة تنتشر تجاه الشرق إلى البنغال، وتجاه الجنوب الشرقيّ إلى كمبوديا وفييتنام، وتجاه

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، مرجع سابق، ص ١٨٨.

الشمال الغربيّ إلى كشمير. وفي القرن الثالث اتّخذت طريقها تجاه الشرق إلى الصين وأواسط آسيا، وكان دخولها إلى الصين بطريق البحر أيضًا، ومن الصين اتّجهت إلى الشمال الشرقيّ فدخلت كوريا، وكان لنشاط الحجّاج الصينيّين الذين زاروا الهند وسيلان وجاوَه بين سنة ٣٩٩ وسنة ٤١٤م، أثر كبير في نشر البوذيّة في هذه البقاع. حيث كانت البوذيّة تتعاون مع النظام الملكيّ الذي كان مسيطرًا خلال هذه الحقبة في هذه الأقطار. وبواسطة هذا الارتباط بين الدين والسياسة انتشرت البوذيّة وكثر تابعوها، وشهدت هذه المدّة تقدّمًا واضحًا في الثقافة البوذيّة التي أخذت تقيم المعاهد وتنشر تراثها على أتباعها. ومن القرن السادس إلى القرن العاشر، استمرّت البوذيّة في التقدّم والانتشار، وبخاصّة في كوريا والصين إلى اليابان، ومن الهند إلى نيبال، ثمّ إلى التيبت. وزادت مواكب الحجّاج في هذه المرحلة، وكثر نشاطهم وتنقّلهم إلى البلاد التي دخلتها البوذيّة. ويُلاحَظ، في هذه المرحلة، أنّ الارتباط بين القصور الملكيّة الحاكمة والبوذيّة لم يكن وطيدًا دائمًا، وكان انتشار البوذيّة أو تقلّصها يتوقّف على قوّة الارتباط وضعفه. وتُعدّ هذه الحقبة من أزهى حقب البوذيّة من الناحية الفلسفيّة. فقد اتّضح تأثير البوذيّة على الآداب والفنون في جميع البلدان التي دخلتها. ثمّ في ما بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر، ضعفت البوذيّة واختفى كثير من آثارها بسبب عودة النشاط الهندوسيّ في الهند، وبسبب ظهور الإسلام في الهند وفي سواها من الأقطار التي كانت تتربّع فيها البوذيّة. فما كان من البوذيّة إلاّ أن اتّجهت بنشاطها، في هذه المرحلة، تجاه لاوس ومنغوليا وسيام وبورما. وكان النشاط الثقافيّ البوذيّ عظيم الأثر خلال هذه المرحلة في بورما وكمبوديا وسيلان واليابان. وفي ما بين القرن السادس عشر والقرن العشرين، شهدت البوذيّة أدقّ مراحلها، إذ وقفت وجهًا لوجه أمام تحدّي الفكر الغربيّ الذي أدخله الاستعمار إلى البقاع التي كانت ناشطة فيها، حاملاً معه

اتّجاهاته الفكريّة وإصلاحاته التربويّة وفلسفاته في مختلف الشؤون. ولم تجد البوذيّة بدًّا من أن تتعاون طوائفها المختلفة لتقف في وجه هذا الزحف الفكريّ. وهكذا التقت الفرق البوذيّة أو قربت بعضها من بعض، لتقوى على النضال في معركتها مع المسيحيّة الغربيّة والفلسفات الأوروبيّة. وقد تبنّت البوذيّة كثيرًا من الاتّجاهات الغربيّة، كما تشرّبت المسيحيّة بعض الأفكار البوذيّة، وتبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتَين الفلسفتَين، وتطوّر التعليم في المعابد فاقترب من كليّات الغرب وجامعاته، وتمّ تعاون في الخدمات الاجتماعيّة بين البوذيّين والغربيّين[1].

تَرَاجُع البُوذيَّة

في الهِنـــــد

في خلال القرن الثَّاني للميلاد، كانت "اليوجاكارا" تمكّن لنفسها في الهند، ممّا ساعد على تطوّر العديد من عبادات التأمّل وممارسات اليوغا التي استخدمت فيها، على نطاق واسع، الرسوم البيانيّة السريّة أو "المندال MANDALAS" والأشكال المقدّسة، و"المانترا MANTRA"، ومعينات أخرى مختلفة، للمساعدة على تهيئة حالات الغيبوبَة. ولقد استمدّت كثرة من هذه الممارسات من الديانة الشعبيّة التقليديّة في الهند، ثمّ اندمجت، مع بعض التعديل أو بغير تعديل، في سياق البوذيّة من الناحية الإسميّة. وهكذا تطوّرت صورة البوذيّة المعروفة باسم "مانترا MANTRA" أو "مانترا ـ يانا"، التي تميّزت بها حقبة العصور الوسطى في الهند، والتي سبقت الاختفاء الفعليّ للديانة البوذيّة من معظم شبه القارّة. ولقد لعب الميل إلى حياة الأديرة دورًا في تدهور الطقوس من ناحية، والإيمان البوذيّ من ناحية أخرى بين عامّة الشعب، إذ صاحب

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨٨ ـ ١٩٠.

زيادة عدد مراكز الأديرة الكبرى، حيث كان يتمّ تدريس التعليم الدنيويّ والفلسفيّ، تناقص مماثل في عدد الأديرة المحلّيّة الصغيرة، أو "الأبرشيّات" التي ظلّت البوذيّة، حتّى ذلك الحين، تخدمها كنقاط تجمّع مركزيّة لأهل الريف والمدن الصغيرة. أما الحجّاج البوذيّون الصينيّون، فأخذوا يفدون على الهند "أرض بوذا" المقدّسة، والحكايات التي يرويها بعضهم عن رحلاتهم تقدّم شهادة قيّمة عن حالة البوذيّة في الهند من القرن الخامس حتّى القرن السابع ميلاديّ. وهناك مجموعة من أشهر حجّاج الصين الذين جاؤوا إلى الهند سعيًا وراء النصوص المقدّسة ومعرفة طقوص البوذيّة ونظُم الأديرة، من أمثال "فا ـ هسين FA - HSIEN"، الذي بقي في الهند من ٣٩٩ حتّى ٤١٤ م، و"هو سانغ ـ تسانغ HSUENG TSANG" الذي استغرقت رحلته منذ سفره من الصين حتّى عودته من عام ٦٢٩ حتى عام ٦٤٥ ، و"أي ـ تسنغ I - TSING" الذي بقي في الهند من ٦٧١ حتّى ٦٩٥. وقد تدهورت البوذيّة في ما بين زيارة "فا ـ هسين" وهو "سانغ تسانغ"، تدهورًا واضحًا، فأصبحت الأديرة التي وجدها أول هؤلاء الحجّاج الصينيّين، مهدّمة ومهجورة على أيّام آخرهم، كما أنّ "هو سانغ ـ تسانغ" وجد "لومبيني LUMBINI" قرب مدينة "كابيلا فستو"، مسقط رأس بوذا، على هذا النحو من الإهمال. وتلك واقعة لها أهميّتها الخاصّة من زاوية التوقير والإجلال الذي تضفيه البوذيّة المبكّرة على الأماكن المقدّسة الأربعة وهي: "لومبيني" مسقط رأس بوذا، و"بوذا ـ غايا" وهو المكان الذي شهد الصحوة، ثم "سارنات SARANAT" المكان الذي ألقى فيه بوذا موعظته الأولى عن "الداهما"، وأخيرًا "كوشنغافا KUSHINGAVA" المكان الذي توفّي فيه بوذا. وهكذا يوحي إهمال "لومبيني" في القرن السابع الميلاديّ، ليس بتدهور الأديرة المحليّة فحسب، بل يدلّ كذلك على فقدان الإهتمام بالأماكن المحليّة التي ارتبطت بشخصيّة بوذا التاريخيّة. وربّما حدث ذلك نتيجة لتشديد الاهتمام بفكرة "البوهستافا" الموجودة الآن.

في هذه الأثناء، نشطت من حيث الحجم والمكانة الاجتماعيّة، مجموعة من مراكز الأديرة الكبيرة التي ازدهرت فيها في البداية فلسفة "المهايانا"، ثمّ ازدهر الفكر النظريّ التنتري TANTRIC بعد ذلك. وكانت المراكز البارزة موجودة في "نالاندا NALANDA" في إقليم بيهار وفكراماسيلا VIKRAMASILA غرب البنجاب، ولم تكن هذه المراكز مجرّد أديرة للرهبان كغيرها، بل كانت جامعات دينيّة بمعنى الكلمة، فقد احتوت على معابد وكليّات متعدّدة ذات تأثير بالغ، وكانت المناقشات الحامية تدور بين هذَين المركزَين الكبيرَين حول الطريقة التنتريّة. وازدهر كذلك مركزا "أمارافاتي AMARAVATI" و"نكارجونا كوندا NGARJUNAKONDA" في جنوب الهند في منطقة "أندرا برادش". ووصف باحثون هذا التحوّل في مركز الجاذبيّة من أديرة محليّة صغيرة إلى مؤسّسات ضخمة تشبه الجامعات، بأنّه حركة انتقال من "دراسة العقيدة" إلى "دراسة المعرفة".

وفي خلال هذه الحقبة انتشرت البوذيّة في التيبت، وكان مؤسّسها الفعليّ، في ذلك القرن "باندا ـ سامبهافا PANDA-SAMBHAVA"، وتصطبغ صورة الديانة البوذيّة التي أدخلها هذا الرجل إلى التبت بالتنتريّة على نحو واضح، أي بصورة الإيمان والممارسة التي تضفي أهميّة كبرى على الرموز السريّة، والأناشيد المقدّسة، والأنشطة الدينيّة المستورة الأخرى. وكان ذلك من الأسباب التي جذبت إليها أهل التيبت، فهم شعب لعب السحر دورًا كبيرًا في ديانتهم حتّى ذلك الوقت. وبعد أن واجهت الديانة البوذيّة قدرًا من المعارضة والاضطهاد، ثبّتت أقدامها في بداية القرن الحادي عشر. وكان "أتيشا ATISHA" وهو أحد الشخصيّات اللامعة التي اعتادت إدخال البوذيّة إلى التيبت، راهبًا بنغاليًّا من دير "فكراسيلا"، ومرّة أخرى كانت الصورة التنتريّة هي التي نقلت إلى التيبت من شمال الهند، وهي التي أضفت على بوذيّة التيبت ملامحها الخاصّة التي عُرفت بها عند الأوروبيّين في العصور الحديثة.

ويرى باحثون[1] أنّه هناك ما ينبغي أن يُقال حول وجهة النظر التي ترى أنّ البوذيّة اختفت تمامًا من الهند حوالي عام ١٢٠٠، ولقد سبق أن رأينا أنّ تدهور المراكز البوذيّة المحليّة ذات التأثير، قد استمرّ لعدّة قرون، وأنّ أشكال "المؤسّسة البوذيّة" بدأت تتركّز على هيئة معاهد دينيّة سرعان ما تحوّلت، بالتدريج، إلى مراكز كبرى مثل دير "نالندا NALANDA". وفي النهاية، عندما جذبت ثروة هذه المراكز الكبرى وفخامتها أعمال السلب التي قام بها غزاةٌ مسلمون من الشمال الغربيّ، كان سقوطها يعني، من الناحية الفعليّة، نهاية البوذيّة كمؤسّسة معترف بها في الهند، غير أنّ مسؤوليّة هذا السقوط لا تقع يقينًا على الإسلام، أو حتّى على عاتق وحشيّة الممثّلين الفرديّين للإسلام الذين عاجلوا، في ما يبدو، المؤسّسات البوذيّة في الهند، بضربة قاضية في ذلك الوقت. فإنّ المؤسّسات البوذيّة كانت تترنّح بالفعل، فجاءت الضربة مجهزة عليها، ولهذا يُستخدم تعبير "COUP DE GRACE" أي رصاصة الرحمة، كما تُترجم أحيانًا، وهي الرصاصة التي تُطلق على مَن تمّ إعدامه للتأكّد من موته السريع بحيث لا يُترك يتعذّب. فالواقع أنّ البوذيّة، بوصفها مذهبًا دينيًّا مستقلاً عن معتقدات الهندوسيّة وفرقها، كانت قد اختفت فعلاً عن الأنظار إلى حدٍّ كبير.

لقد ذهب البعض إلى أنّ ديانة البوذا تواصل الحياة في مذهب التفاني والولاء الدينيّ DEVOTIONALISM الموجود في معتقدات "البختي BHAKTI" الهندوسيّة. ولا شكّ في أن مركّب الأفكار والممارسات المعروف باسم الهندوسيّة مدين بدَين كبير للأفكار والمؤثّرات البوذيّة. ولقد قيل إنّ البوذيّة قد أورثت كنوزها للديانة الهنديّة على هذا النحو، واختفت بهدوء عن المسرح كديانة قائمة بذاتها. ويبدو أنّ بعض جوانب عبادة الإله "فشنو" بصفةٍ خاصّة يمكن أن تدعم هذه النظرة، لا سيّما مرونتها النسبيّة تجاه

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٢.

التمييزات الطائفيّة، ومذهبها في الحبّ المتفاني، وعقيدتها في التجسيدات أو التجليّات AVATRAS التي كان بوذا واحدًا منها، وسلوكها النباتيّ.. وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى، رأى البعض أنّ المكانة الاجتماعيّة التي يتمتّع بها فيلسوف هندوسيّ مثل "شنكارا SHANKARA" ترجع بصورة غير مباشرة إلى تأثير التفكير البوذيّ، لأنّ هذا الفيلسوف قد تأثّر، في ما يبدو، ببعض أفكار المهايانا في صياغة فلسفته "الواحديّة" حتّى قيل عنه إنّه "بوذيّ متخفّ". ولاعتبارات من هذا القبيل أخذ "كونز CONZE" في كتابه "تاريخ موجز للبوذيّة"، مثلاً بالرأي الذي يقول إنّ الوجود المستقلّ للبوذيّة لم يعد يخدم أيّ هدف نافع، وإنّ اختفاءها لم يكن خسارة لأيّ إنسان، بل لقد خضع أيضًا لقانون التغيّر والتحوّل الكلّيّ الذي أعلنه بوذا. ومن وجهة النظر هذه "يكون السبب في موت البوذيّة في الهند هو الشيخوخة أو "الإنهاك الكامل". ومع ذلك فالبوذيّة في "سري لانكا" لم تمت من الإنهاك أو الشيخوخة، بالغًا ما بلغ اقترابها منها في بعض الحقب التاريخيّة، وهي اليوم أبعد ما تكون عن الضعف والوهن بعد مرور اثنَين وعشرين قرنًا من الوجود المتواصل في تلك الجزيرة. ويبدو من المرجّح، من وجهة نظر المؤرّخ، أنّ المصير الذي لقيته الجماعة البوذيّة في الهند، يرجع إلى مجموعة معقّدة من الظروف، يمكن أن نتعرّف على عدد منها: كالنزعة المركزيّة، وفقدان الصفات المميّزة مع اقتراب المهايانا من الهندوسيّة، وفقدان الحماية الملكيّة، وأخيرًا هجمات المسلمين. لكنّ البوذيّة لم تختفِ تمامًا، بل ظلّت صامدة في الأماكن النائية على حدود الهند لا سيّما في الشمال. وفي القرن العشرين نما عدد البوذيّين في الهند، وكان ذلك بسبب التحوّل الدينيّ لجماهير غفيرة من الطبقة التي كانت تُعرف باسم طبقة مَن لا يجوز لمسهم. ولقد كان الباعث الهامّ على هذا التحوّل التأييد العلنيّ للبوذيّة من جانب الدكتور "د.ر.أمبدكار D. R. AMBEDKAR" الوزير السابق في مجلس وزراء الهند

المستقلّة عام ١٩٥٦، وكان "أمبدكار" رائدًا لطبقة "مَن لا يجوز لمسهم" فحذا حذوه معظم أعضاء هذه الطبقة. ولقد ذهب جماعة من رهبان "سري لانكا" ومن أماكن أخرى إلى الهند لكي يساعدوا الجماعة البوذيّة الجديدة. وتوجد نسبة كبيرة منهم في ولاية "مهاراشترا MAHARASHTRA" يبلغ عدد أفرادها الآن حوالي خمسة ملايين نسمة. وبالإضافة إلى هؤلاء، لاحظ باحثون اهتمامًا بالبوذيّة على مستوى مختلف تمامًا، فقد ظهر اهتمام متجدّد بالبوذيّة من قبَل بعض المواطنين الهنود "المتحذلقين" والمتشبّعين بالطابع الغربيّ، رغم أنّ هذه الحركة ثقافيّة إلى حدٍّ كبير، ويصعب أن توصف بأنّها حركة بعث شعبيّ للبوذيّة[1]. وعلى العموم، لا تتجاوز نسبة البوذيّين في الهند اليوم ٢٪ من السكّان[2].

البُوذيَّـــــــــة
في سرْي لانكا

سري لانكا، وكان اسمها في السابق سيلان، استقلّت عام ١٩٤٨، هي جزيرة استوائيّة آسيويّة في المحيط الهنديّ، أقيمت فيها أوّل مملكة سنغاليّة في القرن السادس قبل الميلاد، وقد دخلتها البوذيّة في القرن الثالث قبل الميلاد، وأصبحت "أنورا دابورا" مركزًا بوذيًّا عظيمًا.

لقد كانت سيلان أرضًا خصبة لانتشار تعاليم بوذا، حيث لبّى أهلها دعوة "آسوكا" بسرعة واعتنقوا الدين الجديد، ذلك أنّ البوذيّة قد تثبّتت فيها تحت رعاية ملكيّة، نظرًا لروابط الصداقة التي كانت تجمع بين آشوكا وحاكم سيلان[3]. فلقد كانت سيلان، بقدر

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٠ ـ ٢٨٤.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص ٢٢.

٣ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص ٢٠ ـ ٢١.

ما نعرف حتّى الآن، أوّل بلد خارج امبراطوريّة آسوكا في الهند تستقبل البوذيّة، ولا شكّ في أنّها البلاد ذات التاريخ الطويل المتّصل لممارسة البوذيّة وأنشطتها[1]. ويُروى أنّ أهل الجزيرة قد أرسلوا بعثة إلى الهند لتعلّم البوذيّة، وأنّ آسوكا أرسل مع إحدى بعثاته إلى سيلان فسيلة من "شجرة المعرفة" التي نال بوذا تحت ظلالها المعرفة والبصيرة، وغُرست هذه الفسيلة في سيلان، وبمرور الزمن أصبحت دوحة عظيمة، ولا تزال باقية إلى الآن وهي "أقدم شجرة على الأرض"[2]. وقام آسوكا ببناء الأديرة والمعابد والنصب البوذيّة في سيلان. ولمّا كان بوذا لم يكتب أيّ كتاب، فقد قام تلاميذه بجمع عظاته وتعاليمه. ويُقال إنّ البعثة الأصليّة التي وصلت إلى الهند لم تحمل إلى الجزيرة أيّ وثيقة مكتوبة، لكنّ أفرادها حفظوا في الذاكرة ما بات يشكّل اليوم أقدم النصوص البوذيّة[3]. فبفضل بوذيّي سيلان، أو سري لانكا، حُفظت تعاليم الناموس في صفائها الأصليّ، لأنّهم كانوا أوّل مَن كتبها على أوراق شجر وحفظها في تاريخ البوذيّة. وقد دوّنت بلغة الـ"بالي PALI"، والكلمة تعني "النصّ" وهي لغة "البْرَكْرِت" القديمة القريبة من اللغة السنسكريتيّة والمنحرفة عن أصولها. فمثلاً كلمة "دْهَرْمَ" السنسكريتيّة صارت "دْهمّ"؛ وكلمة "آتما" صارت "أتّا"؛ ولغة "بالي" لغة هنديّة آريّة كانت لسان أهل الهند في الشمال في القرنَين الثاني والثالث قبل الميلاد، وأصبحت لغة الجزء الأكبر من الكتابات البوذيّة المقدّسة ثمّ انتقلت إلى سري لانكا وبورما. وكان المستنير يتكلّم بلغة الـ "مَغَادْهي" نسبة إلى منطقة "مغادة" في شرق شمال الهند. والـ "بالي" لا تختلف عن "المغادهي"، بحسب المصادر السري لانكيّة، لكنّها تحتوي على

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٤.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٨٤.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٥٩.

آثار من لغات "الدْرافيديّة" وهي لغة "تميل نادو"، و"السنْغاليّة" وهي لغة سري لانكا، ما يشير إلى إمكانيّة إدخال عناصر محليّة على لغة بوذا الأصليّة، خصوصًا أنّ أقدم النصوص البوذيّة، حُفظت في سري لانكا[1]. وقُيّض للنسّاك السيلانيّين أن يكونوا حافظي أقدم الكتب البوذيّة. وبدءًا من القرن الخامس الميلاديّ أخذ الباحثون الهنود يترجمون النصوص البوذيّة من البالي إلى لغتهم. وما يزال معظم السيلانيّين ينتمون إلى "الثيرفادا" أو "الهينايانا"، وهي مدرسة الحكمة البوذيّة القديمة[2].

أما عن قصّة دخول البوذيّة إلى جزيرة سيلان بواسطة الراهب "ماهندا" ورفاقه فمصدر معظمها مدوّنات اللغة الباليّة PALI، ورغم بعض الزخرفة التي ربّما زُيّنت بها تفصيلات القصّة، فليس ثمّة شكّ كبير في أنّ بدايات البوذيّة في سري لانكا ترجع، على الأقلّ، إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد يرجعها البعض إلى زمن أقدم.

كان ملك سري لانكا في ذلك الوقت هو الملك "تِسّا ديفانمبيا TISSA DAVANAMPIYA"، واسمه يعني "تيسّا المحبوب من الآلهة"، وفي اسمه إشارة إلى الديانة الموجودة في "سري لانكا" قبل دخول البوذيّة، وهي ديانة تعتمد على عبادة عدد من الآلهة يحمل معظمها نفس أسماء آلهة "الفيدا" التي عُبدت في الهند القديمة أمثال "براهما BRAHMA" و"إندرا INDRA"، و"ياما YAMA" و"فارونا VARUNA"، و"كوفيرا KUVARA"... وكانت تلك الآلهة الرئيسيّة هناك، إلى جانب آلهة أخرى تشمل "بلاديفا BLADEVA" و"راما RAMA" و"فاسويفا VASUDEVA". ولقد أصبح الملك نفسه، طبقًا للرواية المأثورة، بوذيًّا عاديًّا مثله مثل معظم الناس في سري لانكا. ولم تتوقّف عبادة الآلهة القدامى، وإنّما تعدّلت بالتدريج وتحوّلت إلى مذهب بوذيّ في أساسه، افتُرض فيه

---

١ - حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص ٢٠ - ٢١.

٢ - صعب، الأديان الحيّة، ص٥٩.

تحوّل آلهة الفيدا إلى الديانة البوذيّة، بحيث أصبحت تابعة لبوذا الذي راحوا يقدمون لـه أسمى ألوان التوقير والإحترام. وقد كانوا يعبّرون عن محبّة بوذا تعبيرًا رمزيًّا بعبادة تمثاله STUPA، أو تقديس الربوة التي تضمّ رفاته، أو تقديس شجرة الـ "بو BO" وأوّل تمثال نُحت في سري لانكا أقامه الملك "تِسا TISSA" في العاصمة، وكانت في ذلك الوقت "أنورا دابورا"، ولا يزال الحجّاج البوذيّون يمجّدونه حتّى الآن. وكما ذكرنا سابقًا، فقد أحضر البوذيّون معهم حوالى سنة ٢٥٤ق.م. فسيلة من شجرة الـ "بو" الأصليّة من "بوذا غايا - BUDDHA GAYA" في موكب مهيب وغرسوها في احتفال لائق في مكان أُعدّ لها خصّيصًا في جنوب المدينة. وكان الحدث الأكثر أهميّة أثناء توطيد دعائم البوذيّة في الجزيرة، هو دخول الرجال والنساء من السنغاليّين في مراتب "السنغا SANGHA"، وإقامة دير في "أنورا دابورا" عُرف باسم "مهافيهرا MAHAVIHARA" أي "الدير العظيم"، وأصبح منذ ذلك الوقت أهمّ مراكز الديانة البوذيّة في الجزيرة. أمّا المدرسة البوذيّة التي وصلت "سري لانكا" وصارت لها السيادة في عاصمة الأمبراطور آشوكا، فهي مدرسة "ستافيرا STHAVIRAS" أي مدرسة "الشيوخ" أو "الكبار" أو مدرسة "الناضجين". وقد عُرفت في ما بعد باسم مدرسة "ترافادين THARAVADIN"، وظلّت النمط المسيطر من البوذيّة في سري لانكا، وكان رهبانها محافظين في موقفهم من التعاليم الأساسيّة عند "بوذا غوتاما"، وفي تفسيرهم لشريعة الأديرة، وهم الذين حافظوا على الكتب المقدّسة باللغة الباليّة[1] PALI.

وفي تاريخ لاحق لاستقرار البوذيّة في سري لانكا، كانت محاولة لإدخال صورة "المهايانا" من جنوب الهند، وقد نجحت تلك المحاولة لبعض الوقت، ولكنّ خصومة حادّة نشأت بين رهبان "الترافيدا"، أو رهبان "الدير العظيم"، وبين رهبان دير المهايانا

---

٢ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٤ - ٢٨٥.

أو الـ"أبهياغيريين ABHAYAGIRI" المقام حديثًا، استمرّت عدّة قرون. وكان الحاكم يساند الفريق الأوّل حينًا، والفريق الثاني حينًا آخر. أمّا الشعب، فقد وقف، على ما يبدو، بصفة عامّة، في صفّ رهبان الترافيدا. وانتهت الخصومة في القرن الرابع ميلاديّ عندما تدخّل الملك لصالح الترافيديّين الذين كُتبت لهم السيادة بعد ذلك، حتّى أصبحوا بالفعل، المدرسة الوحيدة للبوذيّة التي استمرّت في سري لانكا. وقد ساعدت على صعود هذه المدرسة وسيطرتها في القرن الخامس أعمال "بوذا غوستا BUDDHA-GHOSTA"، وهو فقيه بوذيّ عاش في بداية القرن الخامس ميلاديّ، وُلد في شمال الهند، وذهب إلى "أنورا دابورا" التي كانت مركزًا بوذيًّا هامًّا لدراسة النصوص البوذيّة، وترجم الكثير من النصوص والشروح السنغاليّة إلى اللغة الباليّة، ثمّ عاد إلى قرية "بوذا جايا" وبدأ في التأليف، فكتب عدّة مؤلّفات، أهمّها "الطريق إلى التطهّر"، وهو تلخيص للعقيدة البوذيّة. وشبّه باحثون إنجازات هذا الفقيه في ميدان عرض الكتب المقدّسة وشرحها، وفي تأليف مرجع شامل حول أصول العقيدة، شبيهة بإنجازات القدّيس توما الإكوينيّ في التراث المسيحيّ. وكانت دراسة البوذيّة بلغة "بالي" قد شهدت تراجعًا لعدّة قرون، إذ كادت تحجبها المكانة التي حصلت عليها اللغة السنسكريتيّة التي هي لغة براهمة الهند، ولغة مدرسة المهايانا البوذيّة، فكان "بوذا غوستا" هو الذي استعاد للغة بالي مكانتها في التعليم والأدب وأنزلها منزلة الشرف، وأصبح بذلك الشخصيّة التي استحقّت من البوذيّين أعظم الاحترام والتقدير، لا في سري لانكا وحدها، بل في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا بعد ذلك. وربّما كان أعظم مؤلّفاته كتاب "طريق التطهر" الذي يُعَدّ في نفس الوقت ملحقًا للكتابات البوذيّة المقدّسة، وعرضًا نسقيًّا للروحانيّة البوذيّة[١].

---

١ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٥ - ٢٨٦.

بعد ألف سنة من وفاة بوذا غوستا، واصلت الممارسات البوذيّة في سري لانكا متابعة النموذج الذي أخذه هذا الرائد عن الرهبان القدامى، بحيث تلقّى العلم بالتراث على أيديهم، ثمّ صاغه في صورة أدبية متمكّنة. ولقد ظلّ الحظّ في القرون التالية يبتسم "للسنغا" حينًا في سري لانكا، ويعبس لها حينًا آخر، واقتضى الأمر في بعض الأحيان العمل على إحياء "السنغا" في البلاد البوذيّة المجاورة لجنوب شرق آسيا وهي بورما، وتايلند، وكمبوديا، وفي أحيان أخرى كان الرهبان الترافيديّون أنفسهم يقومون بإحيائها في تلك البلاد عندما تنحطّ مكانتها.

لعلّ أصعب الحقبات في تاريخ البوذيّة في سري لانكا قد بدأت، على الأرجح، مع وصول البرتغاليّين الكاثوليك في القرن السادس عشر. ففي خلال قرن أو ما يقرب من سيطرتهم على سري لانكا، أضحت بعدها تحت حكم الهولنديّين لمدّة قرنَين، وأخيرًا تحت حكم البريطانيّين مع بداية القرن التاسع عشر، مرّت البوذيّة بحقبات حرمت فيها من أديرتها في أراضيها، كما ساءت علاقاتها بالدولة، وأُجبر أتباعها من عامّة الشعب، إما على ترك دينهم، وإما على التظاهر باعتناق دين آخر. وهكذا عانت البنية الرقيقة للمجتمع البوذيّ، سواء على صعيد عامّة الشعب أم على صعيد رهبان الأديرة، من أضرار خطيرة. ومع ذلك فقد بدأ بعث البوذيّة في سري لانكا من جديد في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت في ذلك الوقت في أشدّ حالاتها تدهورًا. وبدأت تظهر حركات جديدة من الرهبان وعامّة الشعب، كما تجدّد الاهتمام بكنوز الأدب المكتوبة بلغة بالي، ويرجع ذلك، إلى حدّ ما، لحماس المستشرقين الغربيّين وطلّاب الدين. ثمّ أقيمت مراكز جديدة للتعليم البوذيّ العالي، كما بدأت ممارسة التأمّل البوذيّ تُبعث، من جديد، في أديرة حديثة أو في صوامع في الغابات. ومع مرور الوقت أصبحت سري لانكا أمّة مستقلّة مرّة أخرى عام ١٩٤٨، واستعادت البوذيّة فيها مكانتها على نطاق واسع، وإن

لم تستعدها بصورة تامّة، باعتبارها القوّة الرئيسة المرشدة والموجّهة للثقافة في سري لانكا. وامتدّ تأثير البوذيّة من سري لانكا مرّة أخرى، وبصفة رئيسيّة، من خلال منشورات الرهبان التبشيريّة وأنشطتهم، لا إلى بلدان آسيويّة أخرى فحسب، بل إلى الغرب أيضًا[1].

في الصِّين
واليَابَان وكُوريَا

يرى باحثون أنّه من المشكوك فيه أنّ تكون البوذيّة قد تمكّنت من الانتشار الواسع لولا مدرسة "المهايانا"، إحدى المدارس البوذيّة التي سبق التعريف بها، خصوصًا في الصين واليابان. ففي الوقت الذي نشأت فيه مدرسة "فيجنانا ـ فادا" في الهند، كانت البوذيّة قد وصلت بالفعل إلى الصين، وبدأت تثبّت أقدامها فيها. وحوالي منتصف القرن الثاني الميلاديّ، ارتحل الرهبان البوذيّون على طول الطريق التجاريّ المزدحم المؤدّي من شمال غرب الهند، خلال آسيا الوسطى، إلى غرب الصين. ولقد قامت في ذلك الجزء من الهند، مراكز بوذيّة واسعة ومأهولة كانت من المناطق ذات التأثير القويّ في تطوّر "المهايانا". ويرى باحثون أنّ بوذا نفسه قد عهد بمهمّة التبشير للرهبان الأول، ونشر "الداهما" بين جميع الناس. ولقد أصبحت هذه المهمّة، من جوانب معيّنة، أسهل بالنسبة لرهبان "المهايانا" منها بالنسبة لرهبان "الهينايانا"، لأنّ المهايانا لم يعتبروا أنفسهم ملتزمين التزامًا دقيقًا بحرفيّة الشريعة في نظام الدير، وبذلك استطاعوا مثلاً، عندما كانوا يخاطرون بالتجوال في الأجواء الباردة، أن يرتدوا ثيابًا تبعث على الدفء، أكثر من ثوب الراهب الذي كان في العادة مقرّرًا على رهبان الهند. وقد كان الوضع

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٧.

مستقرًّا في الصين في أواخر حكم أسرة "هان HAN" في النصف الأخير من القرن الثاني، ممّا جعل الناس في حالة استعداد لتقبّل ديانة جديدة. وإذا كان فقهاء الكونفوشيوسيّة، من عليّة القوم، قد نظروا إلى الأمر بازدراء، لكنّ غالبيّة جماهير الشعب الصينيّ كانت على استعداد للترحيب بالتعاليم الجديدة، لا سيّما رسالتها عن "البدهشتا" "السماويّة" التي يمكن أن يلجأ إليها المرء للمساعدة على التماس الخلاص من شرور هذه الدنيا وأحزانها[1].

والشائع أنّ البوذيّة ارتحلت إلى الصين على عهد الأمبراطور "مينغ تي" من سلالة هان، الذي حكم بين العامَين ٥٨ و٧٥ للميلاد. وقد ذهب المؤرّخون إلى أنّ الأمبراطور اهتمّ بالبوذيّة بعد ستّ سنوات من اعتلائه العرش، إذ شاهد في حلم تمثال البوذا المذهّب يطير إلى غرفته ورأسُه يلتمع كالشمس. وتقول إحدى الروايات القديمة إنّ الأمبراطور أرسل اثنَي عشر مبعوثًا شخصيًّا إلى الهند ليجمعوا معلومات وافية عن البوذيّة وعن تعاليم "الرجل المتنوِّر المبارك". وعادوا وهم يحملون عددًا كبيرًا من كتب البوذيّة المقدَّسة ومن تماثيل بوذا، ويرافقهم راهبان تدفعهما الروح التبشيريّة. ونُقلت الكتب إلى الدير الذي كان الأمبراطور قد أعدّه للراهبَين، حيث باشرا ترجمتها إلى اللغة الصينيّة[2]. ويرى باحثون أنّ الهينايانا لم تكن ذات شأن بين الصينيّين الذين هم شعب عمليّ يهتمّ أوّلاً بشأنه الماديّ ويكرّس حياته لعائلته. وكانت التعاليم البوذيّة الخُلقيّة، حتّى تلك التي جاءت بها المهايانا أو تلك التي عُدّلت لتلائم مزاج الشعب، مختلفة عن تعاليم كونفوشيوس، إذ احتوت عنصرًا أخرويًّا قويًّا. وجاء وقعها على الصينيّين مثل وقع المسيحيّة على العالم الرومانيّ العمليّ. وحتّى اليوم ينظر الصينيّون

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٧٩.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٣.

إلى البوذيّة كما لو كانت الدين الذي يلوذ به المرء وهو على فراش الموت أو في علاقته مع الأموات. وهناك شبه بين "البوديساتفا" والقدّيس المسيحيّ، في حين أنّ مثال الإنسان الكامل لدى كونفوشيوس يشبه الإنسان المتفوّق عند أرسطو. ومع بروز القرن الرابع، كانت المهايانا، مع صورها الجميلة للحياة الثانية، قد شقّت طريقًا رحبًا إلى الصين. ومنذ ذلك الحين عرفها الصينيّون على نطاق واسع جدًّا. ونظر متعصّبو الكونفوشيوسيّة إلى القرون البوذيّة الأولى في ديارهم كما لو كانت عصور ظلام. إلاّ أنّ الصين مَدينة بفلسفتها وفنّها للبوذيّة. وقد أدخل الصينيّون إلى البوذيّة مذهب "تشان CHAN" القائم على مزج طريقة الحدس الطاويّة بالمثُل البوذيّة.

كانت المذاهب البوذيّة تظهر في الصين ثمّ تنتقل إلى اليابان حيث تخضع لبعض التعديل. وأهمّها جميعًا ذلك الذي يجرّد البوذيّة من العناصر النظريّة ويربطها بالقلب، ساعيًا إلى بوذيّة خالصة، هدفها بلوغ التنوّر عن طريق الحدس. كما حصل مع غوتاما تحت شجرة الـ "بو"، أو شجرة الإشراق. هذا المذهب اسمه "تشان" في الصين و"زن ZEN" في اليابان. والإسمان تحريف لعبارة "ديانا DHYANA" السنسكريتيّة التي تعني التأمّل العميق[1]. ويُقال إنّ مؤسّس مدرسة تشان الصينيّة هو العالم والمعلّم الهنديّ بوديدارما الذي قصد الصين في القرن السادس، يوم كانت البوذيّة في أوجها وقد اعتنقها الأمبراطور "وو تي" من سلالة "ليانغ". وبعدما صار اسم المعلّم الهنديّ معروفًا في شمال الصين، استدعاه الأمبراطور إلى البلاط سائلاً عن الحظوة التي ينالها إذا قدّم المساعدات للرهبانيّة البوذيّة واستمرّ في ترجمة كتاباتها. فأجابه المعلّم: "لا شيء على الإطلاق". معلّلاً رأيه بأنّ القراءة والأعمال لا فائدة منها، وأنّ التأمّل وحده يمنح المرء قوّة الحدس التي تقوده إلى التنوّر على غرار بوذا. وهذا الحدس

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٥.

نتيجة خبرة قلبيّة عميقة. ولكي يبرهن للأمبراطور عن صحّة رأيه، اعتزل بوديدارما في جبل سو، حيث بقي تسع سنوات يتأمّل ووجهه متّجه إلى حائط.

لقد بدأت مدرسة تشان بالدعوة إلى الحياة البسيطة وتدريب النفس على نحو صارم استعدادًا للتأمّل وتقبّل الرؤية الداخليّة. ورفضت بادئ الأمر الكتابات المقدَّسة والطقوس، ثمّ قبلتها ولكن ببساطة، من غير أن تنسى أنّ الهدف الأخير هو التأمّل. وأفضل وضع جسديّ له هو السكون التامّ وتنقية الذهن من كلّ الأفكار استعدادًا لاستقبال الحدس الذي يأتي في وقت لا نعرفه. ونشأت سبع مدارس حول هذا الأمر، أهمّها اثنتان: مدرسة "لين تشي LIN - CHI" التي تقول بالحدس المفاجئ، ومدرسة "تساو تونغ TSAO - TUNG" التي تقول باكتساب المعرفة عبر قراءة الكتب، وصولاً إلى التنوّر التدريجيّ. وفي الحالتَين، لا غنى عن التأمّل الصحيح الذي يقوم ليس على قراءة التاريخ والفلسفة ولا تأدية الطقوس، ولكن على التوغّل داخل القلب[1].

هذا ما حصل في الصين نحو عام ٥٧٤ للميلاد، خلال حكم سلالة "تانغ". وفي الوقت نفسه صارت الكونفوشيوسيّة بمثابة الدين الرسميّ. لكنّ النصف الثاني من القرن الثامن شهد خصامًا بين الكونفوشيوسيّة والبوذيّة. وعرف البوذيّون الاضطهاد على أيدي بعض الأباطرة الذين اعتنقوا الكونفوشيوسيّة أو الطاوية، ومنهم "وو تسونغ" من سلالة "تانغ"، الذي أقدم، عام ٨٤٥ للميلاد، على تحطيم ٤٥ ألف بناء بوذيّ وتذويب عشرة آلاف تمثال لبوذا وإرسال ٤٠٠ ألف راهب وراهبة وخادم هيكل "إلى العالم" ليعيشوا بين الناس من جديد. وكان يظهر أباطرة آخرون يعمدون إلى إصلاح الحال وإعادة الاعتبار إلى البوذيّين.

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٦.

ويرى باحثون أنّ البوذيّة في الصين، بوجه خاصّ، لها طابع يجعلها بعيدة عن البوذيّة الحقيقيّة، فقد صبغها الصينيّون بثقافتهم وحياتهم، فجعلوا آلهتها ثلاثة وثلاثين على نحو ما كانوا يعملون قبل البوذيّة. وأقاموا لها المعابد الجذّابة، التي تزيّنها الفنون الجميلة. وممّا سبّب إقبال الصينيّين على البوذيّة أنّها دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوذا إلهًا، وأصبح تمثاله وثنًا يُعبد، وتقدّم له القرابين، وتُقام له الصلوات، وقد كان لهم مع آلهتهم الأولى مظاهر للتقديس ليست بعيدة عن هذه المظاهر. وممّا سبّب إقبالهم على البوذيّة كذلك أنّها دين إنقاذ وطهر، يمنح بالنرفانا اللذّة والسعادة في الحياة وبعد الموت، ويحثّ على الرحمة، ويغري بالخير، ويقضي على الشهوات الظالمة، ويبعد عن الشرور[1].

مع استقرار مدرسة "المهايانا" البوذيّة في الصين، سرعان ما انتشرت من هناك إلى كوريا، ومنها إلى اليابان، في أواخر القرن السادس للميلاد. وأصبحت عقيدة "البودهشتاتو - أميتبها BODHISTATTU - AMITABHA" بصفة خاصّة، عقيدة شعبيّة عُرفت في اليابان باسم "أميدا AMIDA"، وصار الإيمان بقدرة البوذيّة على تخليص البشر بنعمتها، وإدخالهم عند الموت في جنّتها، أو أرضها الطاهرة، أحد التيّارات المسيطرة على بوذيّة اليابان، وظلّ كذلك حتّى العصور الحديثة[2].

فقد دخلت البوذيّة إلى كوريا بعيد انتشارها في الصين خلال القرن الرابع، وسرعان ما أعلن ملك كوريا اعتناقه للدين الجديد. وفي العام ٥٥٢ للميلاد تلقّى الأمبراطور اليابانيّ "كيمي KIMMEI" هديّة من نظيره الكوريّ، كانت تمثالاً مذهّبًا لبوذا وبعض الكتب المقدّسة والشعارات، مع رسالة حول العقيدة البوذيّة "الممتازة، على

---

١ - شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٨٥، نقلاً عن: BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, PP. 47- 48.

٢ - بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٠.

عسرها"، التي يمكن أن تجعل من المؤمن بها قدّيسًا أو بوذا. وكان لتلك الرسالة، خصوصًا للمقطع الذي يصف انتشار البوذيّة من الهند إلى الصين إلى كوريا، أثر في نفس أمبراطور اليابان. لكنّه، بناء على نصيحة رئيس وزرائه الذي كان زعيم عشيرة "سوغا"، أراد التأكّد من أنّ آلهة اليابان المحليّة" "الكامي"، لن يزعجها إدخال البوذيّة[1]. إلاّ أنّ "الميكادو" اليابانيّ أراد أن يعبّر للملك الكوريّ عن احترامه لهذه الهدايا وتقديره لها، فأقام معبدًا خاصًّا وضع فيه تمثال بوذا الذهبيّ وكتبه المقدّسة. وعندما عرف ملك كوريا كيف أُقيم معبد بوذا، أسرع فأرسل كهنة بوذيّين إلى اليابان لتفسير عقيدتهم. وهكذا وصلت البوذيّة إلى اليابان هديّة من ملك إلى آخر[2]. لكنّ البوذيّة سقطت من عين الأمبراطور اليابانيّ حين تبيّن أنّ تمثال بوذا الذي أُرسل إلى عشيرة "سوغا" ظلّ بلا أثر. وتلت تلك المحاولة محاولات لم تكن ذات شأن يُذكر. لكن بعد اعتلاء الأمبراطورة "سويكو" العرش سنة ٥٨٨ وتعيين ابن أخيها "شوتو كو تايشي" الذي كان بوذيًّا متحمّسًا، وليًّا للعهد، أقدم على إرسال جماعات من العلماء إلى الصين ليحملوا معهم كلّ ما يستطيعون عن البوذيّة وعن نظام الحكم في الصين. وأقام أوّل معبد بوذيّ للعموم في اليابان، كما أنشأ الرهبانيّة البوذيّة الأولى هناك. وللتأكيد على البعد الإنسانيّ في المهايانا، شيّد مستشفى ومستوصفًا ومأوى. وتبرّع سواه من الوجهاء البوذيّين بالمال لإقامة عدد من المنشآت، مثل مخازن الماء والقنوات والمرافئ والطرق. هكذا برهن الدين الجديد عن منفعته ليس للفرد فحسب، بل للمجتمع أيضًا[3].

وبعدما كسبت البوذيّة تأييد الطبقات الحاكمة في اليابان، أخذت تكسب قلوب العامّة. ونشأ مع الوقت، بتأثير من المعلّمين الصينيّين، عدد من المذاهب داخل البوذيّة

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٣. ٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٦٣.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٣.

اليابانيّة. وخفّت معارضة الشينتو، أي الديانة اليابانيّة التقليديّة، لها، عندما غدت آلهتها آلهةً للبوذيّين، وصارت تنتمي إلى طبقتَي البوذا والبوديساتفا[1].

لكنّ البوذيّة الواصلة إلى اليابان لم تكن هي البوذيّة التي خرجت من الهند قبل ألف عام. إذ عندما خرجت تعاليم بوذا من الهند كانت تعلّم بساطة العيش واتّباع الطريق المستنير والقضاء على عبادة الأصنام. إلاّ أنّ البوذيّة الجديدة التي عبرت جبال الهملايا عبر التيبت ومرّت بالصين ثمّ كوريا حتّى وصلت إلى اليابان، كانت قد تغيّرت تمامًا. وأصبح بوذا نفسه معبودًا يعبده الناس، وإلى جواره معبودات أخرى كثيرة تحيط به. لقد خرج بوذا من موطنه متسوّلاً فوصل اليابان أميرًا يتقدّمه جيش من المعبودات المتألّقة ويسير خلفه جيش من المعبودات بين ذكر وأنثى. وعندما رأى اليابانيّ البسيط موكب الآلهة والمعبودات العديدة الفتيّة، وسمع القصص العجيبة عن حياة بوذا وأُعجب بها، وجد نفسه ببساطة أيضًا، يعتنق البوذيّة ويدخل الناس معه أفواجًا في الدين الجديد[2]. وصار الكهنة البوذيّون في اليابان يتطلّعون إلى الصين والهند كمركز لديانتهم أو كمرجع أعلى. وبعد مقاومة قصيرة، أقبل أفراد العائلة المالكة وسواهم من عليّة القوم على البوذيّة لِما وجدوا فيها من أفكار عظيمة[3]. وازداد عدد المعابد، حتّى أصبح للبوذيّة معابد في كلّ مدينة في اليابان، ما حدا بالمزيد من العامّة إلى الانضمام إلى البوذيّة، التي اصبحت أكثر العقائد انتشارًا، وباتت تهدّد بطرد عقيدة الشينتو نفسها من البلاد التي نشأت فيها. لكنّ الشينتو كانت تعلّم عبادة الأمبراطور، ولهذا ساعد الأمبراطور في بقائها حيّة بين شعب اليابان. وفي القرن الثامن للميلاد، كانت البوذيّة قد اكتسبت عطف الطبقات الحاكمة، فبدا أنّ نوعًا

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٤.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٢٦٤.

٣ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٩٩.

من الدمج بين الشينتو والبوذيّة قد صار مرغوبًا، وراح بعض الكهنــة يعلّمـون أنّ آلهـة اليابان المحليّة هي من البوذا والبوديساتفا التي أعادت ظهورهـا علـى الجـزر اليابانيّـة. وقالوا إنّ إلهة الشـمس "أماتيراسـو" هـي وجـه للبـوذا "فيـرو كانـا". وكـانت نتيجـة هذا التوفيق ظهور مذهب جديد في اليابان هو "ريجوبـو" الـذي يعنـي "الشـينتو الممـزوج". وفي هذا المزيج أُعطيت الآلهة البوذيّـة مقـام الصـدارة، فيمـا اعتُبرت الآلهـة اليابانيّـة وجوهًا أو تجلّيات لها. والواقع أنّ الأثر البوذيّ فـي اليابـان ظـلّ سـائدًا طـوال قـرون، واستمرّ حتّى العصر الحديث[1].

تجدر الإشارة إلى أنّه عندما جاءت البوذيّة هديّة من ملـك كوريـا إلـى اليابـان، لـم تلبث، تحت سماء اليابان، أن تحوّلت من عقيدة يملؤها التشاؤم إلى عقيـدة قوامهـا آلهـة واقية، وإلى محافل دينيّة تبعث الغبطة في النفوس، كما تحوّلت إلى أعياد مرحة، وجنّـة موعودة تُسري عن الصدور كروبها. فقد آمنـت البوذيّـة اليابانيّـة بـالجحيم كمـا آمنـت بالجنّة، بل آمنت بوجود مائة وثمانية وعشرين جحيمًا أُعدّت لشتّى الغايـات ومختلـف الأسماء، كما آمنت أيضًا بعالم القدّيسين وبعالم الشياطين الذي كان على رأسهم شيطان يُسمّى "أونى" له قرون وأنف أفطس ومخالب وأنياب، ويسكن في مكان مظلم يقـع فـي الشمال الشرقيّ من العالم، وهو يستطيع، بين الحين والآخر إغراء النساء بالذهاب إليـه هناك ليُمتعنه. ولكن، إلـى جـانب هـذا، كـانت العقيـدة البوذيّـة اليابانيّـة تقـول إنّ هنـاك "بوذيّين" كثيرين على استعداد لأن يخلعوا على الناس جزءًا مـن الرحمـة. وكـان هنـاك إلهة للرحمة فعلاً اسمها "كوانون" قيل إنّها زارت الجحيم يومًا ونزلت إلى أعماقه حيث أظهرت عطفها على المذنبين وأطلقـت سـراحهم. وكـان هنـاك إلـه آخـر يشـبه المسيح اسمه "جيزو". وكان بعض العبادة يـؤدّى صـلاة عنـد مذابـح المنـازل أو عنـد أضرحـة

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٩٩.

المعابد. على أنّ معظم مظاهر عبادتهم كانت تتّخذ صورة للمواكب المرحة، إذ كانت الديانة تخلي المكان الأوّل لمظاهر الغبطة والفرح، وكان العابد يستطيع، وهو في عبادته، أن يطهّر روحه بالصلاة ربع ساعة تحت شلاّل دافق في قلب الشتاء، أو بالانطلاق في رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة الأسلاف. وأصبحت البوذيّة اليابانيّة من أمتع ما اعتقدته الإنسانيّة، ولم تحاول أن تطغى على العقيدة الأصليّة، ولم يتعذّر عليها أن تخلي من نفسها مكانًا للآلهة القديمة التي آمنت بها الشينتو. وهكذا اندمج بوذا بأماتيراسو ربّة الشمس، وخُصّص مكان متواضع في المعابد البوذيّة لعبادة الشينتو[1].

وبدءًا من القرن الثاني عشر، كانت قد ظهرت في البوذيّة اليابانيّة مدرسة "زنّ" التي كانت ذات أثر عظيم في حياة اليابان الدينيّة بأسرها. وفي اليابان اليوم مذهبان مهمّان داخل الزن، قائمان على المذهبَين الصينيَّين: مذهب "رينزاي RINZAI" وهو اللفظ اليابانيّ لعبارة "لين تشي" الصينيّة، ومذهب "سوتو SOTO" وهو اللفظ اليابانيّ لعبارة "تساو تونغ" الصينيّة. ولقد كان لكلّ من المدرستَين في اليابان أثر كبير على الفنّ والأثاث والعمارة واللياقة الاجتماعيّة. وفي رأس الآثار جميعًا فنّ تنسيق الحدائق والأزهار. والمعروف أنّ جماعة الزنّ ينظرون إلى الإنسان والطبيعة في إطار واحد، لإنّ الإثنَين يشاركان في الحقيقة الكبرى التي هي البوذا. ولكي نفهم مدرسة الزنّ اليابانيّة يجب أن نعود إلى العقيدة القائلة بأنّ لكلّ شيء طبيعة البوذا. وأنّ هدف الحياة هو كشف هذه الطبيعة ونقلها من الوجود بالقوّة إلى وجود بالفعل. لكنّ معلّمي الزنّ ثاروا على التعاليم المجرّدة، حتّى تلك التي جاءت عن طريق المهايانا، قائلين إنّ

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ٢٦٩.

الحلول لا تنبع من التنظير. واختاروا طريق الحدس التي يستطيعون بواسطتها، وبدون عمليّات ذهنيّة معقّدة، من أيّ نوع، كشف طبيعة البوذا في ذواتهم. والحدس يحصل، إمّا على نحو مفاجئ SATORI وإمّا بالتأمّل في معضلة ذهنيّة KOAN. ومن الأمثلة على هذه المعضلات أنّ إوزّة صغيرة جدًّا وُضعت في زجاجة وكبرت داخلها، ثمّ كان على واضعها إخراجها من غير أن تؤذى أو أن تُكسَر الزجاجة. ومثل هذه المعضلة من معضلات الحياة، تشكّل طريقًا مسدودًا وتستعصي على أيّ حلّ ذهنيّ. وطالب التنوّر لا يقاوم المعضلات، بل يدعها تحطّم نفسها بثقلها الذاتيّ، كما يفعل الثلج على أغصان الشجر. فلو بذلت الأغصان جهدًا لانكسرت تحت وطأته، لكنّها، بسكونها، تدعه ينهار من تلقائه. وهكذا طالب التنوّر، لا يجوز أن ينعزل عن الحياة وصعوباتها، بل يجب أن يتعلّم كيف يترك هذه الصعوبات تتحلّ بفعل وطأتها الذاتيّة. واكتشافه طبيعة البوذا يأتي ليس من التفكير في المسألة ذهنيًّا، ولكن من عيشها وانخراطه في الحياة، حياته اليوميّة العاديّة، مهما مكان عمله فيها. وتجدر الإشارة إلى أنّ طريقة "الجودو" اليابانيّة في العراك مستمدَّة من الزنّ، وهي تقوم على ترك الخصم ينهار من وطأة قوّته الذاتيّة. وربّما كان من عوامل الانتشار الواسع الذي عرفته مدرسة الزنّ في اليابان تعلُّق العسكريّين "الساموراي" والرياضيّين بها[1].

ظلّت البوذيّة طويلاً دين الأغلبيّة في اليابان، وهناك بلغت أرفع مراتبها. ولكن في القرن السابع عشر، أُعيد إحياء الشنتو على نطاق واسع، مع إبراز التناقض بينها وبين البوذيّة. ثمّ عرفت البوذيّة نكسة أخرى مع مجيء الإرساليّات المسيحيّة إلى اليابان في القرن التاسع شر. وبلغت ردود الفعل القوميّة على العقائد "المستورَدة" ذروتها في

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، نشوؤها وتطوّرها، ص ٦٦.

مطلع القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، عندما طُهِّر الدين القوميّ ـ الشينتو ـ من كلّ العناصر الصينيّة، وعندما غدا أهمّ عنصر في هذا الدين عبادة الأمبراطور. وطالما صرخ المتعصّبون اليابانيّون: "أُلغوا البوذيّة، وليسقط الكهنة". لكنّ هذه الصرخة انحسرت، وأعقبها إحياء للبوذيّة ما يزال مستمرًّا مع المنظّرين الذين يجدّدونها باستمرار لكي تنسجم والتطلّعات المعاصرة. هكذا استردّت البوذيّة اليابانيّة حيويّتها وقوّتها، واستعادت أثرها البالغ في حياة اليابانيّين[1].

لقد انطلق البوذيّون في الصين واليابان من الأفكار البوذيّة الهنديّة وطوّروها حسب حاجاتهم وأنماط تفكيرهم، وذلك بعد ترجمة كتب المهايانا من السنسكريتيّة إلى الصينيّة واليابانيّة. وأهمّ هذا الكتب "لوتُس القانون الصالح LOTUS SUTRA" وهو مجموعة مواعظ وأحاديث للبوذا، الذي يقول حكيم صينيّ من القرن السابع إنّه قرأه عشرين ألف مرّة، في حين تعترف به جميع مذاهب اليابان البوذيّة. وهناك مَن يذهب إلى أنّ الصينيّين يشبهون الإغريق بحبّهم للفنّ والفلسفة، وأنّ اليابانيّين يشبهون الرومان بحبّهم للجمع والتنظيم وافتقارهم إلى الإبداع. ويضيف هؤلاء أنّ الصينيّين مدّنوا اليابان كما مدّن الإغريق روما، وأنّ البوذيّة كانت للإثنَين معًا ما كانته المسيحيّة للعالمَين الإغريقيّ والرومانيّ[2].

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٤.

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٣.

البُوذيَّــــة

في بُورمَا

بورما BURMA أو برمانيا، جمهوريّة في جنوب شرقي آسيا، تقع على خليج البنغال بين تايلند والسين وآسام، عاصمتها رانغون، استقلّت سنة ١٩٤٧ بعد أن كانت جزءًا من الأمبراطوريّة الهنديّة.

يقول باحثون[٣] إنّ مبشّرين من الرهبان البوذيّين التابعين لكلّ من "الهينايانا" و"المهايانا"، قد قدموا خلال القرون الأولى للعهد المسيحيّ إلى جنوب شرقيّ آسيا، وكانت منطقة جنوب بورما وجنوب تايلند بأكملها مأهولة بشعب يُسمّى الـ"مون MONS"، وكان هؤلاء يتّبعون البوذيّة الـ"ترفاديّة THERVADA" التي جاءتهم، على الأرجح، من شرق الهند. واستقرّت مدرسة هامّة للهينايانا في وسط بورما وشمالها، وهي مدرسة "سارفستفيدا SARVASTIVADA" وأصبح لها تأثير ملحوظ، وهكذا كان للمهايانا تأثيرهم مع حلول القرن الخامس ميلاديّ. وتفيد البقايا الأثريّة عن أنّ هاتَين المدرستَين من مدارس البوذيّة، قد ازدهرتا في بورما العليا في تلك الحقبة، وربّما وصلتا إلى بورما من البنجاب عبر أحدى الطرق البريّة. ويبدو أنّ المراحل التي مر بها تطوّر المهايانا البوذيّة في الهند قد تكرّرت مرّة أخرى في بورما، وممّا لا شكّ فيه أنّه بحلول القرن السابع ميلاديّ، بدأت البوذيّة تظهر في صورتها التنتريّة في بورما العليا على نطاقٍ واسع. وفي ذلك الوقت، كان يحكم الجزء الشماليّ من بورما ملوك من الجنس "التيبيتيّ البورميّ TIBTO-BURMESE"، وهم أسلاف سكّان وادي بورما المعاصرين. وكان أحد هؤلاء الملوك: "أنا وراثا ANAWRAHTA" الذي بدأ حكمه سنة

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٧.

١٠٤٤، وقد تحوّل إلى اتّباع الصورة الترفاديّة من البوذيّة بتأثير راهب من جنوب بورما، وشرع في إعداد برنامج لإصلاح البوذيّة التنتريّة التي كان يمارسها في مملكته كهنة يُسمّون ARIS أي "المقدّسون" أو "أصحاب القداسة". غير أنّ هذه التسمية لم تكن تتناسب مع حقيقة هؤلاء، إذ إنّ طريقتهم كانت تتنافى كليًّا مع الروح البوذيّة، ذلك أنّها كانت تستخدم القوة المسلّحة. فتمكّن "أنا وراثا" من الحصول على نسخة كاملة من الشريعة البوذيّة بلغة "بالي"، وجعلها معيار ممارسة البوذيّة في مملكته. وهكذا أصبحت الترافيدا هي البوذيّة السائدة في جميع أنحاء بورما، واختفت "المهايانا"، وإن بقيت حيّة بعض الشيء في ممارسات تجري في بعض المناسبات، حيث اندمجت فيها البوذيّة مع صيغة الإيمان المحليّ للسكّان الأصليّين وممارساتهم، فأصبحت تشكّل النموذج المتميّز لِما ينبغي أن يسمّى "بوذيّة بورما" على مستوى عامّة الناس. وعلى أيّ حال، فإنّ الديانة التي تمارَس في أديرة بورما، تتّحد مع الترافيدا المتّبعة في بلدان أخرى من جنوب آسيا ، مثل سري لانكا، وتايلند، وكمبوديا، ولاوس، وهي تقوم أساسًا على شريعة بالي.

وللبوذيّة في بورما أديرة كثيرة، مُنشأة بالقرب من أكثر المدن والقرى، لا سيّما في مناطق بورما السفلى حيث يعيش معظم السكّان. ولقد كان للأديرة تأثير قويّ على الحياة الأخلاقيّة في البلاد، كما شكّلت عبر القرون مراكز تربويّة. وقد تخصّصت أديرة بورما في دراسة الآداب الخاصّة بالـ"أبهى داهما" أي "جوهر العقيدة"، وهو قسم من الشريعة يعالج تحليل الظواهر العقليّة والأخلاقيّة.

يبدو للباحثين أنّ الخلفيّة التي تكمن وراء هذا النوع من المعرفة، هي ذلك القدر الملحوظ من الدعم التي لقيته تلك المدارس من جانب الأثرياء الأتقياء من عامّة الشعب، لأنّ تلك المدارس كانت تتطلّب أديرة مبنيّة تُعرف باسم "فيهارا VIHARA"،

توفّر من الإتّساع والراحة، أكثر ممّا تحتاجه جولات المتسوّل في حياته العاديّة، فضلاً عن احتوائها مكتبة كاملة من النصوص المقدّسة، وتزويد الرهبان بكافّة متطلّبات المعرفة. ولقد كانت تلك التقدمات من قِبَل الأثرياء تُعتَبر عملاً جديرًا بأسمى درجات التقدير والثناء، وكان الأثرياء من عامّة الشعب شغوفين بالحصول على مثل هذا التقدير، بقدر ما كان الرهبان مغتبطين بقبول عطاياهم[1].

في القرن الخامس عشر، حصل بعث آخر للبوذيّة في الجزء الجنوبيّ من بورما. كان ذلك بفضل الملك "دماتشي DHAMMACETI" (١٤٦٠ـ ١٦٩١).

كان دماتشي قد تحوّل إلى راهب بوذيّ في زمن مبكّر من عمره، إذ كانت درجت العادة على أن يقضي كلّ ذكر، لدى بلوغه العشرين، شهرَين على الأقلّ في أحد الأديرة، متعلّمًا العقائد والمبادئ البوذيّة[2]. وقد عُرف دماتشي بتقواه بعد أن أصبح ملكًا، فاستمرّ يعمل على حماية "السنغا" طوال عهده، واهتمّ بإصلاح جوانبها الأقلّ تشدّدًا في التمسّك بالمعتقد القديم، كما أرسل بعثة من الرهبان إلى سري لانكا للدراسة وإعداد أنفسهم للعمل على بعث حياة الدير في مملكته بعد عودتهم. وقرب نهاية القرن الخامس عشر، تراجع استخدام لغة بالي، كلغة الدين أمام استخدام اللغة البورميّة، بشكل واضح. وهذا التطوّر اكتسب دفعًا قويًّا في القرن السادس عشر، بعد أن تزايد، بالتدريج، عدد الكتب المقدّسة، والشروح، والتعليقات، والأدب الدينيّ، التي أصبحت تصدر باللغة البورميّة.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩، عن: M.H. BODE، الأدب البالي في بورما (١٩٠٩)، ط٢ (١٩٦٦).

٢ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٠.

على خلاف سري لانكا، فإنّ بوذيّة بورما لم تتأثّر كثيرًا بقدوم البرتغاليّين. ولم يبدأ الاستعمار الأوروبّيّ في التأثير على بورما إلاّ في مطلع القرن التاسع عشر، وتمّ ذلك عن طريق التوسّع التدريجيّ لحكم الإنكليز على ثلاث مراحل في السنوات ١٨٢٦ و١٨٥٣ و١٨٨٥. وقد عُزل آخر ملوك بورما من مدينة "مندلاي MANDALAY"[1] وأصبح الإنكليز الحكّام المباشَرين لكلّ البلاد. ونتج عن استغلالهم مواردها الطبيعيّة، مع دفع تعويضات بالغة الضآلة عن المنافع الاقتصاديّة، آثار مدمّرة على الحياة في بورما لم تبرأ منها حتّى يومنا هذا. كما تحطّم النموذج القديم للحماية الملكيّة "للسنغا" ورعايتها، ولم يفعل البريطانيّون شيئًا لإصلاح الأضرار التي أحدثوها، ممّا جعل حياة "السنغا" تعاني بشدة نتيجة لذلك. وعلى الرغم من أنّ التكوين الإجتماعيّ الخاصّ بالمعاهد البوذيّة في بورما، قد عانى أضرار الحكم الإستعماريّ، فإنّ التكوين المادّي بقي قائمًا دون أن يُمسّ من قِبَل البريطانيّين أو من قِبَل اليابانيّين الذين خلفوهم في حكمهم بورما. وقد استمرّ بعض الرهبان البوذيّون، خلال حقبات الاستعمار، يدعمون التراث التقليديّ في دراسة الـ "أبهى داهما" التي اشتهرت بها بورما، وكذلك أساليب خاصّة في التأمّل، تقوم على أحاديث بوذا في شريعة "بالي" التي تخصّص فيها رهبان بورما.

ومنذ استقلال بورما سنة ١٩٤٧، برزت فيها خصوصيّة ملحوظة، تترجمت في نموّ مراكز التأمّل التي يرتادها عامّة الشعب، لا سيّما حول مدينة "انجون"، حيث يزور هذه المراكز عناصر من كافّة شرائح المجتمع، لقضاء بضعة أسابيع في ممارسة التأمّل تحت إشراف وإرشاد الرهبان والمعلّمين.

---

١ ـ مندلاي MANDALAY: كانت عاصمة بورما العليا ١٨٦٠ ـ ١٨٨٥، أُصيب قصرها الملكيّ ومعابدها المشهورة بالقنابل في الحرب العالميّة الثانية.

تحتفظ بورما بمجموعة من أفخم المعابد البوذيّة في آسيا المكوّنة من عدّة طبقات، وهي ذات تصميم خاص، وتُعرف باسم "باغودا PAGODA"، وأعظمها شهرة معبد "SHWE DAGON" أو "الباغودا الذهبيّة"، الواقع في الضاحية الشماليّة من مدينة "رانجون RANGOON" العاصمة الحاليّة لجمهورية بورما. ويتألّف هذا المركز العظيم للعبادة البوذيّة من كتلة من الحجارة الدائريّة المركزيّة، تغطّيها تمامًا صفائح رقيقة من الذهب الخالص، ويحيط بالمبنى العظيم الارتفاع رصيف دائريّ مكشوف من المرمر، أقيمت على أطرافه الخارجيّة مجموعة متنوّعة من الهياكل والأديرة. وهو مكان يؤمه الحجّاج البوذيّون من كلّ أنحاء جنوب شرقيّ آسيا، ولا سيّما مدن وقرى بورما. وهناك باغودات أخرى شهيرة في مدينة "مولمين MOULMEIN" وفي العاصمة السابقة مندلاي[1].

البوذيّة
في تايلند

تايلند، مملكة في جنوب شرق آسيا، كانت تُعرف سابقًا باسم سيام، وأصبح اسمها تايلند سنة ١٩٢٩. عاصمتها "بنكوك". يحدّها "ميانمار" من الغرب والشمال الغربيّ، ولاوس من الشرق والشمال الشرقيّ، وكمبوديا من الجنوب الشرقيّ، وماليزيا وخليج تايلند من الجنوب. قلب البلاد هو السهل الوسط حيث تكثر زراعة الأرز. سكّانها عناصر من الشينيّين والملايو والأناميّين والكمبوديّين والمون والنغريتو فضلاً عن التاي THAI أو السياميّين وهم العنصر السائد. تعتنق اليوم البوذيّة أكثريّة السكّان البالغ عددهم نحو ٦٢ مليون نسمة. وتُعتبر البوذيّة دين الدولة. أمّا لغتها الرسميّة فلغة التاي.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٨٧ ـ ٢٩٠.

أسّس التاي مملكة "نانكاو" في "يونان" بالصين سنة ٦٥٠م، وأصبحت تابعة لدولة الصين في حوالى سنة ١٠٠٠. ثمّ رحل التاي إلى وادي "مينام" عندما دحر المغول نانكاو في سنة ١٢٥٣. بعد ذلك سيطرت عليهم أمبراطوريّة الخمير. ونشأت أمّة جديدة للتاي وجعلت عاصمتها "سوخوتاي". واقتبس التاي خلال هذه الحقبة الأبجديّة الخميريّة واتّصلوا بالحضارة الهنديّة القديمة. ويبدأ تاريخ تايلند الحديثة عند طرد الخميريّين في القرن الثالث عشر، حيث ظهرت من التاي أسرة مالكة اتّخذت "ايوثيه" عاصمة لها. وصل التجّار ورجال الإرساليّات البرتغاليّة إليه في القرن السادس عشر، وبقدومهم بدأت علاقات سيام بالدول الأوروبيّة الغربيّة.

هدّد البريطانيّون والفرنسيّون استقلال سيام في القرن التاسع عشر، غير أنّ السياميّين تمكّنوا من الاحتفاظ باستقلاله بأن جلبوا مستشارين أوروبيّين، وفتحوا موانئهم للتجارة الأوروبيّة، وأوقعوا بين البريطانيّين والفرنسيّين. ومع ذلك اضطرّت سيام إلى التنازل للفرنسيّين عن لاوس سنة ١٨٩٣، وأجزاء من كمبوديا سنة ١٩٠٧، وجهات أخرى. ولكنّ أسرة "شاكرى" الحاكمة التي تأسّست سنة ١٧٨٢ ولا تزال تحكم تايلند، أنجبت بعض ملوك كفاة، من بينهم "منكوت" الذي حكم ١٨٥١ ـ ١٩٦٨، و"شولا لنغكورن" الذي حكم ١٨٦٨ ـ ١٩١٠، فأدخلوا كثيرًا من الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وبذلك صانوا استقلالهم ضدّ دول الاستعمار، وظلّت سيام يحكمها ملوكها حكمًا مطلقًا حتّى سنة ١٩٢٢، حينما حدث انقلاب عسكريّ أكره الملك "براجادهيبوك" (حكم ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥) على منح دستور للبلاد[١].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل (٢٠٠١) ٢: ٦٦٨.

يذكر باحثون[1] أنّ أقدم شاهد على وجود البوذيّة في تايلند يرتبط بشعب الـ"مون MONS". وتدلّ شواهد أثريّة في بعض المواقع في سهل جنوب تايلند، مثل سهل "تكورن باتون NAKORN PATHON" حيث يوجد هيكل "ستوبا STUPA" القديم والضخم، على أنّ البوذيّة كانت تمارس طقوسها هناك منذ القرن الثاني الميلاديّ. ذلك أنّ هيكل "ستوبا" هو الضريح الذي كان يُقام على رفات بوذا، ثم تطوّر إلى "الباغودا" البوذيّة في جنوب شرق آسيا. ويبدو أنّ القِطَع الفنيّة التي عُثر عليها في ذلك الهيكل، وهي تماثيل لبوذا، وقطع من الفخّار عليها كتابات منقوشة، و"عجلة العقيدة التي تُعرف بالـ "والهما كارا"، هي لموضوعات تنتمي إلى القرن الثاني للميلاد. ويعتبر باحثون أنّ البوذيّة في هذه البلاد قد ظلّت منذ تلك الحقبة المبكّرة وحتّى قرب نهاية القرن السابع ميلاديّ، أساسًا لصورة الهينايانا البوذيّة. غير أنّها منذ القرن الثامن، أخذ يتزايد عليها تأثير المملكة المجاورة: "شري فيجايا SHRI-VIJAYA" الواقعة في سومطرة، وكان ذلك التأثير كبيرًا في ما يُسمّى الآن بجنوب تايلند. وقد شمل ذلك التأثير الحضاريّ الدين الذي كان كان سائدًا في سومطرة في ذلك الوقت، وهو خليط من مهايانا البوذيّة وبعض عناصر هندوسيّة. وتعود تماثيل بوذا التي عُثر عليها في تايلند تاريخيًّا إلى حقبة سيادة مملكة "شري ـ فيجايا"، وهي تعكس خصائص المهايانا. بينما يقلّ مثل ذلك في شرق تايلند الذي وقع في ما بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر تحت سيطرة أسرة الـ"خمير KHMERS"، وهي المملكة الهندوسيّة في المنطقة المعروفة الآن باسم كمبوديا، الأمر الذي نتج عنه تدفّق سيل من عناصر الثقافة الهندوسيّة.

غير أنّه في القرن الثالث عشر، كان شعب التاي يتحرّك بالفعل نحو شمال البلاد قادمًا من جنوب الصين، ثمّ انتشر في الجنوب مع مطلع القرن الرابع عشر.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٠.

وأثناء انتشاره استوعب صورة الهينايانا البوذيّة الخاصّة بشعب المون الذي يقطن السهل الأوسط. ومنذ ذلك التاريخ، نشأت في تايلند، على ما يبدو، علاقة تشبه تلك التي قامت في بورما بين الملك والرهبان، حيث نجد الحاكم في معظم الأحوال يبسط حمايته ورعايته على جماعة السنغا في مملكته. ولقد شهدت مدرسة "ترافيدا" البوذيّة حركة إصلاح في "سري لانكا" إبّان القرن الرابع عشر تحت حكم الملك المشهور "باركاما باهو PARKKAMA PAHU"، وجذب ذلك عددًا من الرهبان من تايلند إلى سري لانكا، وعندما عاد هؤلاء الرهبان إلى وطنهم أدخلوا فيه الإصلاحات التي أدخلت على الـ "ترافيدا" سواء في الممارسات أو التعليم. ومنذ ذلك الحين وصورة مدرسة الـ "ترافيدا" هي المسيطرة في تايلند.

في نهاية القرن الثامن عشر أُقيمت عاصمة جديدة في جنوب البلاد على نهر "تشاوفيا CHAO PHYA" أو نهر "مينام"، أوّلاً باسم "دهون بور DHONBUR" على ضفّة النهر الغربيّة، ثمّ بعد ذلك على الضفّة الشرقيّة المقابلة لدهون بور في "كرنغ تيب KRUNG THEP" أو "بانكوك". ولقد عُرفت أسرة ملوك تاي الذين أسّسوا هذه العاصمة الجديدة باسم "راما RAMA" وهي نفسها أسرة "شاكري CHAKKRI". وقد جرى العرف على أن يلحق باسم ملوك راما رقم معيّن. ومن أشهر هؤلاء الملوك: الملك راما الرابع المعروف كذلك باسم "مونغوت MONGKUT"، وقبل أن يصبح ملكًا، عقب موت أخيه عام ١٨٥١، كان قد عاش راهبًا بوذيًّا لمدّة ثلاثين عامًا، وظلّ في الجزء الأخير من هذه الحقبة رئيسًا للدير أو المعبد في بانكوك. وقد أدخل راما الرابع عددًا من الإصلاحات، وسعى إلى تطوير تفسير جديد للأفكار البوذيّة من منظور الفكر المعاصر، فقد كان هو نفسه عالمًا، وملمًّا بالثقافة الغربيّة في عصره. فكان تأسيس مدرسة متطوّرة "للسنغا" تُسمّى "داهما يتيكا DHAMMA YATIKA" واحدًا من أهمّ

إنجازاته، والواقع أنّ هذه المدرسة لم تُعرف كمدرسة مستقلّة من مدارس السنغا إلاّ في العهد التالي لمونغوت، وهو عهد ابنه "شولالونغكورن CHULALONGKORN" أو "راما الخامس". وقد خرّجت هذه المدرسة أفواجًا من الرهبان الذين بدأ مونغوت في تجميعهم عندما عيّن رئيسًا لمعبد "بوفورانيف BOVORANIVES " في بانكوك عام ١٨٣٧.

وفي خلال الأربع عشرة سنة التي حكم فيها مونغوت، اكتسب سمعة طيّبة استحقّها كواعظ ومعلّم وشارح لأفكار البوذيّة بمصطلح سهل يستطيع جميع المستمعين فهمه. وقد تعلّم اللغة اللاتينيّة من أسقف كاثوليكيّ كان جارًا له هو الأسقف "باللليجوا"، ثمّ تعلّم اللغة الإنكليزيّة من بعثة تبشيريّة تابعة للكنيسة المشيخيّة الأميريكيّة. واهتمّ بصفة خاصّة بالمعرفة العلميّة المعاصرة وتطبيقاتها العمليّة، كما أنّه كان يحتكّ باستمرار، في جولاته اليوميّة بوصفه راهبًا، بعامّة الناس في مدينة بانكوك، وعندما ترك الدير ليتولّى مسؤوليّات الملك بعد وفاة أخيه عام ١٨٥١، كان معبد "بوفورانيف" قد أصبح واحدًا من أعظم مراكز "السنغا" البوذيّة أثرًا في تايلند. ولم يسعَ "مونغوت" إلى تفسير "الاهما" تفسيرًا معاصرًا فحسب، بل نجح كذلك في أن يردّ لحياة "السنغا" بعض جوانبها الأساسيّة العامّة التي كانت قد طُويت. وقد أدّى تطهيره لحياة السنغا، وإصلاحه لنظامها، إلى تنشيطها وإنعاشها، الأمر الذي انتشر من الدير الذي كان يرأسه إلى أديرة أخرى كثيرة، وظلّت هذه العمليّة متواصلة حتّى يومنا الراهن[١].

يعتبر متعمّقون في دراسة الديانات الآسيويّة القديمة أنّ تايلند، تقدّم مثلاً جيّدًا لنوع الحياة الدينيّة، والأخلاقيّة، والإجتماعيّة، التي كانت "الترافيدا" البوذيّة قادرة على تطويرها وتدعيمها في جنوب شرقي آسيا، عندما تحرّرت من الآثار المدمّرة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

للاستعمار والشيوعيّة. لقد قنع الشعب تمامًا بالفرص التي قدمتها "الترافيدا" للتعبير عن الحياة الدينيّة وممارساتها، فقد عملت بعثات التبشير المسيحيّة بين أبناء شعب التاي لعدّة سنوات، فتلقّاها بروح طيّبة، واحترمها بصفة عامّة، ولكن لم يعتقد سوى أقلّ من ٢٪ من الشعب بضرورة التحوّل إلى ديانة أخرى.

وقد ذكر المرجع نفسه أنّه منذ عام ١٩٠٢، و "السنغا" تدير أعمالها مستقلّة عن الحكومة من خلال "مجلس السنغا الأعلى"، رغم أنّ الملك ظلّ بوذيًّا وراعيًا للنظام وحاميًا له. وقد نشط الرهبان في الوعظ، وتفسير العقيدة البوذيّة والأسلوب البوذيّ في الحياة في جميع أنحاء البلاد، لا عن طريق الاجتماعات المحليّة في المعابد فحسب، بل كذلك عن طريق الإذاعة والتليفزيون. وهكذا تمّ إرسال الرهبان في بعثات تبشيريّة بوذيّة إلى ماليزيا، والهند، ولاوس، ولإنكلترا. وأصبحت بعض الأديرة مراكز للخدمة الاجتماعية، شملت بداخلها مدارس مختلطة ومكتبات ومستشفيات. وفي عام ١٩٨٢ كان في تايلند ٢٤ ألف دير، و١٧٥ ألف راهب وراهبة، وحوالي ١٠٠ ألف راهب تحت الإعداد. ويتأرجح عدد الرهبان بين زيادة ونقصان، والسبب في ذلك هو أنّ كثيرًا من الناس لا يلجأون إلى حياة الأديرة إلاّ في مواسم المطر، أي من شهر حزيران (يونيو) حتّى شهر تشرين الأوّل (أكتوبر)[١].

غير أنّه في سنة ١٩٦٠، جرت أحداث في تايلند، دلّت بما لا يدعو إلى الشكّ، على أنّ الجيل الجديد في أكثر البلدان التي تدين بالبوذيّة غير قانع بها، وأنّ طبقة المثقّفين على وجه الخصوص، تنظر إلى الطقوس البوذيّة بشيء من السخرية. ويراها أكثرهم تاريخًا يصعب أن يعيش في الحاضر وأن يجاري مقتضيات الحياة الحديثة.

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٣.

وقد نتج عن ذلك الشعور فراغ في نفوس المثقّفين في هذه البلاد، وتحاول المسيحيّة جاهدة أن تملأ هذا الفراغ وأن تجذب لها هؤلاء المتردّدين. وفي سبيل ذلك تتبنّى المسيحيّة بعض طقوس البوذيّة واحتفالاتها حتّى تقرب من هؤلاء الشباب حتّى لا تبدو لهم شديدة البعد عمّا ألفوه، وما شاهدوا عليه أهليهم وذويهم. وممّا يساعد المسيحيّة في نضالها هذا ما تغدقه دول الغرب على مراكز التبشير بالمسيحيّة من مال ومعدّات ونفوذ. فبدأ في تايلندا زحف واضح للمسيحيّة، حيث قامت الكنائس والمدارس والمستشفيات المسيحيّة، وكثر عدد ناسخي الإنجيل باللغات المحليّة، وكانت تلك النسخ توزّع مجّانًا، وكذلك توزّع الصحف والمجلاّت والنشرات المسيحيّة. ولعلّ هذا الوضع ليس خاصًّا بتايلند وحدها، بل هو وضع شامل لدول شرقيّ آسيا، في إندونيسيا وبورما والملايا وسنغافورة والفيلبّين، مع اختلاف قليل أو كثير[1].

في كمبُوديا
وفي لاوُس

كمبوديا: دولة ملكيّة دستوريّة في جنوب شرق آسيا، عاصمتها "بنوم بنه"، تحدّها لاوس من الشمال، وفيتنام من الشرق، وخليج تايلند من الجنوب، وتايلند من الغرب. أكثريّة السكّان البالغ عددهم نحو ١٢ مليون نسمة تعتنق الدين البوذيّ، وتشكّل البوذيّة دين الدولة فيها. وقد ازدهرت كمبوديا في عهد أمبراطوريّة "خمير" في القرن السادس، وكانت مطمعًا لكلّ من سيام وأنام بين القرنَين الخامس عشر والتاسع عشر، فناشد ملكها الفرنسيّين التدخّل سنة ١٨٥٤، إلى أن أعلنت فرنسا حمايتها سنة ١٨٦٣،

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٩٠.

وأصبحت جزءًا من اتّحاد الهند الصينيّة سنة ١٨٨٤. وكان من نتائج المعاهدة السياسيّة الفرنسيّة سنة ١٩٠٧ أن استعادت كمبوديا المقاطعة الغربيّة. ثمّ منحتها فرنسا الحكم الذاتيّ في أعقاب الحرب العالميّة الثانية، واعترفت بها سنة ١٩٥٥ دولة مستقلّة انضمّت للأمم المتّحدة. وكانت قوّات "الفيت منه" الشيوعيّة قد غزتها في أوائل سنة ١٩٥٤، فنصّت اتفاقيّة جنيف المعقودة سنة ١٩٥٤ على انسحاب جميع القوات الأجنبيّة من كمبوديا. نزل ملكها "توردوم سيهانوك" عن العرش وأصبح رئيسًا للوزراء سنة ١٩٥٥، وقد استمرّ سيهانوك الشخصيّة الرئيسيّة في البلاد خلال الخمس عشرة سنة التالية حتّى سنة ١٩٧٠، شغل في جزء منها منصب رئيس الوزراء ١٩٥٥ ــ ١٩٦٠، وفي المدّة الباقية منصب رئاسة الدولة. وبنتيجة حدّة القتال في فيتنام ولسوء العلاقات بين الحكومة الكمبوديّة والولايات المتّحدة الأميركيّة، فإنّ قوّات الفيتنام الشماليّة مع قوّات "الفيت كونغ"، قد اتّخذت من الأراضي الكمبوديّة مواقع لها. وانعكس أثر ذلك في الصراعات الداخليّة حين تمكّن الجنرال "لون نول" سنة ١٩٧٠ من القيام بانقلاب عسكريّ يدعمه الأميركيّون انتهى بالإطاحة بسيهانوك الذي اتّخذ من بكّين مقرًّا له، وأخذ يدبّر مع الشيوعيّين القيام بحرب عصابات واسعة ضدّ حكومة الانقلاب في بنوم بنه. وفي ١٩٧٥ نجح الثوّار في الاستيلاء على العاصمة بنوم بنه والإطاحة بحكم لون نول، وفي نيسان (إبريل) ١٩٧٥ عاد سيهانوك رئيسًا للدولة بعد انتصارات قوّات الثوار الكمبوديّين على القوّات اليمينيّة. ولكنّه استقال في نيسان (إبريل) ١٩٧٦، وخلفه "هيوسامفان"، وتوقّفت الحرب في أيّار (مايو) ١٩٧٦ بين كمبوديا وفيتنام ووقّعت هدنة بينهما. واستولى "هينغ سامرين" على العاصمة بنوم بنه سنة ١٩٧٩، وأعلن نفسه رئيسًا للدولة، إلاّ أنّ الحرب الأهليّة التي شنّها الثوّار الذين تدعمهم الصين ظلّت مستمرّة. وفي سنة ١٩٨٩ انسحب الفيتناميّون وتركوا حكومة هون سن لمواجهة

تحالف معارض يضمّ الخمير الحمر وتدعمه الصين وتايلند. وفي سنة ١٩٩١ وقّعت جميع الطوائف على اتّفاق يقضي بوقف القتال. إلاّ أنّ سيهانوك قد تنكّر للخمير الحمر وتحالف مع هون سن وأصبح رئيسًا للدولة مرّة ثانية، وقد انسحب الخمير الحمر من عمليّة السلام واستأنفوا القتال. وفي انتخابات الجمعيّة الوطنيّة التي جرت سنة ١٩٩٣ نجّح مؤيّدو الملكيّة، وأعاد دستور جديد الملكيّة وأصبح سيهانوك ملكًا سنة ١٩٩٣.[١]

أمّا لاوس، فجمهوريّة تقع هي الأخرى في جنوب شرق آسيا، عاصمتها فينتيان، تحدّها الصين من الشمال، وفيتنام من الشرق، وكمبوديا من الجنوب، وميانمار وتايلند من الغرب. أكثريّة سكّانها البالغ عددهم نحو خمسة ملايين ونصف المليون نسمة بوذيّون، والبوذيّة دين الدولة. أمّا سكّان لاوس فأصلهم من الـ"لاو"، الذين يتحدّرون من قبائل التاي التي اندفعت جنوبًا من يونان الصين إلى أمبراطوريّة خمير في القرن الثالث عشر. كانت تحت نفوذ سيام منذ أوائل القرن التاسع عشر إلى سنة ١٨٩٣، ثمّ خضعت للنفوذ الفرنسيّ. تأسّست فيها الملكيّة سنة ١٩٤٧ وانضمّت إلى الاتّحاد الفرنسيّ سنة ١٩٤٩. نالت استقلالها سنة ١٩٥٤، وانضمّت إلى الأمم المتّحدة ١٩٥٥. مزّقتها الحروب الداخليّة التي تدخّل فيها الفيتناميّون من جهة والأميركيّون من جهة أخرى، إلى أن انسحبت القوّات الغربية من أراضيها وأُعلنت في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٥ جمهوريّة باسم جمهوريّة لاوس الشعبيّة بعد أن تنازل الملك "سافانغ فاتهانا" عن العرش[١].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٣: ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ٤: ٢٠٦٧ ـ ٢٠٦٨.

ظلّت المستعمرات الفرنسيّة السابقة في الهند الصينيّة لعدّة قرون تشمل عددًا من الممالك المستقلّة قبل أن يستعمرها الفرنسيّون في أواخر القرن التاسع عشر. وكان التراث الدينيّ البوذيّ هو المسيطر في كلّ هذه الممالك؛ إذ سيطرت مدرسة ترافيدا في كمبوديا ولاوس، والمهايانا في فيتنام، لكنّ تراث المهايانا كان هو السائد قبل القرن الثالث عشر في كمبوديا ولاوس أيضًا، وهو تراث اندمجت فيه عناصر من الديانة البراهميّة. ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت المجموعات الدينيّة الثلاث الممثّلة في كمبويا هي الهندوسيّة، والبراهمة عبدة الإله شيفا، ومدرسة الترافيدا البوذيّة. ونتيجة لتأثير التاي، منذ القرن الرابع عشر وما بعده، بدأت الترافيديّة تسيطر في كمبوديا بشكل متصاعد. ثم تأسّست دولة لاوس عام ١٣٥٣ بواسطة أمير من التاي، كان تلميذًا لأحد الرهبان البوذيّين في كمبوديا. ومنذ ذلك الحين ولاوس تتطوّر إلى بلاد تسودها الترافيدا البوذيّة التي ارتبط رهبانها بروابط وثيقة برهبان تايلند المجاورة[١].

في فيتنام

كانت المهايانا البوذيّة قد وصلت إلى فيتنام في حقبة سابقة للقرن الحادي عشر، ولقي فيها الرهبان البوذيّون قدرًا من الاحترام لتمايز طريقة حياتهم ومضمون تعاليمهم. وفي سنة ١٠١٠ تولّى أحد البوذيّين حكم فيتنام، واسمه "لي تايي ـ تو LY THAI TO"، ومنذ ذلك التاريخ حظيت بوذيّة "تشن" أو "زن ZEN" بمكانة مرموقة في البلاد. وكان خلفاء "لي تايي ـ تو" من أسرة "لي LY" في القرنَين الحادي عشر والثاني عشر حتّى سنة ١٢٢٥، أتباعًا متحمّسين لبوذيّة "زن"، ثمّ وقعت البلاد تحت سيطرة

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٤.

الصينيّين في أوائل القرن الرابع عشر ونتج عن ذلك نموّ الأثر الكونفوشيوسيّ، والتاويّ، وتراجع نشاط رهبان البوذيّة. أمّا في أوساط عامّة الشعب فقد أدّى ذلك إلى نشأة نزعة التوفيق الدينيّة. وخضعت البوذيّة مرّة أخرى لقيود صارمة في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر تحت حكم الاستعمار الفرنسيّ، وكان ذلك نتيجة لنموّ التأثير الكاثوليكيّ. وواصل بعض رهبان من الأقليّة المخلصة للبوذيّة ممارساتهم الدينيّة في عزلة، بينما ساند رهبان بوذيّون منخرطون في الحياة العامّة نزعة الـ"بونس BONSES" التي ضمّت عناصر من البوذيّة التنتريّة مع الديانات البدائيّة وتعدّد الآلهة. ومنذ بداية القرن العشرين، وحتّى اندلاع العداوات التي خربت البلاد في ستّينات ذلك القرن، بدأت البوذيّة في استرداد عافيتها بانتظام في فيتنام. وقد كان من أبرز أشكال إحياء البوذيّة الشكل الذي عُرف باسم "أميدا AMIDA" أي "الأرض الطاهرة"، وهي صورة من المهايانا التي نمت على حساب بوذيّة الـ"زن"، وإن كان تأثير مدرسة ترافيدا قد أخذ ينمو بدوره. وفي عام ١٩٥١ شُكّلت رابطة تضمّ جميع البوذيّين الفيتناميّين، وبقي رهبان البوذيّة الفيتناميّة يلتقون معًا لسنوات عدّة، ليس مع مواطنيهم فحسب، بل ومع البوذيّين من بلاد أخرى، وكانوا يزدادون وعيًا بأنّ البوذيّة جماعة دينيّة عالميّة. وبعد سنة ١٩٦٢ فُرض على قادة البوذيّة في فيتنام القيام بدور سياسيّ أكثر علانيّة، في الوقت الذي أحيا فيه بعضهم ممارسات المهايانا الصينيّة التي تقول بالتضحية بالنفس في سبيل بوذا. وتشهد الصورة الحديثة لهذه الممارسات لإيمانهم بالتراث البوذيّ وإخلاصهم له[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥.

في أندونيسيَا

يعترف الباحثون بأنّهم لا يعرفون الشيء الكثير عن تاريخ البوذيّة المبكّر في البلاد التي تُعرف الآن باسم أندونيسيا، ولكن يمكن القول بأنّها دخلت إلى جزيرة "جاوه" حوالي القرن الخامس الميلاديّ، وأنّها قامت بدور هامّ خلال القرون التالية في معظم المناطق الأخرى التي تُعرف اليوم باسم أندونيسيا. ويبدو أنّ دخولها هذه المنطقة جاء نتيجة لنفس الدافع التبشيريّ الذي اتّسمت به بوذيّة الهند. ولقد استقرّت في سومطرة في القرن السابع تحت حكم ملوك أسرة "SRIIJAYA" الذين كانوا يحكمون الجزيرة في ذلك الوقت. وشهد أحد الحجّاج البوذيّين الصينيّين بأهميّة مملكة "سرفيجيا" كمركز للتعاليم البوذيّة عندما زار جزيرة سومطرة خلال رحلاته. وقد أدّى الاحتكاك بالهند الشرقيّة إلى تطوّر في بوذيّة المهايانا في الهند انعكس في سومطرة، ومع مطلع القرن الثامن كانت الصورة التنتريّة للبوذيّة قد انتشرت هناك، ومنذ بداية القرن التاسع استقرّت البوذيّة تمامًا في شبه جزيرة الملايو التي كانت عندئذٍ تحت حكم أسرة "سلندرا SAILENDRA"، وفي "جاوه" بناءٌ ضخم يُعرف باسم الـ"بوربوديرBOROBUDUR"، وهو معبد فخم بالقرب من مدينة جاكارتا "بجاوه" حيث ترقد حفنة من رماد بوذا، منحوت على شكل هرم كبير، ويرجع تاريخه على الأرجح إلى القرن الثامن، وهو يدلّ على المكانة الكبيرة التي اكتسبتها البوذيّة في جاوه. وطوال المدّة التي اكتسبت فيها البوذيّة مكانة شعبيّة مرموقة في أندونيسيا، ظلت تتعايش على نحو وديّ وحميم مع المذهب "الشيفيّ" من الديانة الهندوسيّة، كذلك عملت البوذيّة التنتريّة على الحدّ من النزعة التوفيقيّة مع المعتقدات الدينيّة الوطنيّة في أندونيسيا، والملايو. ثم جاء الإسلام ابتداء من القرنَين الثالث عشر والرابع عشر وما بعدهما، ليحتلّ البوذيّة تدريجيًّا بطريقة سلميّة. مردّ ذلك إلى صورة الإسلام التي جاءت إلى أندونيسيا من الهند ونفذت بعمق

عن طريق الصوفيّة، فتحوّلت الأديرة البوذيّة إلى مراكز دينيّـة إسـلاميّة. كمـا أنّ نمـط الحياة الدينيّة الذي أقامته تلك المراكز الدينيّة الإسلاميّة، على الطريقـة الصوفيّـة، كـان يشبه نمط الحياة الدينيّة في النظام الاجتماعيّ البـوذيّ شـبهًا لـم يشـعر أحـد معـه بتغيّر كبير. وعلى الرغم من أنّ معظم سكّان أندونيسـيا الآن مـن المسـلمين، فـلا يـزال فيهـا بعض البوذيّين. وفي وقت أضحى عدد البوذيّين ضئيلاً في أندونيسيا، فإنّ ذلك لم يمـح الأثـر البـوذيّ تمامًـا، فالاحتفـال المُسـمّى "فـيزاك VASAK"، وهـو احتفــال بمولـد بـوذا وصحوته ودخوله النرفانا الأخيرة، أي الـ "بارينيرفانا PARINIANA"، لا يزال يُقام سنويًّا. كما أنّ هناك مركزًا بوذيًّا وديرًا في "باندونغ". بالإضافة إلـى ذلـك، يـرى بـاحثون[1] أنّ البوذيّة قد تركت بصماتها على كثير من جوانب الثقافة الأندوسيّة، ولعبت دورًا أساسيًّا في إضفاء سمات معيّنة على أندونيسيا المسلمة.

---

[1] بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٦.

بَادمَا سَمبَاهَافَا والبُوذيَّة في التِّيبت

البُوذِيّة في التِيبت؛

بادما سمباهافا والبوذّية في التيبت؛ الحِكمَة المَجنونَة؛

بادما راجا "أمير اللوتس"؛

ال"فاجرادارا"؛ دَرادَروك أو "زئير الأسد"؛

طِفلٌ يَعيش بطَريقَة تلقَائيّة؛ شاكيا سنغي؛

سنغي درادروك؛ بادما سمباهافا في التيبت.

البُوذيّة في التيبت

فيما يرى باحثون أنّ التيبت قد اعتنقت البوذيّة في نحو سنة ٦٣٠م[١]، يردّ التقليد دخول البوذيّة إلى التيبت على يد المعلّم الهنديّ "بادما سمباهافا" في القرن الثامن للميلاد[٢]. بينما يرى باحثون آخرون أنّ البوذيّة قد استقرّت في التيبت منذ القرن الحادي عشر[٣]. وفي عام ١٠٧٦ اجتمع في التيبت الغربيّة مجلس "ثو ـ لنغ THO-LING" وأتى إليه الرهبان، كما قيل، من جميع أنحاء البلاد، فبدا واضحًا منذ ذلك التاريخ أنّ البوذيّة قد انتشرت انتشارًا واسعًا في التيبت. وتميّزت حقبة النموّ من القرن الحادي عشر حتّى القرن الخامس عشر بظهور عدد من الحركات المختلفة. وقد نشأت هذه الحركات على نطاق واسع، كما يحدث عادة في أنواع أخرى من التراث الدينيّ، نتيجة للاختلافات الاجتماعيّة السيكولوجيّة بين الأتباع المختلفين المؤمنين بدين معيّن، ولعلّ نموّ تلك الحركات ينمّ عن حيويّة كبيرة اكتسبتها الديانة البوذيّة آنذاك في التيبت.

ويرى باحثون أنّه لا شك في أنّ البنغال المجاورة للتيبت، قد شهدت انتعاشًا للبوذيّة إبّان القرن الحادي عشر، وأنّ كثيرًا من الرهبان شقّوا طريقهم من البنغال إلى التيبت خلال ذلك القرن والقرون الثلاثة التالية. وقد افترض الباحثون أنّ مردّ هجرة

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص ٦٧.

٢ ـ سيكون لنا عودة مفصّلة إلى هذا التقليد.

٣ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٦.

الرهبان البنغاليّين هذه، يعود إلى صعوبات متزايدة لاقوها في تدعيم مراكز الأديرة في البنغال في خلال تلك الحقبة التي نمت فيها القوة الإسلاميّة في شمال الهند. وقد انتقلت الصورة التنتريّة من البوذيّة إلى التيبت في أواخر ذلك العهد، وجلب الرهبان معهم قدرًا من الروح السائدة في مراكز التعليم العظيمة من أمثال "نالندا NALANDA". وكانت النتيجة أن أصبحت المراكز المماثلة للأديرة ذات سمة خاصّة تميّزت بها بوذيّة التيبت واحتفظت بها حتّى القرن العشرين. ويروي باحثون عن راهب يدعى "ميلا MILA"، كان من الشخصيّات الكبيرة في القرن الحادي عشر في التيبت، ثمّ أضيف إلى اسمه لقب "REPA" أي "لابس القطن"، إشارة إلى تقشّفه التامّ في طريقة حياته، وارتدائه ثوبًا من القطن على الرغم من برودة الجوّ في التيبت، كما قيلت أشياء كثيرة حول زهده البالغ، فضلاً عن أنّه كان شاعرًا نظم "مائة ألف أغنية"، أصبح الكثير منها شائعًا عن أهل التيبت ولا يزال كذلك. وكان هذا الراهب نفسه تلميذًا لمعلّم اسمه "ماربا MARPA"، أسّس فرقة من أكثر الفرق شعبيّة اسمها "كا ـ غيو ـ با KA-GYU-PA" اهتمّت اهتمامًا خاصًّا بممارسة "اليوغا" وغيرها من الرياضات الروحيّة أكثر من اهتمامها بالحكمة الفلسفيّة. وهناك فرقة أخرى تقابلها عُنيت بالالتزام الدقيق بالشريعة التقليديّة لنظام الدير، وفرقة ثالثة اهتمّت بالسعي وراء الأفكار الفلسفيّة العميقة، وفرقة رابعة انصبّ اهتمامها على التنظيم الاجتماعيّ الذي كان من آثاره العارضة تقديم أسس راسخة للتنظيم الاجتماعيّ في البلاد بعد تدهور النظام الملكيّ. غير أنّ هذه الفرق المختلفة لم تكن متنافسة أو متناحرة داخل البوذيّة، بل كانت في حال انسجام ووئام، واتّفق على أنّ تنوّعها واختلافها جعلها تؤلّف معًا وحدة متجانسة، فكلّ فرقة تقدّر الفرق الأخرى، وتعتبرها أجزاء من كلّ شامل يشكّل البوذيّة في التبت[1].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.

ويرى باحثون أنّ البوذيّة التي سادت في التيبت ومنغوليا والصين واليابان، إلى جانب ما بقي منها في الأرجاء الشماليّة للهند، أعلنت ألوهيّة بوذا، وأحاطته بالملائكة والقدّيسين، واصطنعت تقشّف "اليوغا"، كما أعلنت تعاليم أقرب إلى نفوس الناس من الصورة السوداء المتشائمة المتزمّتة القديمة. وصوّر ذلك القسم من البوذيّة جنّة فيها بوذيّون كثيرون. وهذا الجنّة، وجهنّم التي تقابلها، كانت ثوابًا أو عقابًا لما يأتيه الناس على الأرض من خير أو من شرّ. وازدهرت في هذه البوذيّة الجديدة قدسيّة الآثار الباقية من السلف، واستخدام الماء المقدَّس والشموع والبخور والمسبحة والثياب الكهنوتيّة، والرهبان والراهبات، وقصّ الشعر، والصيام أيّامًا معيّنة، وتدشين القدّيسين والتطهير والصلاة والدعاء للموتى. وهكذا أصبح لبوذا في جميع أنحاء آسيا معابد، بناها أتباعه ووضعوا له في كلّ معبد تمثالاً، وأصبح الأتباع يأتون إلى هذه التماثيل بالأزهار يضعونها عند قدمَي التمثال ويحرقون البخور أمامه ويكرّمون ذكراه[١].

في القرن الرابع عشر، بدأت في التيبت حركة إصلاح هامّة بقيادة معلّم اسمه "تسونج كابا TSONG-KAPA" (١٣٥٧ ـ ١٤١٧)، نادى في حركته الإصلاحيّة بأن يعود رجال الدين إلى التقاليد البوذيّة فيحرموا على أنفسهم الزواج، ويلبسوا الملابس الخشنة تقشّفًا، ولكي يميّز أنصاره، دعا مريديه من رجال الدين إلى ارتداء أردية صفراء أو برتقاليّة، كما كان يفعل بوذا، وانتهت تلك الحركة بتشكيل فرقة "غيلوغ با GELUG-PA" المعروفة على المستوى الشعبيّ باسم "جماعة أصحاب القبّعات الصفراء"، وقد أحيَت هذه الفرقة تراث نظام الأديرة الدقيق، فأعضاؤها لا يتناولون الخمر، ولا يتزوّجون، على خلاف بعض رهبان التيبت الآخرين، ويتمسّكون بقدر عال من الأخلاق. وشاع

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص ١٣٨ـ ١٤١.

الاعتقاد بأنّ أحد رؤساء الأديرة الذي توفّي عام ١٤٧٥ قد تجسّد مرّة أخرى في جسد راهب شاب، وأنّه بدوره تجسّد بعد موته في راهب آخر. وهذا الـ "لاما LAMA" الذي تجسّد المرّة تلو الأخرى، ونُظر إليه بإجلال كبير، أطلق عليه اسم الـ"تالاي TALAI"، ومن هنا بدأت سلسلة الـ"تالاي" أو الـ"دلاي لاما".

ويرى باحثون أنّ البوذيّة "اللاميّة"، وهي محصورة في التيبت، قد أعطت جماعة البوذا والبوديساتفا زوجات رفيقات. واختلط الدين بعناصر سحريّة، منها "عجلة الصلاة" التي تشبه برميلاً يدور على قاعدة ويحمل في جوفه كتابات مقدّسة وصلوات. وهو مغلّف بجلد ثور الـ"ياك" ورموز مذهّبة. ويحمل المؤمنون نماذج مصغّرة منه أينما ذهبوا. وقد اكتسب رجال الدين في التيبت لقب "لاما" الذي يعني الشخص المتفوّق، منذ عهد مبكّر. ومنذ القرن السادس عشر صار قائدهم في العاصمة لاسا يُدعى "دالاي لاما". وكلمة "دالاي" تعني البحر، وترمز إلى عمق لا يحدّ[1].

وفي عام ١٦٤٢ أصبح أصحاب القبّعات الصفراء القوّة الحاكمة في التيبت، واستمرّوا على هذا النحو حتّى استولى الصينيّون على التيبت في العام ١٩٥٠، وكان الـ"دلاي لاما" بوصفه الزعيم الروحيّ لأصحاب القبّعات الصفراء، هو أيضًا رأس الدولة في التيبت، وقد أورد باحثون إمكانيّة مقارن مركز الـ"دلاي لاما" بوضع البابا في أوربّا الكاثوليكيّة، فهناك أوجه شبه بينهما، لكنّ الفارق الجوهريّ هو الاعتقاد بأنّ الدلاي لاما هو تجسيد لكائن سماويّ أو "بوديساتفا BODHISATTVA"، وهو أعظم "البوديستافات" الذين تقول بهم مهايانا الهند، والاعتقاد السائد هو أنّه عندما يموت الدلاي لاما يكون التجسّد التالي في طفل يولد بعد تسعة وأربعين يومًا، وهناك طريقة

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، ص٦٧.

معتادة، ومحدّدة تحديدًا جيّدًا، للبحث عن الطفل والتعرّف على ذلك الذي سيصبح الدلاي لاما الجديد؛ وذلك لتدريبه على الواجبات الروحيّة. والتيبتيّون يقصدون رجال الدين كي يصلّوا لحمايتهم طول حياتهم. وفي الاحتفالات يتوجّهون إلى الأديرة من كلّ الأنحاء، حاملين الملابس والمآكل للرهبان[١].

ظلّ عدد من أديرة التيبت قائمًا لمدّة تبلغ الثمانية قرون حتّى عام ١٩٥٠، كما ظلّ مسايرًا لتراث جامعات الأديرة في الهند بوصفها مراكز كبرى للتعليم. وكانت دراسة التاريخ تمثّل أحد الاهتمامات الرئيسيّة عند عامّة الشعب، فالمؤرخ "بو ـ ستون BU-STON"، وهو من أهل التيبت، هو الذي كتب أهمّ وأشهر كتاب في تاريخ بوذيّة الهند. أمّا بوذيّة عامّة الناس في التيبت، فقد تشرّبت الكثير من الديانة المبكّرة التي سبقت البوذيّة، وكانت تُعرف باسم "بون BON" أو "PON"، وكانت ضربًا من "الشامانيّة SHAMANISM"، مع عبادة الأرواح والآلهة الحارسة من مختلف الأنواع. وكان إله التربة، وهو أحد الآلهة الهامّة، يتمّ تبجيله بواسطة عصًا مستقيمة، أو عمود تتمّ زخرفته في الغالب بقطع من الخرق أو القماش الملوكيّ. ولهذا وصف الرحّالة الذين مرّوا بالتيبت أهلها بأنّهم مشغولون بصفة مستمرّة "بعجلة الصلاة"، إذ إنّهم يقدّمون الصلوات إلى هؤلاء الآلهة كلّما فرغوا من أعمالهم الأخرى، وكانت هذه سمة من سمات الديانة السابقة للبوذيّة. أمّا أعظم خاصيّة للرمز البوذيّ، وهي "المعبد" أو "الباغودا"، فكانت له صورة خاصّة في التيبت معروفة باسم "تشو ـ تن CHO-TEN" وهو منظر مألوف في التيبت. ويشير "ريتشاردسون H. E. RICHARDSON" وهو أحد مؤرّخي التيبت المحدثين، إلى أنّ السمات التصويريّة المعتادة في بوذيّة التيبت، هي

---

١ ـ صعب، الأديان الحيّة، مرجع سابق، ص٦٧.

التي كثيرًا ما لفتت أنظار الغربيّين، في وقت لا نسمع إلاّ قليلاً عن التقى اللافتة للنظر والتأثير الأخلاقيّ للحياة الهادئة في الأديرة. وهو يضيف إلى هذا أنّ حياة عامّة الناس يسودها التديّن الصادق الذي لا يثير ولا يلفت الأنظار، وهو يمارَس داخل الأسرة، ويُعَدّ عنصر تماسك واستقرار في حياة أهل التيبت[1].

لقد كان الأثر البارز الذي تركته البوذيّة في شعب التيبت، تحويل القبائل التي كانت في السابق مولعة بالقتال والعدوان، إلى شعب مسالم بلغت نزعته إلى المسالمة حدّ النفور من القتال والعجز عن مقاومة الغزوات التي كانت تشنّها من الشمال شعوب أخرى من غير أهل التيبت. وآخر مثال على ذلك هو سيطرة الصين على البلاد بحجّة أنّ التيبت، من الناحية السياسيّة، جزء لا يتجزّأ من الصين، وهو ادّعاء يقوم على أساس أمثلة تاريخيّة أقدم لحكم صينيّ مماثل. وقد نتج عن هذه السيطرة تشكيل جذريّ جديد لبنية الحياة التقليديّة في التيبت التي اختفت تقريبًا في ما يبدو داخل التيبت نفسها، وإن احتفظت لنفسها بوجود قلق بين المهاجرين من التيبت الذين يعيشون فوق التلال الملاصقة لسلسلة جبال الهملايا في شمال الهند، حيث تقدّم الحكومة الهنديّة الصديقة بعض المؤن لهؤلاء اللاجئين، بهدف إنقاذ ما تبقّى من ثقافتهم التقليديّة. ويرى باحثون[2] أنّه يمكن تصوّر أنّ جماعة التيبت في شمال الهند، تستطيع أن تقوم في المستقبل بدور ما في إعادة استقرار البوذيّة في البلد الأصليّ الذي جاءت منه. وقد أعيد فتح "قصر بوتالا" في عام ١٩٨٠ في "لهسا" للبوذيّين من أهل التيبت، كما سمح لبعض الحجّاج بزيارته[3].

---

١ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.

٢ ـ بارندر، المعتقدات الدينيّة لدى الشعوب، ص٢٩٩.

٣ ـ المرجع السابق.

بادمـــا سمباهافـــــا
والبوذيّة في التيبت

عقد "المبجّل تشوجيام ترونجبا ريبونكي" ندوتَين حول "الحكمة المجنونة" في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٢، استغرق كلّ منهما نحو أسبوع. وتمّت الندوة الأولى في فندق مهجور في "التيتون" قرب "جاكسون هول" في مدينة "وومنغ"، أمّا الثاية فقد عُقدت في أحد مباني "الجيمنزيوم" في مدينة قديمة في قرية "فيرمونت" في منطقة "بارنيت" التي تقع في أسفل الطريق من مركز التأمّل الذي أسّسه "ترونجبا رينبوكي"، والذي يُطلق عليه الآن إسم "كارمى تشولنغ"، وكان يُعرف حينذاك بـ"ذيل النمر". وقد وصل رينبوكي إلى القارّة الأميركيّة سنة ١٩٧٠، فوجد أميركا تموج بالتغيير الإجتماعيّ، وتهزّها عوامل مثل "الهيبي" أو الخنافس الوجوديّين، بالإضافة إلى ما يُسمّى بـ"السوبر ماركت الروحانيّ". واستجابة لتعاليمه "الطاغية" بأسلوبه المباشر والواضح النفاذ إلى الأعماق، فقد تكوّن كيان كامل من الطلبة الملتزمين وانضمّ إليهم عدد متزايد منهم طوال الوقت. وقد تُرجمت ندوتا ترونجبا إلى العربيّة[١]، وهما تدوران حول "بادمـــا سمباهافـــــا" وفلسفة البوذيّة. عن هذه الترجمة، نقتبس بتصرّف ما جاء في هذا الكتاب تحت عنوان: "بادمـــا سمباهافـــــا والبوذيّة في التيبيت".

من المفترض أن يكون بادما سمباهافا قد وُلد بعد وفاة بوذا باثنَي عشر عامًا، أي حوالى ٤٥٨ق.م.، واستمرّ في الحياة المتوالدة مرّة بعد أخرى، إلى أن ذهب في القرن الثامن ميلاديّ إلى التيبت لنشر مبادئ "البودهاراما" هناك. وكان بادما سمباهافا مدرّسًا

---

١ ـ تشوجيام ترونجبا، الحكمة المجنونة، دراسة في الفلسفة البوذيّة في الصين، تعريب د. فوزي درويش، مكتبة مدبولي (القاهرة، ١٩٩٦)

هنديًّا روحيًّا عظيمًا وُجّهت إليه الدعوة للقدوم إلى التيبت، لكنّ أهل التيبت أظهروا مقدرة ضئيلة لفهم كيفيّة الترحيب بمعلّم روحيّ، ينادي بالروحانيّة، فقد كانوا على إصرار وعناد، أفظاظًا وغير مصقولين، ويمثّلون كلّ أنواع العقبات لأنشطة بادما سمباهافا في بلادهم.

عندما وصل بادما سمباهافا إلى التيبت، لم يكن أهلها يعرفون عبادة أجنبيّة خارجيّة وافدة عليهم، ولم يكن لديهم مجال لآلهة الهندوس، ولم يكونوا حتّى على علم بكلمة "براهما". وما كان لديهم هو "بيشين" الذي يُعتبر المقابل اللفظيّ في تقاليد "البيون"[1] للمطلق فمقطع "يي" يعني "البدائيّ" أو "الأساس"، ومقطع "شين" معناه "السلفي"، أو "القديم" أو حتّى "السماويّ". فيكون المعنى الكامل للـ"بيشين": العلاقة بالأسلاف والمستمدّ منهم، أو "الصديق العظيم". وهو المعنى المشابه لمعنى كلمة "شين" اليابانيّة التي تُترجم بـ"السماء"، ولمعنى كلمة "تا" الصينيّة وترجمتها "ذلك الذي هو أعلى". وكلّ هذه المسميّات الثلاثة ترتبط بشيء ما أعظم، بشيء ما أعلى. فهناك عمليّة صعود إلى أعلى تتضمّنها هذه المسميّات، ويمكن ربطها بالتنّين، والرعود، والسحاب، وبالشمس والقمر والنجوم... إنّها ترتبط بذلك الشيء "الأعلى"، الأسمى، وبالنمط الكونيّ الأعظم.

وبقدوم بادما سمباهافا إلى التيبت كان عليه أوّلاً الانطلاق في تعاليمه من زاوية جديدة تمامًا، مستعملاً مدخلاً جديدًا لرسالته. فقبل ذلك التاريخ، كان بادما سمباهافا يتعامل مع الهندوس ومع البراهما. أمّا ما واجهه في التيبت، فكان مختلفًا تمامًا عن ذلك. وقد كان التعامل مع هذا الوضع، مع ذلك من خلال المنطق، أمرًا بالغ الصعوبة لبادما سمباهافا، لأنّ حكمة البيون وتقاليد مذهبهم كانت شديدة الغور، بل بالغة العمق.

---

١ ـ **بيون**: وغالبًا ما تُكتب "بون"، هي عقيدة أصليّة سابقة لدخول البوذيّة لمنطقة التيبت.

فإذا كان على بادما سمباهافا أن يتحدّى أنصار البيون هؤلاء باستخدام المنطق، فإنّ المدخل الوحيد الذي كان عليه أن يتبعه هو أن يكون قد قال إنّ الأرض والسماء وحدة واحدة، وإنّ السماء على هذا النحو لا توجد. لأنّ السماء والأرض تعتمد كلّ منهما على الأخرى. ولكنّ ذلك منطق مهتزّ جدًّا، لأنّ كلّ امرئ يعلم أنّ هناك الأرض، وأنّ هناك السماء، وأنّ هناك الجبال، والنجوم والكواكب والقمر... وأنّه لا يمكن للمرء تحدّي هؤلاء بالقول بأنّه ليس هناك أرض ولا جبال، ولا شمس، ولا قمر، ولا سماء، ولا نجوم.

إنّ الفلسفة الأساسيّة للبيون قويّة جدًّا. وهي تشبه إلى حدّ بعيد معتقدات الهنود الأميركيّين، والشنتو، أو الطاويّة، بالنسبة للنظرة الكونيّة. وكان على بادما سمباهافا أن يجد المدخل السليم بطريقة غير عاديّة. وهنا تبرز مشكلة، ترتبط بشكل أساسيّ بالشقّ التسلسليّ للمدخل. فالعالم قد تمّ خلقه للكائنات الحيّة، والحيوانات تشكّل الوجبة الغذائيّة التالية للبشر، وجلودها هي ما يلبسه البشر في المرحلة القادمة. والمدخل الأنتروبولوجيّ أو السلاليّ ينقصه السلامة الأساسيّة: فهو لا يستطيع أن يحترم الأساس الاستمراريّ للوعي الضميريّ. وبناء على ذلك، فإنّ عقيدة "البيون" تصف تضحية الحيوان للتشيني، أو الإله العظيم. وهنا مرّة أخرى نجد تشابهًا بين معتقد الهنود الأميركيّين، وبين النظرة التي تتّسم بها ديانة الشنتو، التي تتّخذ البشر كصلب للكون. وتبعًا لتلك النظرة العاميّة، فإنّ الحشائش والشجر، والحيوانات المفترسة، والشمس والقمر... خُلقت لخدمة البشر. فالنظام بكامله مبنيّ على الوجود البشريّ. وهذه هي المشكلة الكبرى بالنسبة لمعلّم في العقيدة البوذيّة التي لا تستطيع أن تشكّل مدخلاً وطنيًّا دينيًّا. فالعقائد أو الديانات الوطنيّة تميل إلى أن تكون مؤمنة بوجود إله أو آلهة. فالمسيحيّة، مثلاً، ورثت مدخلها الإلهيّ من اليهوديّة، وكذلك الهندوسيّة وكثير من

الديانات الأخرى، فهي ديانـات ذات طـابع وطنـيّ، وهـي الأخـرى تؤمـن بوجـود إلـه. ولهذه الديانات شعور خاصّ بالعلاقة القائمة بين "هذا" و"ذلك"، بيـن الأرض، والسـماء. والمدخل الذي لا يؤمن بوجود الإله هو مدخل صعب تقديمه في بلد بدائـيّ يعتقد سلفًا بديانة إلهيّة. فالطريق الذي يرتبط به أناس ذلك القطـر ببقـائهم الأساسـيّ يحتـوي سلفًا على شعور بالأرض بالنسبة للسماء العليا. وشعورهم بالنسبة للعبادة يكون نتيجة تطوّر طبيعيّ لمعتقد سابق. لذلك فإنّ المبشّرين اليسوعيّين والكاثوليك عمومًا قـد قـاموا حديثًـا بتطوير طريقة يقولون فيها للناس البدائيّين "نعم، إنّ آلهتكم تعيش بـالفعل، هـذا حقيقـيّ، ولكنّ إلهي أكثر حكمة من إلهك، لأنّه كلّيّ الوجود، فائق القدرة..." لكنّ البوذيّة تواجـه مشكلة مختلفة تمامًا. فليس هنالك من مكـان للنقـاش بيـن إلهـك وإلهـي، بـل: "أنـت لـك إلهك، ولكن أنا ليس عندي إله". وهكذا فإنّ المدخل هنا يفتقر للعظمة أو القوّة، إذ ليـس لدى المبشّر ما يعوّض به عمّا سيفقده المؤمـن بآلهـة معيّنـة عنـد انتقالـه إلـى البوذيّـة. والشيء الوحيد الذي يعوَّض به، في هذه الحالة، هـو "الحكمـة المجنونـة"، كمـا سُمّيت البوذيّة في بداية وصولها إلى التيبت. فالعقل شديد القوّة، والكلّ لديه العقل، بما في ذلك الحيوانات. كلّ امرئ له عقل. يبقـى أن يتخلّـى المـرء عـن عقلـه ليصبـح بوذيًّـا... أن يكون مجنونًا.

إنّ المدخـل الـذي اتّبعـه بادمـا سـمباهافا كـان فـي هـذا المسـتوى الـذي لا يعـترف بالألوهيّـة، ولا بالسـببيّة: "إنّ الـبرق يحـدث لأنّـه يحـدث بـالفعل، وليس لأنّ هنـاك أيّ سبب..." وكذا تنتفي الـ"لماذا"؟ أو الـ"من"؟ أو "ما الذي اشترك فـي هـذا..." إنّـه يحـدث بالفعل. والأزهار تتفتّح لأنّ ذلك يحدث، إنّ الأمـر هـو كذلـك. ولا نسـتطيع أن نجـادل بأنّه ليس هناك أزهار. إنّ كلّ شـيء يحـدث علـى هـذا السـطح الدنيـويّ، يحـدث علـى مستوى مستقيم تمامًا.

كان أهل التيبت يعتقدون بأنّ الحياة موجودة، وأنّ الـ"أنا" موجود، وأنّ أنشطة الأنا هي في سبيل الحياة: فالعمل مع الحيوانات يعني الألبان، والعمل في الحقول يعني الثمار، وأنّ الزراعة والألبان والحقول موجودة بالفعل. وكانت نظرة "البيون" العامّة تقول بأنّ "هذه الأشياء موجودة، لأنّه يجب عليّ أن أقوم بتغذية طفلي، أن أحلب البقرة، أن أزرع محاصيلي، أن أصنع الزبد والجبن. إنّني أعتقد في هذه الحقائق. إنّ تقاليدنا في البيون صالحة لأنّها تعتقد في تغذية الحياة، وفي جلب الغذاء من الأرض من أجل تغذية النشء. وهذه الأشياء البسيطة موجودة". هذه هي العقيدة، وهذه هي الحقيقة، طبقًا لتقاليد البيون.

هذه البساطة تشبه ما هو سائد في التقاليد الأميركيّة الهنديّة. فقتل جاموسة هو عمل خلاّق لأنّ لحمها يطعم الجائع، وذلك ينظّم أيضًا تنمية قطعان الجاموس، وبهذه الطريقة يمكن الحفاظ على نوع من التوازن، إنّه ذلك النوع من المدخل الأيكولوجيّ. ولسان حال الأميركيّ "الأحمر" يقول: "أنت لديك الأرض، وأنت تبني خيمتك، وترتبط مع أولادك وأحفادك وأحفاد أحفادك، ولك كرامتك وشخصيّتك، وأنت لا تخاف من أيّ تهديد، وأنت تطوّر صفاتك كمناضل. وبعد ذلك عليك أن تفكّر كيف تتناول أمور أولادك، كيف تعلّمهم احترام الأمّة، وأنت تعلّمهم تعليمًا صحيحًا ليكونوا مواطنين صالحين". كما أنّ هذا النمط من الفلسفات، ليس محصورًا في أوساط الأميركيّين الحمر، لكنّه وُجد أيضًا بين عنصر السلت، والإسكندنافيّين في ما قبل المسيحيّة، وفي اليونانيّين والرومان. ومثل هذه الفلسفة يمكن وجودها في ماضي أيّ أمّة كانت لها عقيدة قبل المسيحيّة أو البوذيّة، فهي عقيدة الخصب والأيكولوجيا، مثل تلك التي كانت موجودة عند اليهود، والسلت، والهنود الأميركيّين، أو غيرهم. وإنّ مدخل احترام الخصوبة والارتباط بالأرض لا يزال قائمًا، وهو مدخل قويّ جدًّا وجذّاب.

لقد ظنّ أهل التيبت أنّ بادما سمباهافا سيعلّمهم بعض التعاليم الروحيّة الجميلة حول كيفيّة المعرفة بأساس العقل. وكانت هذه التوقّعات من جانب أهل التيبت هائلة، وكان على بادما سمباهافا أن ينفذ من خلال طبقات التوقّعات التي بناها أهل التيبت، ومن خلال كلّ افتراضاتهم حول كنه الروحانيّة. ويمكننا أن نتصوّر صعوبة أن يأتي ساحر هنديّ عظيم ورجل حكيم، أحد أساتذة "التانترا"[1] إلى أرض الجليد، في هضبة التيبت. ولكنّه في النهاية تمكّن من اختراق تلك التوقّعات، وبدأ أهل التيبت يوقنون أنّ الروحانيّة عبارة عن النفاذ من خلال الأمل والخوف، بالإضافة إلى الاستكشافات المفاجئة للذكاء، الذي يجب أن يسير جنبًا إلى جنب مع هذه العمليّة.

لقد كان بادما سمباهافا قدّيس التيبت البوذيّ وعالم اليوغا الهنديّ العظيم، الذي أدخل التعاليم البوذيّة الكاملة إلى التيبت. ومن المفترض أن يكون بادما سمباهافا قد وُلد بعد وفاة بوذا باثنَي عشر عامًا. واستمرّ في الحياة وذهب إلى التيبت في القرن الثامن لنشر مبادئ بوذا هناك. وقد فتح مبدأ بادما سمباهافا عقول ملايين البشر في التيبت، وهو يفتح أذهان الناس في هذا البلد وفي بقيّة أنحاء العالم.

لقد كان عمل بادما سمباهافا في التيبت هو إدخال تعاليم بوذا هناك بالاتّصال مع برابرة التيبت. وكان أهل التيبت في تلك الأيّام يؤمنون بنفس، وبسلطة عليا خارج النفس، والتي عرفوها بأنّها الإله. وكان دور بادما سمباهافا هو تدمير هذه المعتقدات. وكان مدخله لذلك: "إذا لم يكن هناك اعتقاد في النفس، إذن فليس هناك اعتقاد في الإله". وهو مدخل لا يؤمن بوجود إله تمامًا. كما كان دخوله إلى التيبت يعني تدمير هذه الكيانات الروحيّة الخادعة التي تؤمن بوجود إله، والتي كانت قائمة في ذلك البعد.

---

١ ـ **التانترا:** هي أحد أواخر كتابات الهندوسيّة أو البوذيّة التي تتّسم بالسحر والغموض.

لقد قدم بادما سمباهافا إلى التيبت وأدخل فيها البوذيّة. وأثناء قيامه بإدخالها اكتشف أنّه ليس عليه فقط تدمير المعتقدات البدائيّة لأهل البلد، بل أن يرفع مستوى وعيهم في ذات الوقت، ليغرس فيه ما ينبغي غرسه.

إنّ أسلوب بادما سمباهافا هو "الماديّة الروحانيّة التي تتجاوز نطاق المحسوس، والتي تعنى بتطوير السلامة النفسيّة الأساسيّة. وأسلوب الحكمة المجنونة هو بناؤك: بناء ذاتك". ومبدأ بادما سمباهافا لا ينتمي إلى الشرّ، ولا إلى الطيبة... لا إلى نعم، ولا إلى لا. إنّه مبدأ يسعى إلى إراحة وتسكين كلّ شيء موجود في مواقف حياتنا مع بعضها البعض. ولأنّ هذا النشاط موجود في مواقف حياتنا، فإنّ مبدأ بادما سمباهافا صار بمقدوره أن يجلب البوذيّة إلى التيبت. وبمعنى ما، فإنّ المعتقدات التي تؤمن بوجود إله، والتي كانت موجودة في التيبت، كان ينبغي تدميرها لتكون هناك نقطة بداية لكي تولد فكرة التانترا. لكنّ أهل التيبت كانوا أناسًا ذويّ قوّة حينما جاء إليهم بادما سمباهافا. ولم يكونوا يعتقدون في الفلسفات، أو في أيّ ما يقوله الحكماء. ولم يكونوا ينظرون إلى ذكاء أيّ حكيم على أنّه نوع من الحجّة، وكانت تقاليد البيون السائدة في التيبت راسخة جدًّا وقويّة، وقاطعة وسليمة. ولم يكونوا يعتقدون بما يقوله بادما سمباهافا من الناحية الفلسفيّة حول التعاليم مثل "الذات العارضة". فلم يكونوا ليعيروا مثل هذه الأمور التفاتًا، إنّما سوف ينظرون إلى هذا التحليل المنطقيّ على أنّه مجرّد مجموعة من الألغاز أو الأحاجي ـ ألغاز بوذيّة.

وطبقًا لتقاليد "البيون" في التيبت كان هناك مدخل غامض تجاه التغلّب على حالة الانفصال هذه، تنبني على مبدأ "الأدفايتا" أي مبدأ "إنعدام الثنائيّة". ولكن حتّى مع هذا المبدأ، و"حتّى تصبح أنت الأرض نفسها، أو تصبح خالق الوجود، فإنّك لا تستطيع حلّ مشكلاتك". وهناك بعض الاحتفالات الخاصّة بالبيون تعكس مستوًى بدائيًّا جدًّا من

المعتقدات التي تتعلّق بالتغلّب على حالة الانفصال. والفكرة تتلخّص في أنّه ينبغي أن نبتدع شيئًا ما للعبادة ثمّ نأكل هذا الشيء الذي نبتدعه، أو نمضغه، ثمّ نبتلعه، وبمجرّد أن نهضمه فعلينا أن نعتقد أنّنا أصبحنا "أدفايتا" تمامًا، أي لسنا شيئَين بل شيئًا واحدًا. وهذا أشبه ما يكون بما يحدث في التقاليد المسيحيّة عند الاحتفال بالعشاء الربّاني.

إنّ مدخل الحكمة المجنونة هو أن تفقد الأمل. ليس هناك أمل في أن تفهم كلّ شيء على الإطلاق. فالأمر أشبه بمحاولة التوصّل إلى الذي يسيطر على الجسم أو على العقل، ومَن الذي له الصلة الأقرب مع الله. أو مَن الذي له علاقة أوثق مع الحقيقة كما يقول البوذيّون. وأنّه وجد أنّ الحقيقة لا علاقة لها بالإله. لكنّ المسيحيّين أو أصحاب الديانات التي تؤمن بوجود إله، ربّما قالوا بأنّ الحقيقة موجودة، لا صانع هذه الحقيقة موجود. إنّه موقف عديم الأمل بشكل مطلق. ونحن لا نفهم، وليس لدينا الإمكانيّة للفهم. إنّه عديم الأمل أن تبحث عن شيء تفهمه، أو عن شيء تكتشفه، لأنّه ليس هناك اكتشاف على الإطلاق في نهاية المطاف، ذلك ما لم نصنع ذلك الشيء. ولكن إذا ما استطعنا بالفعل صنع شيء نكتشفه، فلن نكون سعداء بذلك في ما بعد. هذا على الرغم من أنّنا سوف نجاهد لذلك، وسوف نعلم أنّنا إنّما خدعنا أنفسنا، ولسوف نعلم أنّه كان هناك لعبة سرّيّة كانت تدور "بيني" وبين "ذلك". لذلك فإنّ العمليّة التمهيديّة للدخول في الحكمة المجنونة لبادما سمباهافا هي فقدان الأمل، والتخلّي عن الأمل "كليّةً"، فليس هناك من أحد يجلب لك الراحة أو يقدّم لك المساعدة. إنّ الفكرة برمّتها لمحاولة العثور على جذور، أو العثور على منطق لاكتشاف الحكمة المجنونة، هو أمر منعدم الأمل تمامًا. فليست هناك أيّة أرضيّة، ومن ثمّ فليس هناك أيّ أمل.

الحِكمَـــةُ
المَجنُونَة

عرّف الباحثون شخصيّة هذا "القدّيس المعلّم" بأنّها كانت ذات "ثمانية جوانب" يمكنها أن تشرح الحكمة التي نادى بها وحاول نشرها في التيبيت. وإنّ الصفة الفريدة لـ"الحكمة المجنونة" في حالة بادما سمباهافا هي الاستثارة الروحيّة المفاجئة. وإنّ هذه "الجوانب العدّة" للبادما سمباهافا ليست عمليّة ذات خطّ للنسب، بل هي تحدث في آن واحد. وفي الحقيقة، فإنّ التعبير التقليديّ هو "عدّة أسماء" للبادما سمباهافا، وليس "ثمانية جوانب".

ما هو مبدأ الإسم؟ ولماذا يسمّى "اسمًا" وليس "جانبًا؟"

حينما نشير إلى الجوانب، فنحن نشير إلى الاختلافات في الوجود الأساسيّ. كأن نتحدّث عن جانب من جوانب أبٍ لأحد الأشخاص، أو جوانب مدرّسٍ لهذا الشخص، أو جوانب رجل أعمال. وفي هذا الاستخدام العاديّ هناك فكرة التغيير التي تصاحب الأدوار المختلفة. وهذه الفكرة لا تنطبق على البادما سمباهافا. أمّا حيازته لأسماء مختلفة، فلها علاقة بالطرق المختلفة التي يرى بها الناس الآخرون بادما سمباهافا، وليس بما أصابه من تغيير. لذلك فكلمة "اسم" تتضمّن هنا معنى "العنوان". والجملة التي يستخدمها أهل التيبيت هي "جورو تسن جي" أي "الأسماء الثمانية للمعلّم الروحيّ". فكلمة "تسن" هي الكلمة الشرفيّة في التيبيت المقابلة لكلمة "اسم". وربّما نظر بعض الناس إلى بادما سمباهافا بمعنى "الأبوّة"، في حين ينظر إليه آخرون على أساس معنى "الأخوّة". ولا يزال العديد الآخر ينظر إليه كعدوّ. لذلك فإنّ النظريّات المختلفة تفرض نفسها طبقًا للطريقة التي يرى الناس أنّها هي الأساس الذي تُبنى عليه الأسماء الثمانية لبادما سمباهافا. وكيفما كان الحال فإنّ ظهوره أو تجلّيه الوحيد هو الحكمة المجنونة.

ووصف الشخص الذي تحلّى بالحكمة المجنونة يمكن العثور عليه في التعاليم المكتوبة. وهي: "أنّه يُخضع مَن يحتاج إلى إخضاع، ويحطّم مَن يحتاج إلى أن يتمّ تحطيمه". والفكرة هنا هي كيفما كانت متطلّبات حالتك المرضيّة العصابيّة، فإنّك حين ترتبط مع شخص يتحلّى بالحكمة المجنونة فإنّك تُصاب بالصدمة من ذلك. فالحكمة المجنونة تقدّم لك مرآة عاكسة. ولهذا فإنّ الحكمة المجنونة لبادما سمباهافا عالميّة النطاق. والحكمة المجنونة لا تعرف الحدود ولا المنطق الذي تتّخذه. إنّ المرآة لا تعرف حلاً وسطًا معك إذا كنت قبيح الشكل. ولا جدوى من إلقاء اللوم على المرآة أو كسرها. وكلّما كسرت المرآة كلّما صدرت انعكاسات وجهك من أجزاء متباعدة من هذه المرآة. لذلك فإنّ طبيعة حكمة بادما سمباهافا أنّها لا تعرف أيّ حدود أو حلول وسط.

بادماراجـــــا

"أمير اللوتس"

وُلد بادما سمباهافا في منطقة الهملايا بين الهند وأفغانستان في مكان يُسمّى أوديانا والتي سُمّيت منذ ذلك الحين "سوات"، وكان مكانًا جميلاً تحيط به الجبال التي تغطّي أعاليها الثلوج. والمنطقة بكاملها تشبه منتزهًا صناعيًا. فهناك البحيرات ونباتات اللوتس، والهواء العليل والمناخ المثاليّ. وكانت إحدى تلك البحيرات تسمّى بحيرة "سندو". وكانت مغطّاة بأوراق اللوتس. وكانت إحدى نباتات اللوتس كبيرة على غير المعتاد، ولم تكن تتبع نفس النمط المعتاد بأن تتغيّر مع تغيّر الفصول، وقد ظهرت في بداية "عام" "القرد" واستمرّت في نموّها على امتداد الفصول. وحلّ فصل الشتاء ثمّ أتى الربيع والخريف وأتى فصل الصيف، لكنّ زهرة اللوتس هذه لم تتفتّح مطلقًا. وفي النهاية، وفي اليوم العاشر من الشهر العاشر من عام القرد تفتّحت اللوتس، وكان هناك

صبيّ جميل المنظر في داخلها، يجلس على كأس الزهرة، وكان يبدو عليه مظهر صبيّ في سنّ الثامنة. وكانت بادية عليه ملامح الاحترام والرغبة في معرفة كنه الأشياء، واحتشدت جموع النحل والطيور حول هذا الصبيّ الجميل تمدحه. وكانت تُسمع أصوات الموسيقى دون أن يكون هناك أيّ عازف. وكان المكان بكامله يعمّه شعور بالقدسيّة والصحّة، والغموض. وكان الصبيّ يشبه أميرًا قد أُحيط بعناية فائقة. ولم يكن يشعر بأيّ خوف، بل كان يبدو عليه السرور من وجود المحيطين به، كما يبدو عليه الانبهار بالعالم خارجه.

ذلك كان مولد بادما سمباهافا. وأهمّ من أسطورة مولد بادما سمباهافا، صفاته. لقد كان "طفلاً كبير السنّ"، وهذا أمر متناقض بالطبع. كان طفلاً جميلاً يافعًا، حكيمًا قويًّا، طفلاً لم يتلقَّ أيّ عناية ولم يشبّ على رضاعة اللبن، ولم يأكل أيّ طعام آخر، ولكنّه عاش على الهواء القراح، وبسبب هذه الصفات، عُرف باسم "بادماراجا"، أي "أمير اللوتس"، وهو الجانب الأوّل من جوانب بادما سمباهافا.

لقد كان دائم الاستفسار، لمّاحًا، ممتلئ الشباب، لم يمسّه شيء. وطالما أنّه لم يمسّه شيء مطلقًا فإنّه لم يكن يشعر بالخوف من أن يلمس أيّ شيء. وكان محاطًا ببعض الأتباع الذين يقدّمون له بعض الهدايا ويضربون الموسيقى. وكان هناك حتّى بعض الوحوش والحيوانات المفترسة، كلّها تقدّم له الاحترام في هذه البحيرة المنتعشة التي لم يلوّثها أحد. لقد كان المنظر الطبيعيّ في تلك المنطقة التي شهدت ولادة بادما سمباهافا يشبه نظيره في كشمير، حيث يوجد جبل يلفّه الهواء العليل، وتبدو قمم الجبال من حوله يكسوها الجليد، وهناك جوّ من الانتعاش ونقاء الجوّ، وفي نفس الوقت بعض الإحساس بالوحشة والغربة.

بالنسبة لطفل يولد في هذا المكان المنعزل الموحش في وسط بحيرة وفي وسط زهرة اللوتس، فهذا يتجاوز ما يدركه العقل. فمن ناحية، لا يمكن تصوّر ولادة طفل داخل زهرة لوتس. ومن ناحية أخرى فإنّ منطقة موحشة كهذه وجبليّة ليست مكانًا سهلاً يتلقّى مولد طفل يموج بصحّة وعافية وجمال. فمثل هذا المولد أمر مستحيل، ومع ذلك فإنّ الأشياء المستحيلة تحدث حتّى قبل أن ينشط خيالنا إزاءها، لذلك فإنّنا يمكن أن نصفها طبيعيًّا على أنّها غير قابلة للتصوّر، حتّى "خارج حدود البصر" أو "خارج حدود الإدراك".

وُلد بادما سمباهافا في زهرة اللوتس في تلك البحيرة، من دون أبوَين، من دون والدَين لتربيته نحو رجولة مسؤولة ومحسوسة، ولم تكن به حاجة لأن يتعلّم، لقد وُلد أميرًا، صبيًّا، جذّابًا، فاتنًا، وذكيًّا ذكاءً مبهِرًا؛ وقيل إنّه وُلد من زهرة لوتس كما لو كان عنده سلفًا ثمانون سنة. لم يكن يخشى لمس أيّ شيء على الإطلاق. إنّ الحياة تضربنا بعنف وبصورة مستمرّة وتسبّب لنا الاضطراب، لكنّ البعض منّا يستطيع عبور نهر الحياة الهائج، والبعض يعمل بكدح شديد، وفي النهاية يتوصّلون إلى هدوء البال. أمّا بادما سمباهافا فغير مفعم بالتجربة، والحياة لم تضربه بعنف. إنّه بمجرّد أن وُلد في زهرة لوتس وسط بحيرة في مكان ما في أفغانستان، فهذه رسالة مثيرة، مثيرة بشكل غير عاديّ. إنّ المرء يمكن أن يصبح مستنيرًا وطفوليًّا أيضًا، وهذا يتّسق مع الأشياء كما هي: فإن كنّا متيقّظين، فإنّنا أطفال فقط. وفي المرحلة الأولى من تجربتنا، فإنّنا مجرّد طفل، يتّسم بالبراءة لأنّنا رجعنا إلى حياتنا الأصليّة.

لقد تمّت دعوة بادما سمباهافا إلى بلاط الملك "أندرابوتي" الذي طالما صلّى لأن يكون له إبن، ولم يحظ بذلك. وكان الملك قد طلب من أحد البستانيّين الذين يعملون في قصره أن يجمعوا بعض أزهار اللوتس وبقيّة أزهار الجبال في المنطقة المحيطة

بالبحيرة، ولشدّة ما اعترت الدهشة أحد هؤلاء البستانيّين، وغمرته السعادة، حين اكتشف زهرة لوتس ضخمة مع صبيّ يجلس عليها، ولكن، في الوقت نفسه، اعتراه الخوف من الغموض الذي يكتنف الصبيّ. وعاد يروي عمّا وجد للملك الذي أمره بإحضار الصبيّ واللوتس أيضًا. وتبنّاه الملك باعتباره ابنًا له ليكون ملك المستقبل، وتمّ إجلاس بادما سمباهافا على اللوتس وتتويجه كأمير على منطقة "أوديانا"، وأُطلق عليه اسم "بادما راجا"، أو "بيما جيالبو"، وفي التيبت "ملك اللوتس".

عاش بادما سمباهافا في القصر حيث اكتشف المواقف البهيجة، وكان يحظى بالرعاية والتربية. ولكن بعد انقضاء بعض الوقت بدأ الطعام والثروة ووسائل الراحة من كلّ نوع يصيبونه بالملل والضجر، فقرّر الملك أندرابوتي، في لحظة معيّنة، أن يرتّب زواجًا لبادما سمباهافا ليقترن بابنة ملك مجاور، حتّى يجد بادما سمباهافا رفيقًا يلعب معه. ونظرًا لبراءته كانت لديه تحفّظات على ذلك. ولكنّه في النهاية عقد العزم على المضيّ فيه. وكبر الأمير الصغير ونما واكتشف أمر الحياة الجنسيّة، ونظام الزواج والارتباط بزوجة. واكتشف الطعام والثروة والصحبة، وحثيثًا حثيثًا أدرك أنّ العالم من حوله لم يعد بهذه الرقّة، وليس بنعومة أوراق اللوتس، فالعالم أصبح مثيرًا، مسرحًا للعب، مثله كمثل طفل أُعطي للمرّة الأولى لعبة ضخمة يمكن ضربها وفكّها إلى أجزاء متناثرة ثمّ تركيبها مرّة ثانية.

هذه قصّة حيّة عن رحلة إلى الأمام نحو الخارج. بدأت من البراءة الأساسيّة من مستوى الدارماكايا، وهي الحالة البدائيّة للطبيعة البوذيّة، فعلينا أن نندفع إلى الأمام، إلى الخارج، وعلينا أن نرتبط مع ما يزخر به العالم من دواعي اللعب كما هي بالنسبة لمستويات السامبوجاكايا والنيرفاناكايا. ويقدّم لنا بادما سمباهافا، كطفل، هذه الحالة من عمر الطبيعة كصفة كاملة. حيث لا يكون هناك ثنائيّة، فليس هناك "هذا"، وليس هناك

"ذاك" هذه الحالة تنتشر انتشارًا كاملاً. هناك أيضًا شعور بالنشوة، لأنّ هذه الحالة هي حالة إجماليّة شاملة، فليس هناك نقطة مرجعيّة. وحين لا تكون هناك نقطة مرجعيّة فلن يكون هناك بالتالي ما يكدّر أفكار أيّ أمرئ أو تصوّراته. إنّه شيء مطلق نهائيّ كليّةً. وانطلاقًا من ذلك، فإنّ بادما سمباهافا وقد تزوّج، فقد أصبح أكثر قدرة على اللعب والمناورة. فقد بدأ تجربة قدرته على الهجوم، واكتشف أنّ بإمكانه استخدام قوّته على إلقاء أشياء وأشياء يمكن أن يصيبها الكسر. ونفّذ هذا العمل إلى أقصى حدّ، هو تعلّم أنّ لديه القدرة على حيازة الحكمة المجنونة في داخله. وقام بالرقص ماسكًا بيدَيه صولجانَين: صولجان الـ"قاجرا" وصولجان "الترايدنت"، على سقف القصر. وأسقط الصولجانَين ووقعا فأصابا امرأة وابنها كانا يمشيان في أسفل القصر، فقتلاهما على الفور. وصادف أن كانا زوجة وابن أحد وزراء الملك. وأصابت "القاجرا" رأس الصبيّ وضربت "الترايدنت" أو الحربة قلب الأمّ.

لقد كان لهذه الواقعة أصداء خطيرة. وعزم الوزراء على مباشرة نفوذهم على الملك، وطلبوا منه أن يرسل بادما سمباهافا بعيدًا عن المنطقة، وأن ينفيه من المملكة، لأنّه أتى عملاً ضدّ القانون، والقتلة لم يكن يُسمح لهم بالبقاء في المملكة. فقد كان كلّ شيء في المملكة يتمّ بطريقة صحيحة وطبقًا للقانون، حتّى أنّ هذا الطفل الغامض الذي وُلد من نبات اللوتس كان عليه أن يغادر البلاد... وذلك ما كان يبحث عنه بادما سمباهافا. فقد كان يودّ النفاذ من هذا الموقف، وأن يستمرّ في استكشافاته من كلّ نوع.

وقام الملك بنفي بادما سمباهافا. وكان ذلك الإجراء شديد الأسى على الملك، غير أنّه كان على اللعبة المتعلّقة بظواهر العالم أن تأخذ شكلها القانونيّ. فظواهر العالم عبارة عن نظام أساسيّ قانونيّ. واللعبة في نطاق هذه الظواهر لها سبب، كما أنّ لها أثر يحدث باستمرار من خلاله. وهذا لا يعني القول بأنّ بادما سمباهافا كان يخضع

لفكرة "الكرمَا"، بل إنّه بالأحرى كان يكتشف قانونيّة "الكرمَا" أي التفاعل بين أصول الكرمَا[1] والعالم الخارجيّ، ذلك العالم المضطرب الذي صاغ حياة بادما سمباهافا ليكون مدرّسًا، وليس بالأحرى ما أعلنه نفسه بالقول: "أنا مدرّس"، أو "أنا منقذ العالم" فلم يعلن شيئًا مثل هذا. لكنّ العالم بدأ في جعل بادما سمباهافا يكون في قالب مدرّس أو منقذ. ويُعتبر واحدًا من التعبيرات التي أطلقها العالم، والتي جعلت هذه العمليّة ماضية في هذا السبيل، هي حقيقة أنّه قام بهذا العمل العنيف، الذي أسفر عن طرده من مملكة أندرابوتي، وكان عليه أن يذهب إلى أرض المقابر في منطقة "سيلواتسال" أي "المقبرة الباردة"، وهي تقع في مكان ما من منطقة بودجايا في جنوبيّ الهند.

قد يكون من الضروريّ أن نسأل عمّ تمثّل هذه الشخصيّات التي وردت في أسطورة حياة البادما سمباهافا، الملك أندرابوتي، الأمّ والإبن؟

كان إحضار أندرابوتي لبادما سمباهافا إلى القصر نقطة البداية، لتعلّمه كيف يعمل مع تلامذته، ومع الأناس المضطربين، ولقد قدّم أندرابوتي أوّل مثال للعقل المضطرب بالنسبة لشخصيّة الأب.

وصولجان "القاجرا" الذي قتل الصبيّ يعني العدوان. أمّا صولجان "الترايدنت" فيرتبط بالحكمة، لذلك فإنّ المرأة التي تمّ قتلها بواسطته تمثّل الجهل.

بعد أن مرّ بادما سمباهافا بتجربة حالة يقظة العقل، وبعد أن مرّ بالتجربة الجنسيّة والعدوان وكلّ المباهج الموجودة في العالم، لا يزال هناك حالة عدم التأكّد حول كيفيّة العمل بالاستعانة بهذه العمليّات الدنيويّة. لم يكن بادما سمباهافا غير موقن بمعنى كونه

---

١ ـ الكرمَا: في البوذيّة والهندوسيّة هي القوّة المتولّدة من أفعال المرء لتخليد الهجرة وتحديد مستقبل المرء في حياته الثانية.

مضطربًا، ولكن حول كيفيّة قيامه بالتدريس، وكيف يتّصل بالحاضرين، فقد كان الطلبة أنفسهم يشعرون بالرهبة، لأنّهم، من ناحية، لم يتعاملوا من قبل مع شخص مستنير، فالعمل مع هذا الشخص هو أمر غير عاديّ وحسّاس ومثير للبهجة. ولكن في الوقت نفسه يمكن أن يكون مدمّرًا تمامًا. فإذا فعلنا الشيء الخاطئ فيمكن أن نصاب، وأن يلحق بنا الدمار، إنّ ذلك يشبه اللعب بالنار. لذلك فإنّ تجربة بادما سمباهافا بارتباط العقل "بالسمسارا" أي بالـ"إضطراب"، تظلّ مستمرّة: لقد تمّ طرده من القصر، واستمرّ مع ذلك في صنع اسكشافات أبعد غورًا. والاسكشافات التي صنعها في هذه النقطة هي الخلود. والخلود هنا بمعنى أنّ تجربة الصحوة تظلّ مستمرّة دون ذبذبات، ودون الحاجة إلى اتّخاذ قرارات بالنسبة لهذا الأمر. وعند هذا الظرف، وبالنسبة للجانب الثاني، يصبح انعدام القرار الخاصّ تجربة بادما سمباهافا في التعامل مع الكائنات ذات الحسّ أمرًا عظيمًا.

الـ"فاجرادارا".

"الفاجرادارا" اسم سنسكريتيّ. و"فاجرا" معناها "غير قابل للتدمير"؛ و"دارا" معناها "القبض"، ولذلك يكون هذا التعبير عبارة عن "القابض على انعدام التدمير" أو "القابض على ما لا يتزحزح". والفاجرادارا هذا هو مبدأ أو حالة ذهنيّة تمتلك القدرة على عدم الخوف. إنّ الخوف من الموت ومن الألم ومن البؤس، كلّ تلك المخاوف أمكن تجاوزها. وبتجاوز هذه الحالات، فإنّ خلود الحياة مستمرّ في ما وراءها. ومثل هذا الخلود لا يعتمد بصفة خاصّة على مواقف الحياة. وبصرف النظر عن قيامنا بجعلها أكثر سلامة. وسواء أحرزنا طول العمر أم لا. إنّه لا يعتمد على أيّ شيء من هذا القبيل. إنّ هذا الموقف الخاصّ بالخلود يختلف تمامًا عن فكرة الخلود بمعناها الروحانيّ التقليديّ. فالفكرة التقليديّة تتضمّن أنّه إذا أنت بلغت مستوى معيّنًا من السموّ الروحيّ،

فإنّك سوف تكون حينذاك متحرّرًا من المولد ومن الموت، وسوف تعيش إلى الأبد وتكون قادرًا على ملاحظة لعبة العالم، وتكون لك القدرة أيضًا على السموّ على كلّ شيء. إنّها بمثابة فكرة "السوبرمان" الذي لا يمكن تحطيمه، والمنقذ الجيّد الذي يساعد كلّ الناس على استخدام إمكانيّات السوبرمان. هذه الفكرة العامّة للخلود والروحانيّة يعتريها التشويه بعض الشيء، وتشبه إلى حدّ ما الصور المتحرّكة: فالسوبرمان الروحانيّ له القوّة والقدرة على الآخرين، ومن ثمّ يمكنه بلوغ امتداد الحياة التي هي استمرار لقوّته فوق الآخرين. وطبيعيّ أيضًا أن يساعد الآخرين في نفس الوقت.

وباعتباره فاجرادارا، فإنّ تجارب بادما سمباهافا حول الخلود أو بقائه بمثابة الخلود أمر مختلف تمامًا. فهناك شعور بالاستمراريّة لأنّه قد تجاوز خوف الميلاد والموت والمرض، وأيّ نوع من أنواع الألم. فهناك حياة دائمة، ولكنّ الأمر بالأحرى هو أنّ العالم هو الذي يعيش ويبقى، وعلى ذلك فإنّه هو العالم، والعالم هو. إنّ لديه القوّة فوق العالم، لأنّه لا يمتلك القدرة فوق العالم. إنّه لا يريد أن يمسك في يدَيه بأيّ نوع من المناصب باعتباره شخصًا قويًّا في هذه النقطة. وبما أنّه فاجرادارا، فبادما سمباهافا قد بلغ حالة الخلود. ولقد وصل إلى هذه الحالة لأنّه وُلد كصبيّ نقيّ وبريء تمامًا بحيث لا ينتابه أيّ خوف من اكتشاف عالمَي الولادة والموت، أو العاطفة أو العدوان. كان ذلك بمثابة الإعداد لوجوده، ولكنّ اكتشافاته استمرّت إلى ما وراء هذا المستوى. إنّ المولد والموت وبقيّة المخاطر يمكن رؤيتها من جانب العقل "السامساري" أو المضطرب، باعتبارها أجزاء متينة من العالم المتين. ولكن بدلاً من رؤية العالم باعتباره موقفًا مليئًا بالمخاطر، فإنّه بدأ برؤيته باعتباره بيتًا له. وبهذه الطريقة بلغ الحالة البدائيّة الأولى بالنسبة للخلود، والتي تختلف تمامًا عن حالة تخليد الذات. والذات تتطلّب الحفاظ على نفسها بصفة مستمرّة، وإنّها تحتاج إلى طمأنة نفسها

باستمرار. ولكن في هذه الحالة ومن خلال الماديّة الروحانيّة التي تسمو على المحسوس، تمكّن بادما سمباهافا من بلوغ التقدّم واستمرار الوضع القائم على تلقّي الإيحاءات من زملائه من البشر الذين أصابهم الاضطراب، أي الكائنات ذات الحسّ.

إنّ الأمير الشاب الذي تمّ إجلاؤه من القصر ظلّ يجول حول أرض المقابر. وكانت هنالك الهياكل العظميّة الطافية مع الشعر الطافي. وكان هناك ابن آوى وكذلك النسور تحوم حول المكان وتصدر عنها الأصوات المختلفة. كذلك كانت رائحة الجثث العفنة تملأ المكان، لكنّ الأمير الشاب المهذّب كيّف نفسه على رؤية هذه المناظر جيّدًا، رغم تعارض أشكالها وألوانها. لقد كان عديم الخوف، أصبح انعدام الخوف هذا نوعًا من الراحة، وألف المكان حين كان يجول أدغال أرض المقابر في "سلواتسال" بالقرب من بودجايا. لقد كانت هناك أشجار لها منظر مرعب وأحجار وصخور تبعث على الخوف، فضلاً عن بقايا أحد المعابد. لقد كان الشعور الغامر هو شعور الموت والخراب. ولقد هجره الجميع وطُرد من مملكته. لكنّه ظلّ يجول كما لو لم يكن قد حدث شيء. وفي الحقيقة فإنّه كان ينظر إلى هذا المكان على أنّه قصر آخر على الرغم ممّا كان منه من مناظر مرعبة. ولمّا رأى عدم استمراريّة الحياة، فقد اكتشف خلود الحياة، واكتشف كذلك أنّ عمليّة التغيّر المستمرّ للموت والمولد تحدث باستمرار.

ولقد كانت هناك مجاعة في المنطقة القريبة، وكان الناس يموتون بوتيرة سريعة. وفي بعض الأوقات كانوا يُحضرون إلى أرض المقابر بعض الجثث لأناس نصف أموات، لأنّ الناس كانوا مصابين بالإعياء الشديد نتيجة العمليّة المستمرّة للموت والمرض. وكانت هناك أفواج من الذباب والديدان واليرقات والأفاعي. وهذا هو بادما سمباهافا الأمير الشاب الذي طُرد لتوّه من قصر مرصّع بالجواهر جعل من ذلك منزلاً له، ولم يجد أيّ فارق أبدًا بين أرض المقابر هذه والقصر الذي كان ينعم فيه.

إنّ عالمنا المتحضّر منظّم بكيفيّة لا يمكننا فيه رؤية أماكن مثل أرض المقابر هذه. فالجثث يجري حفظها في أكفان وتُوارى في مثواها الأخير بطريقة محترمة. ولكن هناك الفوضى التي تدور حولنا طوال الوقت، ونواجه المواقف التي توجد فيها أراضي المقابر في حياتنا بصفة دائمة. ويحيط بنا أناس أنصاف أحياء، وهياكل عظميّة في كلّ مكان. ومع هذا فإنّنا بالتعرّف على بادما سمباهافا، نستطيع أن نرتبط بذلك كلّه دون أيّ خوف. ويمكن أن تلهمنا هذه الفوضى، بدرجة كبيرة، بحيث تصبح نظامًا بشكل ما. وهي فوضى يمكن أن تكون على نسق، وليس بالأحرى فوضى مضطربة، لأنّه بمقدورنا الاتّصال بالعالم كما هو.

لقد ذهب بادما سمباهافا في طريقه ليعثر على أقرب كهف. وقام بعمليّة التأمّل على أساس مبدأ الخلود الذي تتضمّنه الطبيعة البوذيّة، وهي الطبيعة القائمة بصفة دائمة، لا يمسّها أيّ خطر أو تهديد على الإطلاق. والتيقّن من هذا المبدأ هو واحد من المراحل الخمسة للفيديادارا. إنّه المرحلة الأولى التي تُسمّى فيديادارا الخلود.

وفيديادارا الخلود هذه تعني "ذلك الذي يمسك بيده بالمعرفة العلميّة" أو "ذلك الذي أنجز الحكمة المجنونة". وعلى ذلك فإنّ المرحلة الأولى للحكمة المجنونة هي حكمة الخلود. فليس هناك ما يهدّدنا على الإطلاق، فكلّ شيء هو بمثابة حلية. وكلّما تعاظم قدر الفوضى، كلّما أصبح كلّ شيء بمثابة حلية. وهذه هي حالة الفاجرادارا.

قد نتساءل: كيف تسنّى لأمير شاب بريء أن يحصل على مثل هذه التدريبات، حتّى أنه أصبح بمقدوره التعامل مع مواقف أرض المقابر؟ بيد أنّ بادما سمباهافا لم يكن بحاجة إلى مثل هذا التدريب، لأنّه كان مستنيرًا في لحظة ولادته. لقد كان خارجًا من الدارماكايا إلى السامبوجاكايا، ولا يحتاج الوهج المفاجئ للاستنارة إلى أيّ تدريب،

ولا إلى نظام تعليميّ. إنّها أمور موروثة بالطبيعة ولا تعتمد على أيّ نوع من التدريب على الإطلاق.

دَرادَروك أو
"زئير الأسد"

قال المحاضر: إنّنا لا نتحدّث عن بادما سمباهافا من زاوية تاريخيّة خارجيّة، أو من زاوية خارجيّة أسطوريّة. إنّنا نحاول الوصول إلى النخاع داخل العظام، إلى الجانب اللحظويّ أو البدائيّ منه، وكيف ارتبط بالحياة من خلاله. وهذا أسلوب مقدّس أو "تنتارا" لرؤية حياة بادما سمباهافا في مقابل ما يجري اعتباره والتأويلات التي تنظر إليه على أنّه مجرّد شخص تاريخيّ أو أسطوريّ، مثل الملك آرثر أو أيّ شخص من هذا القبيل. فإنّ القصّة في مضمونها تُبنى على علاقات الأحداث في حياة بادما سمباهافا وفي تعاليمه. وتلك هي وجهة النظر التي صيغت، انطلاقًا منها، قصّة بادما سمباهافا باعتباره الأمير الشاب، وباعتباره الشاب "السيِّد" أو اليوغا في تمامها، في أرض المقابر. وهذان الجانبان مهمّان بامتياز لبقيّة حياة بادما سمباهافا.

لقد ظهرت المرحلة التالية لبادما سمباهافا من الحاجة إليه ليجري قبوله في الحياة الديريّة. وكان يقتضي ترسيمه "بيكشو" أي راهبًا. وارتباطه مع حياة الدير ونظمه في هضبة التيبت كان أمرًا مهمًّا، لأنّ تلك الحياة أمرته بالسير في شكل نظاميّ. وتمّ ترسيم بادما سمباهافا من جانب "أناندا" أحد تلامذة مجالس بوذا. واتّخذ بادما سمباهافا، باعتباره راهبًا، إسم "شاكيا سيمها"، أو" شاكيا سنغي"، ومعنى الإسم في الحالتين "أسد قبيلة شاكيا". وقد كان ذلك أحد الأسماء البوذيّة، ذلك أنّ بوذا نفسه كان يُعرف في بعض الأحيان باسم "حكيم شاكيا"، ومن خلال هذا الإسم أصبح بادما سمباهافا معروفًا بالتقاليد البوذيّة. وكان ذلك أمرًا هامًّا جدًّا، لأنّ المرء يحتاج إلى شعور هائل بالعلاقة

مع خطّ النسب. ولذلك فإنّ بادما سمباهافا ربط نفسه بخطّ النسب وأيقن أهميّة الدور الذي يلعبه ذلك.

إنّ خطّ النسب البوذيّ هو خطّ السلامة الدائمة، هو بمثابة مدخل صحيح للحياة. وأن يصبح الإنسان راهبًا فهذا معناه أن يعيش عيشة سليمة ومقدّسة، لأنّها عيشة انغماس كلّيّ مع الأشياء كما هي. إنّها ارتباط مع الحياة من زاوية أنّ لحظة معيّنة تسمح بشعور من الحياة القويّة، بشعور من "الإجماليّة"، بشعور أنّ المرء لا تدفعه العاطفة، ولا العدوان، ولا أيّ شيء على الإطلاق... إنّه يتعامل مع الأشياء كما تسمح له حياة الدير، ليس إلاّ. وكما تطوّر بادما سمباهافا في دوره الديريّ، فقد أصبح مرّة أخرى يظهر على شكل أمير شاب متراهب، عقد العزم على أن يكون المنقذ للعالم، الذي يأتيه برسالة "الدارما".

في أحد الأيّام قام بادما سمباهافا بزيارة أحد أديرة الراهبات، حيث كانت تقيم إحدى الأميرات واسمها "ماندارافا"، وكانت من توّها قد أصبحت راهبة وتحوّلت كليًّا عن مباهج العالم الأرضيّ، واختارت أن تعيش حياتها في عزلة، وكان يتولّى حراستها خمسمائة امرأة، مهمّتهن التأكّد من أنّها تحافظ على نظام الدير. وحين وصل بادما سمباهافا إلى الدير، أُعجب به كلّ مَن فيه، وكان هذا أمرًا طبيعيًّا. فقد كانت لديه براءة ذلك الذي وُلِد من نبات اللوتس، كما كان يتمتّع بهيكل طبيعيّ مثاليّ، وكان جميلاً جدًّا، ولقد استطاع أن يحوّل كافّة النسوة في الدير، وأصبحن جميعًا من تلامذته.

وسرعان ما سمع الملك، والد ماندارافا عن ذلك. ولقد روى أحد رعاة البقر أنّه سمع صوتًا غير عاديّ يصدر من الدير، صوت رجل يعظ ويصرخ. ولقد ظنّ الملك أنّ ماندارافا كانت راهبة كاملة الرهبنة بشكل مطلق، وأنّها لم تكن على أيّ صلة من أيّ نوع مع الرجال، لذلك فإنّه استشاط غضبًا لِما سمعه من راعي البقر، وعندما

أرسل الملك وزراءه ليستجلوا ما كان يحدث في الدير، لم يُسمح لهم بالدخول إليه، فساورتهم شكوك بأنّ شيئًا غريبًا كان يحدث هناك، وعادوا أدراجهم إلى الملك الذي قرّر أن يرسل فرقة من الجيش لتحطّم بوّابة الدير، ليتمّ الدخول إليه عنوة، والقبض على ذلك "الوغد" الذي يدّعي أنّه مدرّس. وبالفعل، نفّذت فرقة الجيش أوامر الملك وقبض عناصرها على بادما سمباهافا ووضعوه في محرقة من خشب الصندل وأضرموا فيها النار، جريًا على الأسلوب المتّبع في الإعدام في تلك المملكة. كذلك تمّ إلقاء الأميرة في حفرة تعجّ بالأشواك والقمل والبراغيث، بناء على أوامر الملك.

واشتعلت النار التي أُلقي فيها بادما سمباهافا واستمرّت في اشتعالها سبعة أيّام، وقيل ثلاثة أسابيع، في وقت كانت العادة تقضي بأنّه إذا تمّ إعدام شخص ما بهذه الطريقة، يجب ألاّ تستمرّ النار مشتعلة سوى يوم أو يومَين على الأكثر. وأمام استمرار النار في اشتعالها طوال أيّام، بدا الأمر غير طبيعيّ، ما دفع الملك إلى التفكير بأنّه ربّما كان هناك أمر غير عاديّ بالنسبة لهذا الرجل الذي يتظاهر بأنّه أب روحيّ، وأرسل رجاله للتقصّي، لكنّهم رأوا النار قد اختفت، وأنّ المنطقة التي كانت فيها النار قد تحوّلت إلى بحيرة كبرى، وكان في وسط هذه البحيرة بادما سمباهافا يجلس مرّة أخرى على نبتة اللوتس. وحين سمع الملك هذا الخبر، عقد العزم على أن يستجلي المزيد حول هذا الرجل، وقرّر ألاّ يدع الأمر في يد رسول، فذهب بنفسه لرؤية بادما سمباهافا. وحين وصوله إلى المكان، أدهشه وجود هذا الرجل جالسًا على نبتة اللوتس في وسط البحيرة، التي كانت أرضًا للمقابر، ومكانًا لحريق المجرمين. واعترف الملك بما اقترفه من إثم وما أقدم عليه من تصرّف خاطئ في حقّ بادما سمباهافا، ودعاه إلى قصره، ولكن بادما سمباهافا رفض تلبية دعوة الملك قائلاً بأنّه سوف لا يدخل قصر مذنب، قصر ملك شرّير قام بتوجيه الإدانة إلى شخص كان بمثابة "ضمانة روحيّة"،

وتجاهل أسس الحقّ الروحانيّ. وكرّر الملك طلبه، وفي النهاية قبل بادما سمباهافا دعوته، وقام الملك بنفسه بجرّ العربة التي كان بادما سمباهافا يجلس عليها، ومنذ ذلك الحين، أصبح بادما سمباهافا الـ"راجورو"، أي المعلّم الروحيّ للملك. كما تمّ إنقاذ ماندارافا من الحفرة التي أُلقيت فيها.

خلال هذه المرحلة من حياته، أصبح مدخل بادما سمباهافا إلى الحقيقة مدخلاً للضبط والدقّة. والعبرة أنّه في نطاق ذلك المجال من الضغط، كان على استعداد لأن يسمح للناس بارتكاب ما يبغون من أخطاء بحقّ "الطريق الروحيّ"، بل إنّه كان مستعدًّا حتّى أن يذهب بعيدًا، لأن يسمح للملك بأن يحرقه حيًّا وأن يضع تلميذته الأميرة في الحفرة. لقد ترك تلك الأمور تحدث... وهذه نقطة مهمّة تظهر نمط تعاليمه. فقد كان الأمر يستدعي وجود ظرف وحدث، لكي يتحقّق الملك من مرضه العصابيّ، ومن طريقته الخاطئة في التصرّف والتفكير، وأن يكتشف خطأه بنفسه، وليس بالأحرى عن طريق قيام بادما سمباهافا بإظهار بعض المعجزات التي تتضمّن قوّة سحريّة قبل القبض عليه، كانت في نطاق قدراته، إذ كان يمكن لبادما سمباهافا أن يقول: "أنا أعظم مدرّس في العالم، إنّكم لا تستطيعون لمسي، والآن سوف ترون عظمة قوّتي الروحيّة". ولكنّه لم يفعل ذلك، وبدلاً من ذلك سمح بأن يتمّ القبض عليه، وأن يُرمى في النيران، لتتجلي حقيقته عمليًّا للملك. وتُعتبر هذه الطريقة بالغة الأهميّة في نمط بادما سمباهافا بالارتباط مع العقل "السمساري" أو المضطرب: "دع الاضطراب يأتي، ودع الاضطراب يصبح نفسه". إنّ الأمر يشبه قصّة أحد سادة "الزّن" الذي كان لديه طالبة من السيّدات، أصبحت حاملاً، وأتى أهلها إلى سيّد الزّن حاملين الطفل وشكوا إليه قائلين: "إنّ هذا طفلك وعليك أن ترعاه". فردّ سيّد الزّن: "أهو كذلك؟" وأخذ الطفل ورعاه، وبعد بضع سنوات لم تعد المرأة قادرة على تحمّل الأكذوبة التي قالتها، ولم

يكن والد الطفل هو المدرّس، ولكن كان شـخصًا آخر، وذهبت إلى والدَيها تخبرهما الحقيقة، فاعتراهما القلق، وشعرا أنّه من الأفضل إنقاذ الطفل من أيدي المدرّس الذي كان يقوم بعمليّة تأمّل في الجبال... ووجداه هناك وقالا له: "لقد اكتشفنا أنّ هذا الطفل ليس طفلك، والآن نودّ إنقاذه منك، إنّنا نودّ أن نأخذه من يدَيك. إنّك لست أباه الحقيقيّ"، وقال سيّد الزِّن: "هل الأمر كذلك؟"...

من هنا، فإنّ المبدأ يقول: دع "الظاهرة" تؤدّي لعبتها، ودع الظاهرة تجعل الناس يستغفلون أنفسهم بأنفسهم. وهذا هو المدخل. فليس هناك من جدوى من القول: "دعني أتجاذب معك أطراف الحديث، إنّني أودّ أن أشرح الموقف كلّه بداخلك". إنّ عالم الظواهر لا يمكن تفحّص كنهه بالكلمات ولا بالمنطق، ولا بأقلّ القليل من المنطق، إنّما يمكن التعامل مع عالم الظواهر فقط في نطاق ما يحدث في داخله، في نطاق منطقه هو ذاته. فإنّ هذه الطريقة هي أصدق من المنطق، هي "إجماليّة" استخدام المنطق الخاصّ بالموقف نفسه. لذلك فإنّ سمة هامّة من سمات أسلوب بادما سمباهافا هي "أن تدع الظاهرة تؤدّي دورها بنفسها، وليس محاولة تعليلها أو شرحها".

وفي موقف أخر، جابه بادما سمباهافا خمسمائة مهرطق، أو "ترثيكاس"، في "سانسكريت". وفي هذه الحالة كان المهرطقون أو المنشقّون، أناسًا يؤمنون بوجود الإله، من البراهما، ويمكن أن يكونوا "ربّانيّين"، أو أيّ ما يمكن أن يسمّي به أتباع غير البوذيّة من ديانات الهند. وثار نقاش منطقيّ بين عالم بوذيّ وعالم مهرطق، وسط جمهور كبير، وراح كلّ منهما يوجّه الآخر. وكان كلّ من العالم الروحيّ البوذيّ ونظيره "الإلهيّ" يقارع الآخر بالحجّة حول طبيعة الروحانيّة، وكان كلّ منهما في "رحلة روحيّة"، أي في حالة من التجلّي الروحانيّ التي تشبه الغيبوبة عن العالم الماديّ. وكان كلّ من الرجلَين يحاول أن يرسي دعائم منطقه ليثبت أنّه يمتلك الحجّة

في أنّ الطريق الروحيّ هو طريقه. وفي هذه الحالة فإنّ الإلهيّين كسبوا الجولة، والبوذيّين الذين تمّ إقحامهم عن طريق الذكاء المنطقيّ، خسروها. وعلى الفور طُلب من بادما سمباهافا أن يقيم احتفالاً من أجل "تدمير الإلهيّين" وما أقاموه من حجّة. وقام بهذا الاحتفال المطلوب، وحقّق انتصارًا ضخمًا تسبّب في قتل هؤلاء الخمسمائة عالم، ودمّر كافّة ما بناه هؤلاء الفلاسفة من حجّة. وفي هذا الجانب، فقد عُرف بادما سمباهافا باسم "سنج درادروك" ومعناها "زئير الأسد". فزئير الأسد يدمّر السيكولوجيّة الثنائيّة تدميرًا، من منطلق الإقرار بأنّ "هناك واقع إسمه "البراهما" أو الإله أو أيّ تسمية أخرى، ولأنّ ذلك الواقع قد حدث، فإنّه حقيقيّ ومتين، والوسيلة الوحيدة لتدميره، هو "الحكمة المجنونة" لبادما سمباهافا. إذ من وجهة نظر الحكمة المجنونة، فإنّ ذلك "الواقع" أو "النفس" لا وجود له، وبتدميره، لم يعد موجودًا. وبمعنى ما، يمكن القول إنّه هنا يكون التدمير متبادلاً، ولكن في نفس الوقت يكون هذا التدمير مستحبًّا من وجهة النظر غير المعترفة بوجود الإله. فإذا كان "الرب" و"البراهما" موجودَين، فيجب أن يعيشوا ليكونوا موجودين بالفعل. لمَن تعود صيغة الجمع هنا؟، فإنّ فلسفة "الحكمة المجنونة" تقول بعدم وجود هذا الذي يدرك بالفكر فقط، فهو بذلك يكون مجرّد شبح خياليّ. وحتّى أنّه بالنسبة لوجود خيال، فالمرء بحاجة إلى التخيّل، وعلى ذلك فإنّ تدمير الفكرة المركزيّة لنفسٍ ما يستدعي معه عدم وجود صاحبها.

هذا هو المدخل لبادما سمباهافا باعتباره "سنج درادروك"، أي "زئير الأسد". فزئير الأسد يمكن سماعه، لأنّ الأسد لا يخشى من "ذلك"، فالأسد لدَيه الرغبة في التقدّم والسيطرة، بصرف النظر عمّا يكون هناك، لأنّ "هذا" لا يوجد حتّى تحطّمه مرّة أخرى. وفي هذا المفهوم، فإنّ زئير الأسد يمكن ربطه مع تطوير "الفاغرابرايد"، ومعناها الشعور بأنّ السلامة الأساسيّة توجد بالفعل في حياتنا، لذلك فلسنا مطالَبين

بالسعي لإيجادها منطقيًا. ولسنا مطالَبين كذلك بإثبات أنّ شيئًا ما يحدث أو لا يحدث، وعدم القناعة الأساسيّ الذي يجعلنا نبحث عن التفهّم الروحانيّ هو تعبير "الفاغرابرايد": بمعنى أنّنا لسنا راغبين في الخضوع للضغط الذي يسبّبه اضطرابنا. إنّنا راغبون في أن نرفع رقابنا إلى أعلى. ويبدو أنّ هذا تعبير أوّل عن غريزة "الفاغرابرايد"، الذي منه يمكن الانطلاق.

طِفلٌ يَعيش بطَريقَة تلقَائيَّة

لقد وُلد بادما سمباهافا من زهرة لوتس من دون أبوَين، ولم تكن له حاجة إلى أن يتعلّم، كما لو كان عنده سلفًا ثمانون عامًا. فليس هناك حدود للعمر. فكيفما كان عمره، فسوف يظلّ طفلاً شابًّا، أو لنقل طفلاً مسنًّا، فكلا الإثنَين يرقى إلى نفس الشيء. وأحد أهمّ النقاط هنا هو وجود شعور بالاستكشاف نحو حالة وجودنا لا علاقة له بالتعليم وجمع المعلومات. إنّنا نستكشف فقط لأنّنا مبتهجون مثل الأطفال الذين يلعبون بلعبهم. إنّ هذه الصفة التي تشبه حالة الصبية موجودة في داخلنا دائمًا، بصفة مستمرّة، وهذه هي صفة بادما سمباهافا.

وهذه الصفة تتضمّن الخوف. والمشكلة التي نواجهها مع عدم الخوف هي أنّ طريقتنا "السمساريّة"، نسبة إلى مبدأ "السمسارا" الروحيّ، في تناول الأشياء، تحول بيننا وبين الاستكشاف بحريّة. ورغم أنّ لدينا شوقًا بالغًا تجاه ذلك، فإنّنا نشعر بإمكان أن يصيبنا الأذى لو أنّنا استكشفنا أكثر من اللازم. إنّه الخوف. إنّ الصفة الطفوليّة لبادما سمباهافا هي عدم الخوف، لأنّه لا يهتمّ بأن يصيبه الأذى. وذلك ليس بسبب أنّه

مازوشيّ أو ساديّ على الإطلاق، بل لأنّه يملك شعورًا بالتقدير، شعورًا بالانفتاح الكامل في ارتباطه بالأشياء ببساطة ومباشرة. إنّه لا يرتبط مع الأشياء لأنّها أشياء تعليميّة، بل فقط لأنّها موجودة هناك. إنّ الارتباط يحدث ببساطة، ثمّ يتطوّر. وما يجب أن نتذكّره دائمًا هو أنّ القدرة على الاكتشاف تعتمد على عدم الخوف. ودرجة عدم الخوف هي مقياس السرعة لسلامتنا. وطبقًا لِما ورد في التعليمات المكتوبة، فإنّ الشخص العاديّ لا ينبغي له التصرّف كشخص يمارس اليوغا. فإذا قرّرنا أن نتجاوز حدودنا وأن نكون بدائيّين، وأن تنتابنا النزوات، فإنّنا نُصاب بالأذى. إنّنا نحصل هكذا على التغذية الاسترجاعيّة: إذ تصلنا رسالة قويّة جدًّا. فإذا تجاوزنا حدودنا، يصبح الأمر مدمّرًا. لذلك فإنّ فكرة الحكمة المجنونة لا تتضمّن مجرّد أن نصبح بدائيّين، وأن تنتابنا النزوات. إنّ الأمر بالأحرى يكون بالارتباط مع مخاوفنا. ويتوقّف قدر استكشافنا على القدر من المخاوف الأساسيّة التي ارتبطنا بها لا التي تغلّبنا عليها، وإذا فعلنا ذلك طبقًا لقدر المخاوف الأساسيّة التي ارتبطنا بها، فإنّنا لا نكون قد تجاوزنا حدودنا.

من الغريب تمامًا أن يُقال إنّ الحكمة المجنونة شديدة الحياء والجبن. إنّ الجبن يولّد الحكمة المجنونة، والتصرّف هو الجانب الأفضل من الشجاعة.

إنّ أسلوب بادما سمباهافا هو واحد من تجربة مواقف الحياة كطفل يعيش بطريقة تلقائيّة، ويودّ البقاء طفلاً مدى الحياة. وأحد الشروط التي يتمّ تطويرها هو "شونيويوم كو" أي "الأمير الشاب في مزهريّة". فالمزهريّة تمثّل موقفًا جنينيًّا، ولكنّه شاب في نفس الوقت. وكسْر المزهريّة هو مبدأ "التريكايا"، وعند كسر المزهريّة يتمّ الحصول على "الدارماكايا"، ومن ثمّ يتمّ النزول إلى "السامبوجاكايا" و"النيرفاناكايا"، أي النزول إلى الأرض. لذلك فإنّ التركيز الرئيسيّ هنا هو على روح الشباب التي تتضمّنها حالة

الوجود المستنيرة. وهذه الروح الشبابيّة هي سرعة التجربة، وهي الصفة الاستكشافيّة الخاصّة بها.

إنّ الاستكشاف يرتبط مع الطاقة. الأمر الذي يعمل على تغذية المرء بصفة مستمرّة، هو يجلب لحياته حالة صحيّة كاملة. لذلك ففي كلّ مرّة يستكشف المرء أمرًا يكتسب صحّة جديدة. وعلى الدوام يعود إلى شعور بأنّ المرء يعاصر الزمن في تجربته عن العالم وعن الحياة. ولذلك فإنّ الأمر برمّته يصبح إعادة لشبابه بصفة دائمة. فإنّ الأمير الشاب الذي ترك مملكته فجأة، وقرّر أن يكيّف نفسه مع الحياة الموحشة في أرض المقابر ومع المبدأ الأساسيّ للخلود، والذي يُعرف غالبًا بأنّه تجربة "المهامامودرا" أي التجربة التي ترتبط مع الصفة المعيشيّة للظاهرة، أي أنّه يمكن القول بأنّ المنظر العام في أرض المقابر أمر "حقيقيّ". فهناك الهياكل العظميّة، وأجزاء من جسد، والحيوانات المفترسة، وابن آوى والغربان... وفي أرض المقابر اكتشف الأمير مدخلاً جديدًا للحياة، أو بالأحرى فإنّ مدخلاً جديدًا للحياة اكتشفه. ويمكن القول إنّ بادما سمباهافا أصبح مواطنًا رصينًا في هذه المرحلة، لأنّ شعور الخلود يجلب عدم الدمار، أي ما معناه في هذا السياق أنّ أيّ شيء لا يشكّل تهديدًا، ولا يمكن أن ينتج الراحة. وهذا نوع من الخلود. ولم يعد ينظر إلى الموت باعتباره تهديدًا. فتجربة بادما سمباهافا في الموت هي تجربة لجانب واحد من جوانب الحياة. فهو لم يكن يهتمّ بتخليد شخصه ووجوده. وهذا المدخل أكثر اقترابًا إلى البوذيّة طالما أنّ هذه التجارب لا يجري النظر إليها على أنّها إنجاز من أيّ نوع، إنّها ليست استكشافات تحدث ببساطة، ونظرًا لأنّها تحدث، فإنّ بادما سمباهافا يضبط نفسه عليها. لذلك فإنّ بادما سمباهافا باعتباره فاغرادارا يصبح سيّد الحياة والممات، حاملاً لواء الفاغرا، لواء النشاط والطاقة التي لا تبلى، وهو "ساميوجاكايا" البوذيّة.

حينما أصبح بادما سمباهافا معروفًا بأنّه رجل اليوغا العظيم الذي استطاع السيطرة على الوقت، والتحكّم في الليل والنهار والفصول الأربعة، أصبح الجانب اليوغيّ منه يُسمّى "نييما آوسر". ويُرى في أيقونته ممسكًا بالشمس ومستخدمًا أشعّتها بمثابة حبال مربوطة إلى أوتار.

شاكيا

سنغي

إنّ المبدأ المرتبط مع هذا الجانب من بادما سمباهافا هو القائل بأنّه "إذا تغلّب شخص سلفًا على أيّ شعور، يكسب أيّ شيء في العالم المرتبط، فيكون على هذا الشخص أن يمضي قدمًا وأن يصنع علاقة مع السلامة الكاملة والكليّة، أي حالة وعي العقل وتيقّظه. و"شاكيا سنغي"، أي بادما سمباهافا باعتباره بوذيًّا، يرتبط بهذا المعنى. إنّ عبارة "شاكيا سنغي" بوذيّة بحسب المعنى الذي تورده المهايانا. وإنّ أسلوب المهايانا لبادما سمباهافا له علاقة بالتفوّه بزئير الأسد الذي يشير، طبقًا لتعاليم المهايانا، إلى إعلان تعاليم شعر الـ"نياتا"، وهي السلامة النهائيّة. لذلك فإنّ هذا الجانب من بادما سمباهافا يرتبط مع التعبير عن السلامة النهائيّة.

قد نتساءل: كيف يمكن لهذه السلامة النهائيّة أن تتوغّل أكثر من التغلّب على التصوّرات الفكريّة وعن شعور التجربة؟ وهل هناك شيء يزيد على ذلك؟ وهل يكون ذلك غير كافٍ؟ عند هذه النقطة، هناك شيء أكثر دقّة. فالتغلّب على التصوّرات الفكريّة وشعور التجربة خطوة باتّجاه البيان. فأوّلاً عليك أن تهزم العدوّ، ثمّ بعد ذلك تستطيع الإعلان عن أنّك حقّقت النصر عليه. وحين تقوم بالإعلان أو البيان الذي أُشير

إليه على أنّه زئير الأسد، فإنّ بادما سمباهافا، كبوذيّ، يقوم بتأكيد السلامة مجدّدًا، ولا يجري النظر إلى زئير الأسد على اعتباره تحدّيًا، ولكن على أنّه نوع من الزينة. إنّه ليس تحدّيًا في ما يتعلّق بتمام عمليّة قهر العدوّ، إنّما حين تكون قد حقّقت النصر سلفًا، فإنّ النصر يجلب شعورًا بالأخبار السارّة، وإعلان هذه الأخبار السارّة هو زئير الأسد. وفي ما يتعلّق بحياة بادما سمباهافا، فإنّ الأخبار السارّة هي الأخبار السارّة النهائيّة. إنّها الأخبار السارّة التي تحتاجها الرحلة الروحيّة. لأنّ الرحلة قد تمّ إنجازها سلفًا، وعلى هذا النحو فلا محلّ للبحث أو محاولة كسب مزيد من الشفافية. وعدم الحاجة إلى القيام برحلة روحيّة هي أخبار سارّة. ذلك هو زئير الأسد. وذلك هو شيء يزيد كثيرًا عمّا تتحدّث عنه "المهايانا سوتراس" التي تشير إلى بلوغ السلامة النهائيّة من خلال التحقّق من أنّ الشكل هو الخواء أو الفراغ، وأنّ الخواء هو الشكل، وهكذا. ولكنّ زئير الأسد، الذي نتحدّث عنه هنا، هو شيء أكثر من ذلك. إنّه يذهب إلى أبعد من ذلك بأنّ الأخبار السارّة النهائيّة مستقلّة بذاتها عن أيّ انتصار. إنّها نهائيّة. فما هو أسلوب بادما سمباهافا في إظهار الحكمة المجنونة في هذا السياق؟ إنّه الملك العالميّ الذي يطلّ على "يانات" التعاليم من فوق، وليس من أسفل.

وطبقًا للرواية، فإنّ بادما سمباهافا كان يستذكر مع آنندا، آخرِ حضور مجالس بوذا وأحد أتباعه. ولقد تمّ تعميده من جانب آنندا ليكون "بيكشو"، وقد وصل إلى فهم رسالة بوذا. ونظر بادما سمباهافا آنندا، أحد تلامذة بوذا وأتباعه، باعتباره معلّمًا روحيًّا أكثر من كونه مدرّسًا. وهذا تمييز هامّ. لقد كان ينظر إليه كمعلّم روحيّ أكثر من كونه أسطونًا في النظام، محيطًا بالعلوم، وأستاذًا، أو مدرّسًا بالمعنى العاديّ، لأنّ آنندا كان في خطّ النسب المباشر للإيحاء من بوذا. وهذا كان يعني أنّ العمل معه يتضمّن علاقة حيّة مع التعاليم.

لقد ربط بادما سمباهافا نفسه مع بوذا واكتشف طريق السلامة. وارتبط مع آنندا باعتباره الرسول الذي عمل على إيقاظ الإيحاء فيه.

ومن منطلق أنّ المعلّم الروحيّ لا يرسل، في الحقيقة، كيانات روحيّة إلينا أو من خلالنا، بل يذكّرنا فقط أنّ هناك سلامة موجودة فينا من قبل. وعلى ذلك فإنّ آننداا قد قام بالإمداد، أو بالنسبة لهذا الأمر فإنّ بادما سمباهافا يقدّم دليلاً على أنّ الأشياء هي على نحو ما في هذا الطريق.

سنغـــــي
درادروك

هنالك جانب آخر لبادما سمباهافا يُسمّى "سنغي درادروك". ومرّة أخرى فإنّه يرتبط مع زئير الأسد. وهذا الإسم يعني حقيقة "زئير الأسد"، أو بدقّة أكثر من ناحية اللفظ "إحداث صوت مثل الأسد". وفي هذا الجانب يظهر بادما سمباهافا بمثابة أحد حماة اليقين، أحد السحرة الكبار.

في ذلك الوقت في الهند، كانت هناك غارات شنّها الهراطقة أو "الترتيكاس" كما كانوا يسمّونهم في سانسكريت. وكان هؤلاء من الهندوس، وكان يُشار إليهم كهراطقة منشقّين لاعتقادهم في مبدأ الثنائيّة، أي في وجود كائن خارجيّ مقدّس، وفي وجود "آتمان" كمستقبل لذلك الكائن المقدّس. وأولئك الهراطقة الذين كان بادما سمباهافا يتعامل معهم، كانوا يعتقدون في الحقيقة الكاملة والحرفيّة لمبدأ الثنائيّة. ولم يكونوا يفهمون العمق الحقيقيّ للتعاليم الغامضة، وكانوا يعتقدون في إله خارجيّ وفي ذات

داخليّة. ومن الغريب أنّ الاعتقاد في هذا النوع من الانفصال يمكن أن يجلب قوّة نفسيّة ضخمة جدًّا، من شأنها أن تُحدث المعجزات من كلّ نوع.

بالنسبة لهؤلاء الهراطقة، تصرّف بادما سمباهافا كعنصر عضويّ، كعنصر التصرّف الطبيعيّ. فأنت إذا أسأت معاملة النار شبّت النار في منزلك، وإذا لم تنتبه وأنت تقطّع الجزر فربّما قطعت إصبعك. فهذه الغفلة وسوء المعاملة للموقف الطبيعيّ هي الصفة الهرطقيّة. وبدلاً من النظر إلى المواقف القائمة التي تتضمّن عدم الثنائيّة كما هي، فإنّك تحاول تفسيرها، بعض الشيء، حتّى تساعد هذه المواقف على الحفاظ على وجودك. وعلى سبيل المثال، إنّ الاعتقاد في اللّه هو طريقة من طرق التأكّد "أنّك" موجود. وطالما هناك حضور جيّد، وتلقٍّ جيّد لهذه المقولة، فإنّ اللّه من ثمّ موجود. إنّ هذا النوع من الاقتراب هو اقتراب هرطقيّ من وجهة النظر البوذيّة.

وفي ذلك الوقت كانت الأديرة العظمى للبوذيّين. وفي مكان معيّن في الهند، كانت مراكز تحدّيات من جانب حكماء الهندوس. وقد أتى الحكماء الهنود "البانديت" إلى هذه الأديرة ليقوموا بالتدريس، حتّى أنّ بعض الرهبان قد تحوّل إلى الهندوسيّة. وكانت كارثة عظمى. لذلك فقد طُلب حضور بادما سمباهافا. وأولئك الذين دعوه قالوا: "إنّه لا طاقة لنا على مباراة هؤلاء الحكماء الهندوس ثقافيًّا، لذلك ندعوك أن تنقذنا بتأدية بعض الأعمال السحريّة من أجلنا. فلربّما كان ذلك هو الحلّ الوحيد".

جاء بادما سمباهافا ليعيش في أحد تلك الأديرة. وفي أحد الأيّام، استطاع إحداث زلزلة بتوجيه الحربة التي كانت معه باتّجاه حكماء الهندوس. فحدث انهيار ضخم من الصخور، وأمكن تدمير خمسمائة من حكماء الهندوس. فماذا نفهم من هذا؟

حينما يصبح أحد الأشخاص غير عاقل فإنّه يسعى إلى تدمير نفسه. ويبدو أنّه لا يمكن لأحد أن يعلّمنا كيف نقوم بأشياء من قبيل تدمير الحكماء الهنود. وعلى الرغم من

أنّ التعاليم سلّمت من كابر إلى كابر خلال أجيال وأجيال دون انقطاع أو تحريف، حتّى أنّه إلى اليوم لا نمتلك التعاليم الكاملة لبادما سمباهافا، وليس من بين هذه التعاليم ما يتحدّث عن كيفيّة قتل المهرطقين... ليس هناك تعاليم... لكنّ هذه التعاليم تتحدّث عن ذلك. والمضلّلون بالنسبة لهذه التعاليم إنّما يدمّرون أنفسهم. ويبدو أنّ هذه هي الرسالة الأساسيّة هنا. ويبدو أنّ ذلك يشكّل الجانب من بادما سمباهافا الذي يُسمّى "زئير الأسد" أي "سنغي درادروك".

بادما سمباهافا

في التيبت

يُسمّى هذا الجانب لبادما سمباهافا فعلاً باسم بادما سمباهافا. فأتباعه في التيبت كانوا دائمًا يشيرون إليه على أنّه المعلّم الروحيّ "رينبوكي"، أي المولود من اللوتس، وهو "بادماكارا" في سنسكريت. لذلك فإنّ بادما سمباهافا هو اسم لواحد فقط من الجوانب. ويبدو أنّ لذلك علاقة بنزاع طائفيّ، حيث قال حزب منهم بأنّ بادما سمباهافا ليس مبدأ كونيًّا، إنّما هو مجرّد حكيم روحيّ اسمه بادما سمباهافا. على أيّ حال، فإنّ هذا الجانب الخاصّ والمعروف باسم بادما سمباهافا كان رجلاً حكيمًا، أي تلميذًا. ولقد دخل جامعة "تالاندا"، ودرس ما يُسمّى النظام الثلاثيّ وهو: التأمّل، ومبادئ الأخلاق، والمعرفة أو التعليم. وهذه النظم الثلاثة تقابل الأقسام الثلاثة للتعاليم البوذيّة المكتوبة، والتي يُطلق عليها اسم "الترييبيتاكا". ويناقش أحد الفصول الثلاثة من الترييبيتاكا النظام الديريّ، ويناقش آخر فصل التعاليم الأساسيّة لـ"السوتراس"، والفصل الثالث يناقش البناء السيكولوجيّ للكائنات.

تقول رواية في التيبت، إنّ أحد الآلهة المحليّين، سأل بادما سمباهافا: "ما الذي يخيفك بالدرجة الأكبر؟ - فقال بادما سمباهافا: - إنّني أخشى الـ"دكيا"، وكلمة "دكيا" في لغة الـ"ترنب" تعني "الذنوب العصابيّة"، وهذا ما قصده بادما سمباهافا. غير أنّ كلمة "دكيا" بلغة التيبت، تعني العقرب، وهذا ما فهمه الإله. وهكذا فقد اعتقد الإله المحلّيّ أنّه يمكن أن يخيف بادما سمباهافا بإظهار نفسه كعقرب ضخم. غير أنّ بادما سمباهافا تمكّن من تحويل العقرب الضخم، أي الإله المحلّيّ إلى غبار له شكل العقرب.

والتيبت، محاطة بجبال تكسو قممها الثلوج. وكان هناك اثنتا عشرة إلهة في تلك الجبال تحرس البلاد. وحينما أتى بادما سمباهافا إلى التيبت، رفضت إحدى هذه الآلهة الاستسلام له، فولّت هاربة منه هائمة في كلّ مكان. وصعدت إلى أحد الجبال معتقدة أنّها هربت من بادما سمباهافا، ولكنّها وجدته هنا أمام عينَيها، يرقص في أعلى الجبل. وولّت هاربة إلى أسفل الوادي، فوجدت بادما سمباهافا في سفح الجبل. وحيثما ولّت وجهها هاربة فإنّها لم تستطع أن تكون بمنجاة منه. وفي النهاية قرّرت القفز إلى إحدى البحيرات للاختباء فيها، وقام بادما سمباهافا بتحويل بحيرة الماء إلى بحيرة فيها حديد يغلي، وظهرت الإلهة بشكل هيكل عظميّ بشريّ. وفي النهاية كان عليها أن تستسلم، لأنّ بادما سمباهافا كان في كلّ مكان. تلك الأسطورة هي أساس تعبير في "الحكمة المجنونة" يقول: إنّك لا تستطيع الفرار منه. إنّه في كلّ مكان... مهما كان هذا المكان.

وفي منطقة "تاكتسانغ" في "بوتان"، تجلّى بادما سمباهافا في إحدى إناث النمور الحوامل، وكان تجلّيه أو ظهوره، على هذا النحو، ذا صلة بإخضاع الطاقة النفسيّة السيكولوجيّة لتلك البلاد، التي تكتنفها المعتقدات البدائيّة في ما يتعلّق بالذات أو الإله. وأحد تعبيرات "الحكمة المجنونة" هو "التحكّم بالطاقة السيكولوجيّة". لقد تحكّم بادما سمباهافا بالطاقات السيكولوجيّة للمعتقدات البدائيّة بخلق الإرتباك. فقد كان نصفه هنديًّا

ونصفه الآخر تيبتيًا. فمظهره مظهر شخص هنديّ يرتدي ثيابًا تشبه ثياب أهل التيبت. وكان يحمل حربة وخنجرًا، وتشعّ من جسده علامات النور. وكان يمتطي ظهر إحدى إناث النمور. لقد كان ذلك أمرًا عجيبًا جدًّا. ولم يكن أحد الآلهة المحليّين، كما لم يكن معلّمًا روحيًّا تقليديًّا. ولم يكن لا محاربًا ولا ملكًا. كان بالتأكيد رجلاً عاديًّا. وركوب نمر يُنظر إليه كخطأ، لكنّه استطاع أن يفعل ذلك. فهل كان يحاول أن يتخفّى أو يتنكّر بصفته تيبتيّ أم ماذا كان يحاول أن يفعل؟ ولم يكن على الخصوص يعلم بأيّ شيء. ولم يكن بوسعك أن تتعامل معه كواعظ من فئة البوذيّين أو كأحد المبشّرين. ولم يكن يسعى لتغيير عقيدة أيّ فرد، فلم يكن هذا أسلوبه أيضًا. فهو كان يسعى إلى تدمير الفوضى والاضطراب في كلّ أنحاء المكان حيثما ولّى وجهه، حتّى الآلهة المحليّين أصابهم الاضطراب، بل اضطربت أحوالهم تمامًا.

وحين ذهب بادما سمباهافا إلى التيبت، انزعج منه الهنود انزعاجًا شديدًا. فقد شعروا أنّهم سوف يفقدون شيئًا ثمينًا جدًّا، حينما بدا أنّه عقد العزم على إعطاء تعاليمه عن الحكمة المجنونة لأهل التيبت فقط. وكان ذلك بمثابة إهانة مفزعة بالنسبة للهنود. لقد كانوا يفخرون بأنّهم من الجنس الآريّ العظيم. أعظم الأجناس ذكاء. وأنّهم أعظم الشعوب تلقّيًا للتعاليم السامية. والآن، وبدلاً من أن يعلّمهم بادما سمباهافا فإنّه ذاهب إلى بلاد التيبت الموحشة خلف منطقة الحدود، وقرّر تعليم أهل التيبت بدلاً منهم. وقام الملك "سيريا سميها" من منطقة "بادش"، وهي المنطقة الوسطى في الهند، بإرسال ثلاثة علماء روحيّين إلى ملك التيبت حاملين رسالة تقول إنّ ذلك الذي يُدعى بادما سمباهافا إنّما هو رجل مشعوذ، وساحر أسود في الحقيقة. ونصح الملك الهنديّ ملك التيبت بأنّ بادما سمباهافا شخص خطير بالنسبة لأهل التيبت وينبغي عليهم إعادته إلى بلاده. غير أنّ تلك الرسالة لم تلق تجاوبًا من ملك التيبت.

في الواقع، يبدو أنّ بادما سمباهافا قد اختار أرض التيبت لتعاليمه، لأنّ تعاليم الحكمة المجنونة لا يتسنّى تدريسها إلاّ في البلاد الموحشة، حيث حالات الفوضى، التي تتوافر فيها فرصة أكبر للاستفادة. وطبيعة الحكمة المجنونة التي جاء بها بادما سمباهافا إلى التيبت باسم "دورجي ترولاو"، أنّها جاءت من قِبَل عالم روحيّ لا يرغب في إيجاد حلّ توافقيّ مع أيّ شيء. فإذا وقعتَ في طريقه، فتكون أنت الباحث عن الدمار والهلاك. وإذا كانت لديك شكوك فإنّه يستفيد من شكوكك. وإذا كنت متفانيًا بقدر زائد ومعتمدًا أيضًا بشكل زائد على الثقة العمياء، فإنّه سوف يُحدث لك صدمة، وهو يأخذ الجانب الساخر من العالم بجدّية شديدة. إنّه يُلقي النكات العمليّة على نطاق واسع، تلك النكات ذات الأثر التدميريّ. واتّخاذه النمر بمثابة شعار، كان أمرًا مثيرًا أيضًا. فهو يرتبط بفكرة الشعلة، بما فيها من نار ودخان. أمّا أنثى النمر فمن المفترض أنّها من أردأ أنواع النمور. فهي جائعة ومجنونة إلى حدّ ما. وهي لا تلتزم بأيّ منطق. ولا يمكنك الإلمام بسيكولوجيّتها والعمل معها مستخدمًا العقل. ومن المحتمل جدًّا أن تهاجمك وتفترسك في أيّ وقت. وهذه هي طبيعة "الدورجي ترولاو" وأداته في النقل. فعالم الحكمة المجنونة يمتطي طاقة خطيرة محمّلة بكافّة أنواع الإمكانيّات. وهذا النمر يمكن أن يُقال إنّه يمثّل الوسائل الماهرة المجنونة" و"دورجي ترولاو" الذي هو "الحكمة المجنونة" يمتطيها، وهما معًا يمثّلان ثنائيًّا متميّزًا.

وهناك جانب آخر لبادما سمباهافا في التيبت، وهو ليس جزءًا من الجوانب التي ذكرناها. فبالنسبة لأهل التيبت يُعتبر بادما سمباهافا بمثابة الأب. وعلى هذا النحو فإنّه يُشار إليه باسم المعلّم الروحيّ "رينبوكي"، ولقد وقع في غرام أهل التيبت، وبذل رعاية خاصّة لهم. وهو كان ينظر إلى أهل التيبت على أنّهم أغبياء. وكانوا مؤمنين بأكثر ممّا ينبغي، وممارسين للشعائر بأكثر ممّا ينبغي، ولذلك فقد كان هناك انفتاح هائل نحو تلقّي

الجنون نظرًا لروحهم غير العمليّة: أتترك مزرعتك، أتترك أسباب العيش وسبله، تجـول في الجبال مرتديًا تلك الملابس الخاصّة باليوغا الغريبة... وبمجرّد أن بدأ أهل التيبت قبول هذه الممارسات كوسائل من أجل السلامة العقليّة، فقد قاموا باليوغا بشكل متميّز، لأنّ مدخلهم لممارسة اليوغا كان عمليًّا أيضًا. وبما أنّهم كانوا يباشرون عملهم في المزارع بإيمان، والعناية بقطعانهم بإيمان، فإنّهم اتّبعوا نداء اليوغا بإيمان أيضًا.

وأهل التيبت لا يميلون إلى الفنون كما هو حال اليابانيّين. لكنّهم كانوا مزارعين متميّزين، وتجّارًا متميّزين، وسحرة متميّزين. وكانت تقاليد "البيون" الخاصّة بأهل التيبت فظّة غير مصقولة، وتتعلّق بحقائق الحياة، وكان احتفالات "البيون" في بعض الأحيان عمليّة جدًّا. وكان أحد الاحتفالات المقدّسة ينطوي على حفلات للسمر في أعالي الجبال، الأمر الذي يجعل المرء يحتفظ بالدفء. ويبدو أنّ المراوغة التي أبداها أهل التيبت خلال المؤامرات السياسيّة التي تمّت في القرن العشرين، تخرج عن الحدود. هذا النوع من الفساد والمؤامرات السياسيّة جاءت إلى التيبت من الخارج، من الفلاسفة الآريّين في الهند، ومن السياسيّين الإمبرياليّين في الصين.

لقد كان مدخل بادما سمباهافا جميلاً جدًّا. وكانت نبوءاته تدلّ على كلّ شيء حدث فعلاً في التيبت، بما في ذلك الفساد. وعلى سبيل المثال فإنّ، نبوءاته تقول: "في النهاية، إنّ التيبت سوف تغزوها الصين، وسوف يندفعون داخل البلاد بأسلوب الحصان". وقام الشيوعيّون الصينيّون بغزو التيبت في سنة الفرس بالفعل، وقاموا ببناء الطرق من الصين إلى التيبت وفي كلّ ربوع التيبت، وأدخلوا منها المركبات ذات المحركات. وقال في هذه النبوءات أيضًا شيئًا معناه أنّه في عام الخنزير، سوف تنكمش البلاد إلى مستوى الخنزير، وهذا ما يشير إلى المعتقدات البدائيّة، وكذلك السيطرة على أذهان أهل التيبت بأفكار أجنبيّة. وكانت هناك نبوءة أخرى لبادما

سمباهافا تقول: "إنّ نهاية التيبيت سوف تأتي حين توجد الأدوات المنزليّة لتسانغ"، وهي المقاطعة العليا لمنطقة كونغبو. وفي حقيقة الأمر، أنّه حدث هناك فيضان هائل في المقاطعة العليا في تسانغ حينما سقطت قمّة جليديّة لأحد الجبال في بحيرة في أسفله. وامتلأ نهر "براهما بوترا" بمياه الفيضان، واجتاح عددًا من القرى والأديرة في طريقه. وتمّ العثور على بعض الأدوات المنزليّة التي جُرفت من هذا المكان في كونغبو، حيث كان النهر قد حملها في طريقه. وكانت نبوءاته تقول أيضًا "إنّ هناك علامة أخرى على نهاية التيبيت، سوف تكون في بناء معبد أصفر عند سفح قصر بوتالا في منطقة لاسآ". وفي الحقيقة أنّ رؤية الدلاي لاما الثالث عشر كانت بأنّ معبد كالاشاكرا ينبغي بناؤه هناك، وقد دُهن بالأصفر. وكانت إحدى نبوءات بادما سمباهافا تقول بأنّه "في المرحلة الرابعة عشرة، سوف يختفي قوس قزح خاصّ بمنطقة بوتالا". وهذه المرحلة الرابعة عشرة تشير إلى الوقت الحاضر، الدلاي لاما الرابع عشر. وبالطبع، فإنّ بوتالا هي القصر الشتويّ للدلاي لاما.

وحينما قال بادما سمباهافا هذه القصص، غضب ملك التيبيت ووزراؤه غضبًا شديدًا، وطلبوا من بادما سمباهافا أن يساعدهم. وسألوه: "ما هي أفضل الأشياء التي يمكن أن نفعلها للحفاظ على أمّتنا؟". وردّ عليهم قائلاً: "ليس هناك ما يمكن أن نفعله، سوى المحافظة على التعاليم التي أُعطيت الآن، وحفظها في مكان أمين..." وبعد ذلك أدخل فكرة دفن الثروات والكتابات المقدّسة.

لقد كانت لبادما سمباهافا كتابات مختلفة حول وضعه الذهب والفضّة في أوعية مثل الكبسولات ودفنها في أماكن مناسبة في مختلف أنحاء التيبيت حتّى تكتشفها الأجيال التالية، وكانت لدَيه أيضًا أشياء محليّة مدفونة: المجوهرات التي يملكها، وتلك المملوكة للملك، وأدوات المنزل الملكيّة، وأشياء عاديّة تخصّ الزراعة. وكانت الفكرة أنّ الناس

سوف يصبحون بدائيّين بدرجة أكبر، وأنّ الذكاء البشريّ سوف ينحسر، ويصبح الناس غير قادرين على العمل بأسلوب صحيح بأيديهم، وأن ينتجوا أشياء من التي تتميّز بمستوى عال. لذلك فإنّ تلك الأشياء التي كان يتمّ دفنها في طول التيبت وعرضها، باستخدام المعرفة العلميّة، بعد استجلابها من الهند في أغلب الأحيان، للحفاظ على المخطوطات وباقي الأشياء القيّمة. وكانت الكنوز تُدفن في طبقات خاصّة لحمايتها من التلف، بما في ذلك طبقات من الفحم النباتيّ أو الجير الأرضيّ، ومواد أخرى لها بعض الخصائص الكيماويّة. ومن باب الأمان كانت توضع طبقة من السموم حول الجدار الخارجيّ كي لا يتمكّن اللصوص والناس الذين لا تتوافر لهم المعرفة، من استخراج هذه الكنوز. وقد تمّ مؤخّرًا اكتشاف مثل هذه الكنوز من قِبَل بعض المدرّسين الكبار، المفترض أنّهم من أتباع بادما سمباهافا، وكانوا أصحاب رؤية سيكولوكيّة، اكتشفوا تلك الكنوز في أماكن معيّنة كان يتعيّن عليهم أن يحفروها. وكان يتبرّع الذين نذروا أنفسهم للعقيدة، بالإضافة إلى العمّال، للقيام بعمليّة الحفر. وكان يقتضي الأمر في بعض الأحيان استخراج الكنز من بين الأحجار. وعمليّة اكتشاف الكنوز كانت تتمّ بصفة مستمرّة، وتمّ كشف النقاب عن تعاليم مقدّسة كثيرة.

وهنك مدخل آخر للحفاظ على كنوز الحكمة وهو أسلوب خطّ الفكر. أمّا التعاليم فكانت تُكتشف من قِبَل مدرّسين مناسبين تكون لهم ذاكرة حولها وأن يكتبوها أحيانًا من الذاكرة. وهذا نوع آخر من الكنوز المخبّأة.

ومثال على كون بادما سمباهافا يتصرّف كأب للتيبت هو ذلك التحذير الذي وجّهه للملك "تريسونغ ديتسن". فقد كانت احتفالات السنة الجديدة توشك على القيام، وكانت تشتمل على سباق الخيل ورماية السهام، من ضمن أحداث أخرى. فقد قال بادما سمباهافا: "لا ينبغي أن يكون هناك سباق للخيل أو رمي للقوس هذه المرّة". لكنّ الناس

من حول الملك وجدوا مخرجًا للالتفاف حول تحذيرات بادما سمباهافا. وفي الحقيقة أنّ الملك قُتل بإصابة من سهم قاتلٍ مجهولِ الهويّة في وقت سباق الخيل ورمي السهام.

ومع أنّ بادما سمباهافا كان يحبّ التيبت وأهلها ويعزّهم كثيرًا، وكان من الطبيعيّ أن يتوقّع المرء بقاءه فيها، إلاّ أنّه عند "نقطة معيّنة"، غادر بادما سمباهافا أرض التيبت. تلك "النقطة المعيّنة" كانت "إتمام الرسالة". فبمجرّد أنّ تعاليمه الروحانيّة قد سادت، وطوّر الناس شعورًا من السلامة النفسيّة، قام بادما سمباهافا بمغادرة التيبت.

على أنّ بادما سمباهافا لا يزال حيًّا، بالمعنى الحرفيّ... فهو يعيش في مكان بعيد... في قارة من الهوام... في مكان مطلق... هناك يُطلق عليه اسم "سانغدوك بلري" أي "الجبل النحاسيّ اللون العظيم". ولا يزال يعيش. طالما أنّه حالة الدارماكايا.

الفَصلُ السَّادس

نَظرَةٌ إلى التُّراث البُوذيّ

الكُتُبُ المُقَدَّسَة؛

الإستَنارة الروحيّة؛

الإحتَفالات الدينيَّة؛

الإنبهَارُ الغَربيّ بالبوذيَّة.

الكُتُبُ المُقَدَّسَة

لا يدّعي البوذيّون أنّ كتبهم المقدّسة منزَلة، إنّما ينسبونها إلى بوذا، وهي عندهم، كما يرى باحثون مسلمون، بمثابة "الحديث" عند المسلمين. وقد حفظ أتباع بوذا عنه أحاديثه وخطبه وأمثاله. ولكن، بعد وفاته، ظهر الخلاف بين أتباعه كما ظهر الخلاف لبعض الأحاديث ونسبتها إليه، فعقد أتباعه مجلسًا كبيرًا سنة ٤٨٣ق.م. ليزيلوا أسباب الخلاف ويقرّبوا، أو يوحّدوا الأتباع عن طريق تحديد ما قاله بوذا وأتباعه، ولمّا احتشد القوم سألوا "كاسايابا KASAYAPA" أحد مريدي بوذا أن يقرأ عليهم آراء المبارَك عمّا وراء الطبيعة، فقرأها عليهم، فنقلوها ورووها عنه، وسألوا "أوبالي UPALI"، وكان من أَسَنِّ المريدين الأحياء، أن يتلو عليهم شريعة "النظام" فقرأها عليهم، فتلقّوها عنه. ثمّ سألوا "آنندا"، أحبّ المريدين عند بوذا، أن يلقي عليهم ما سمعه من بوذا من حكايات ومواعظ ففعل، وتلقّوها ورووها عنه[1].

وبقيت هذه الروايات محفوظة في الصدور يتلقّاها جيل عن جيل حتّى الملك آسوكا. وفي ذلك الحين كان قد ظهر فيها شيء من التحريف والاختلاق في الرواية، وإذ خاف الزعماء والشيوخ على ضياع هذا التراث، اجتمعوا واستقرّ رأيهم على كتابة هذه المجموعات الثلاث فكتبوها، ويظهر أنّهم وضعوا كلّ مجموعة في سلّة خاصّة

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٩٦ ـ ١٩٧، استنادًا إلى: ON THE BUDDHIST COUNCILS THE READER IS ADVISED OF SEE BUDDHA'S PHILOSOPHY BY G. F. ALLEN, P. 28.

ليعلّقوها بعيدة عن الضرر ومبالغةً في تقديسها، ولذلك سُمّيت هذه المجموعات بالسلال الثلاث أو الـ"بيتكات PITAKAS"[1]. فالسلّة الأولى، واسمها "سلّة السبيل" أو "سلّة العقائد" "ABHI DHAMMA PITAKAS"، تحتوي على العقيدة المجرّدة التي ترسم الشخصيّة المذهبيّة؛ والسلّة الثانية إسمها "سلّة النظام" أو "سلّة الشريعة" "VINAYA PITAKAS"، وتحتوي على الناموس الرهبانيّ والتشريع، أو أنظمة حياة النسّاك وفرائضهم كالإعتراف بالخطايا والأخطاء أمام جماعة النسّاك، وروتين الحياة اليوميّة، والشرائع...؛ واسم السلّة الثالثة "سلّة حِكَم المستنير" "SUTTA PITAKAS"، وتحتوي على المواعظ والحكايات المنقولة عن لسان بوذا، ويعود أقدمها إلى القرن الرابع ق.م. هذه السلال الثلاث يُقال لها القانون البالي. وهي تشمل البوذيّة القديمة بدون تحريف أو بتحريف قليل، وهي لهذا أهمّ الكتب المقدّسة البوذيّة. وسُمّيت هذه الروايات الثلاث بالقانون البالي نسبة إلى لغة البالي PALI الهنديّة القديمة التي دُوّنت بها هذه الروايات[2].

الإستنَارة الروحيّة

طبقًا لتقاليد البوذيّة هناك ثلاثة جوانب للاستنارة الروحيّة يجب أخذها بالاعتبار، وهي "الدرامايكا"، و"السامبوجاكايا"، و"النيرماناكايا".

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ١٩٧.

١ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، مرجع سابق، ص ٢١؛ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٩٧؛ BERRY, *RELIGIONS OF THE WORLD*, PP. 45 - 46

الدرامايكا، تعني الامتناع عن الارتباط بالعالم، إذ ليس هناك من شيء يحدث ينبغي أن يجعل الإنسان يتصارع مع هذا العالم. فالعالم في وضع ثريّ ومفعم بالموارد. إنّه عبارة عن تفكير إجماليّ إيجابيّ. وهذه النظرة الأعظم هي بمثابة الموقف الأوّل بالنسبة للطريق. والدرامايكا كحالة سيكولوجيّة هي عبارة عن كائن أساسيّ، إنّها الإجماليّة التي لم يجد الاضطراب ولا الجهل محلاً فيها، إنّها الحياة الإجماليّة التي لا تحتاج إلى نقطة للرجوع إليها.

وتعتبر السامبوجاكايا، أنّ أيّ شيء يخطر في مجال العقل يمكن قبوله بمثابة النور الوهّاج الذي يشعّ من خلال الطريق الروحانيّ الكبير. إنّه يشعّ ويبهر المرء بصفة دائمة، وهناك استكشافات تحدث طول الوقت، وهذا هو سبيل السامبوجاكايا وصلتُها بالطريق. والسامبوجاكايا لا تشمل نشاطًا محدّدًا لأنّها لا تستند مطلقًا على نوع من النشاط الذي يتضمّن السبب أو النتيجة أو الأثر.

أمّا النيرماناكايا، فهي الخصوصيّة الأساسيّة للحياة في العالم. فلدى الناس القوى الإجماليّة، والطاقات والأنشطة المختلفة، وكيفيّة العمل في العالم كما هو، العالم الذي يعيشون فيه. وهذا الجانب يتطلّب وعيًا عميقًا ومجهودًا متوافرًا ليضع البشر نظامًا لمواقفهم وأوضاعهم في الحياة. وكلّ الأنظمة والتقنيّات التي تمّ التحدّث عنها في التقاليد الروحانيّة ترتبط بمبدأ النيرماناكايا الذي يجري تطبيقه في الطريق. فهناك التأمّل والعمل مع الفكر والفطنة، واتّخاذ موقف العناية والاهتمام في العلاقة بين كلّ منها، وتطوير موقف عاطفيّ أساسيّ، وإحساس بالتواصل، وتطوير نوع من المعرفة أو الحكمة القادرة على النظر في الموقف بأسره، والقادرة على اختيار السبيل التي تكون فيه الأشياء قادرة على العمل في سهولة ويسر، وكلّ هذه تكوّن نظام النيرماناكايا.

تلك هي الجوانب السيكولوجيّة ذات الطبيعة البوذيّة التي تقوم بدورها في انسجام. ويحدث تكيُّف الطريق في نطاق هذه الجوانب الثلاثة. وتتّخذ الرحلة نمطًا ينطوي على عنصر للسلامة الأساسيّة الكليّة. وهذه السلامة الكليّة أو وصف الاستنارة الروحيّة ليس لها بريق محدّد بالمعنى العاديّ، إنّها الإحساس بالانفتاح الكامل الذي يجعل في مقدور المرء التسامي وتجاوز كلّ من الأمل والخوف، وبهذا الانفتاح يتّصل بالأشياء كما هي، وليس بالأحرى عمّا يودّ أن تكون عليه. وهذه السلامة الأساسيّة، وهذا المدخل الذي يتجاوز الأمل والخوف، هو موقف الاستنارة الروحيّة[1].

الإحتفَالات الدينيَّـــــة

أعياد البوذيّة تكاد تكون متّصلة، لكنّ أهمّها هو عيد فراغ الزارع من العمل في موسم الجفاف وبداية إجازة الصيف. وفي هذا الموسم يدخل كثير من الناس أديار البوذيّة ومعابدها لقضاء ثلاثة أشهر، وهي عبادة لا بدّ وأن تحصل مرّة على الأقلّ في العمر. تسير في هذا العيد مواكب مؤلّفة من مجموعات من القرى المختلفة. وعلى أصوات الموسيقى والأغاني المنبعثة من مكبّرات الصوت في عدّة نواح، يسير المشتركون حاملين مظلاّت كبيرة ملوّنة مزركشة، وهم يؤدّون، رجالاً ونساء، رقصات دينيّة منتظمة. وفي خلال المسير تبدأ مجموعات الوافدين بالانضمام إلى الموكب الذي ما إن يصل إلى مكان الاحتفال، حتّى تهدأ الموسيقى ويتوقّف الرقص،

---

١ - تشوجيام ترونجبا، الحكمة المجنونة، ص٣١.

وتتقدّم مجموعة من الرجال لا يلبسون إلاّ ما يستر العورة، ويجلسون على صفّ من الكراسي، حيث يتقدّم الحلاّقون وفي أيديهم أمواس حادّة، ويبدأون بحلق شعور الجالسين بمساعدة النسوة اللواتي يغسلن الرؤوس بالصابون، حتّى إذا انتهت الحلاقة، دخل الرجال إلى حجرات ليخرجوا منها وهم يرتدون لباس المعبد، وهو عبارة عن قماش أصفر فاقع اللون يلتفّون به، وبعد أن ينال الناس شيئًا من الطعام والشراب يستأنف الموكب سيره باتّجاه الأديار البوذيّة والمعابد[1].

الإنبِهَارُ الغَربيّ بالبوذيَّـــــــة

تبقى البوذيّة، حتّى يومنا هذا، المذهب الوحيد الذي احترم مبدأ عدم الإيذاء، ولم يستعمل العنف لأيّ سبب كان ولا حتّى لنشر العقيدة[2]. وقد يكون هذا الأمر السبب الرئيس في تحوّل البوذيّة من فلسفة إلى دين عالميّ، بات اليوم يشكّل، من حيث عدد الأتباع، الدين الأوّل، ويليه في كبر العدد الدين المسيحيّ، ثمّ الدين الإسلاميّ ثمّ الدين الهندوسيّ[3].

ومنذ عام ١٩٩٥ أصبحت الديانة البوذيّة موضة العصر، وراح نجوم هوليوود يبحثون عن آثار "بوذا" مع "الساريوغيّين"، وتحوّلت الموضة الدينيّة إلى لعبة سياسيّة

---

١ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

٢ ـ حلو وصعب وكفوري، الحكمة البوذيّة، ص٢٠.

٣ ـ شيّا، إنجيل بوذا، ص ١١.

تستغلّها جهات أخرى في أوروبّا والولايات المتّحدة، وتجعل منها أدوات ضغط على الصين، خصوصًا أنّ النجوم الذي عرفوا الموضة تحوّلوا إلى زعماء لحقوق الإنسان، يطالبون بالحريّة للتيبت واستقلالها عن الصين، ومن ثمّ استقلال مقرّ "الدلاي لاما" زعيم البوذيّة الروحيّ على نفس الهضبة[1]. فالتيبت اليوم هو قطر بوذيّ، وفيها الملك الربّ قد تُوّج ومُثّل في شخص الدالاي لاما، الذي هو البوذا الحيّ[2]. فحتّى خمسينات القرن العشرين، لم يكن قد عرف البوذيّة سوى القليلين من الغربيّين، لكنّ انتشارها اتّسع مع تحوّلها إلى موضة، حتّى أنّ السياسيّين في أوروبّا خرجوا يؤكّدون على دعمهم "للدلاي لاما"، وكثرت زياراتهم لمدينة "دهرامزاي" الهنديّة لأنّ تلك المدينة هي مقرّ حكومة التيبت في المنفى بزعامة "الدلاي لاما". أمّا مملكة التيبت، فقد أصبحت القاسم المشترك بين نجوم الترفيه وحماة البيئة، وأصبحت هيئات متعدّدة الاهتمامات مثل "منظّمة العفو الدوليّة" و"إتّحاد النقابات العالميّة"، تحاول الحصول على دعم سياسيّ من أجل نضال الحريّة لصالح "الدلاي لاما"، الزعيم الروحيّ للبوذيّة الحديثة[3]. ومَن يزور منطقة "لهاسا" أو "لاسا" في التيبت اليوم، يجد معبدًا فخمًا غاصًّا بالكهنة والرهبان واللامات، ويجد، فوق هيكل مرتفع، صنمًا ذهبيًّا ضخمًا يحمل اسم "غوتاما بوذا" ويسمع صلوات ترتّل أمام ذلك "الربّ"، وتلعب الأجراس والبخور دورها في هذه المراسم المدهشة[4].

---

١ ـ طوغان وليد، الذين كفروا بالمسيح، الكنائس الكاذبة، دار الخيّال (مصر،٢٠٠١)، ص٩٤ ـ ٩٥.

٢ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٢٠٥.

٣ ـ طوغان، الذين كفروا بالمسيح، مرجع سابق، ص٩٥.

٤ ـ شلبي، أديان الهند الكبرى، ص٢٠٥.

لقد فاق انبهار الغرب بالبوذيّة كلّ الحدود، ليس في الولايات المتّحدة الأميركيّة فقط، بل في أوروبّا أيضًا. ففي ألمانيا بدأ اعتناق البوذيّة ينتشر بقوّة بين رجال الإقتصاد وأساتذة الجامعات، وعلى مستوى نجوم السينما، الذين عزوا سبب اعتناق البوذيّة إلى إنّهم وجدوا فيها الإجابات التي لم يحصلوا عليها في كنيستهم الإنجيليّة، أو لأنّه لم تُشنّ حرب باسمها، أو لأنّها ديانة مسالمة جدًّا. وبلغ الهوس بالبوذيّة درجة كبيرة، إلى حدّ أنّ منتجي الأفلام الهوليوديّة خصّصوا مئات الملايين من الدولارات لإنتاج الأفلام عن المدينة الفاضلة في البوذيّة. وانتشرت أيضًا، في مختلف الولايات المتّحدة، المراكز البوذيّة التي تستقطب رجال الأعمال والممثّلين والسياسيّين الباحثين عن الهدوء النفسيّ. وفي أغلب المقاطعات الألمانيّة انتشرت الأفلام والروايات التي تتضمّن أحاديث عن رموز بوذيّة، حتّى أنّه بات يقدَّر عدد معتنقي الديانة البوذيّة من الشعب الألمانيّ بما بين ٣٠٠ ألف ونصف مليون، إضافة إلى ١٢٠ ألف بوذيّ من دول آسيا يعيشون في ألمانيا ويمارسون شعائرهم في مراكزهم الخاصّة. وقد نشأ بعض الطوائف المتأثّرة بالبوذيّة لكنّها تميّزت بالعنف، مثل طائفة "السوكاجاكي" و"السارايوغا"[1].

وفي حديث صحافيّ، عزا "الدلاي لاما" سبب انبهار الشعوب بالديانة البوذيّة، إلى أنّه "ناتج عن سوء فهم، فالغرب يبحث عن كلّ جديد ومثير، ورأى الغرب أنّ البوذيّة مثيرة، مع أنّها ليست هكذا".

يُعتبر هذا الزعيم الروحيّ كثير الأسفار، فهو يتنقّل كثيرًا خارج التيبت ويلتقي مندوبين من الاتّحاد الأوروبّيّ والرؤساء الأميركيّين، وقد حاز العديد من الأوسمة

---

١ ـ طوغان، الذين كفروا بالمسيح، مرجع سابق، ص٩٨؛ راجع الجزء الرابع والعشرين من هذه الموسوعة.

وافتتح عددًا كبيرًا من المراكز البوذيّة. والدالاي الحاليّ تمّ تتويجه دينيًّا وهو طفل عام ١٩٤٠ في القلعة الضخمة ذات الألف حجرة، ثمّ تُوّج عام ١٩٥٠ قائدًا عامًّا لشعب التيبت وبدأ صراعه المبكّر ضدّ الصين لنيل استقلال بلاده، وعام ١٩٥٩ انفجرت ثورة شعبيّة أدّت إلى هروبه إلى الهند برفقة ثمانين ألفًا من شعبه، ونفّذ الجيش الصينيّ مذبحة لقي فيها نحو ٨٧ ألف شخص مصرعهم. ومنذ ذلك الوقت والدالاي يعيش في منفاه. وهو متفائل بعودته إلى وطنه مرّة أخرى، وقد نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٩، وقال إنّ قدوته ثلاثة: غاندي، والمستشار الألمانيّ ويلي برانت، والرئيس التشيكيّ فاسلاف هافيل. وفي العام ١٩٩٥ بدأ الدالاي البحث عن الطفل الذي سيخلفه، واختار لهذه المهمّة طفلاً عمره ستّ سنوات، إلاّ أنّ السلطات الصينيّة قامت باختطاف الطفل وسجنه[1].

---

١ ـ طوغان، الذين كفروا بالمسيح، ص ٩٧.


Bibliotheca Alexandrina
0586468